بسم الله الرحمن الرحيم

تم رفع هذه المادة العلمية من طرف أخوكم في الله: خادم العلم والمعرفة (الأسد الجريح) بن عيسى قرمزلي. ولاية المدية

الجنسية جزائرية

الديانة مسلم

موقعي المكتبة الإلكترونية لخادم العلم والمعرفة للنشر المجاني للرسائل والبحوث على

www.Theses-dz.com

للتواصل: رقم هاتف 00213771087969

البريد الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

حسابي على الفيسبوك: www.facebook.com/Theses.dz

جروبي: https://www.facebook.com/groups/Theses.dz

تويتر https://twitter.com@Theses_DZ

الخدمات المدفوعة

01- أطلب نسخة من مكتبتي

السعة: 2000 جيقا أي 2 تيرا !

فيها تقريبا كل التخصصات

أكثر من 80.000 رسالة وأطروحة وبحث علمي

أكثر من 600.000 وثيقة علمية (كتاب، مقالة، ملتقى، ومخطوطة...)

المكتبة مع الهرديسك بالدينار الجزائري 50.000.00 دج

المكتبة مع الهرديسك بالدولار: 500 دولار .

المكتبة مع الهرديسك بالأورو: 450 أورو

02- نوفر رسائل الأردن كاملة ب 500 دج أو 20 دولار للرسالة الواحدة على

https://jutheses.ju.edu.jo/default2.aspx

لا تنسوني بدعوة صالحة بظهر الغيب: ردد معي 10 سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

اللهم صل وسلم على نبينا محمد .... بن عيسى قرمزلي 2016.

جـامعـة الجـزائـر

معـهـد اللغـة والادب العربـي

عنـوان البـحـث
أدب المسعدي على ضوء الرؤية الوجوديـة

رسـالـة مقـدمـة الـى معـهـد الـلـغـة والادب العـربـي
بجـامعـة الجـزائـر لـنـيـل ديـبـلـوم الـدراسات المـعـمـقـة

اعـداد الطـالـب :
بـوغـانـمـي نـاصـر

بـاشـراف :
الدكـتور حامـد حفـنـي داود

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٤٢٨/٥٩

ع /
٨٤٠/٩٠٩٦١١
ن ا ص

مكتبة الجامعة الاردنية
٢٥ آب ١٩٩٣
رقم التسلسل ٤٢٠٣٨٨
رقم التصنيف

ايداع من جامعة الجزائر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمـــــة

ان اختيار بحث حول الوجودية والالمام بأصولها ومسلماتها ومعاشرة أعلامها على اختلاف مشاربهم ، ومعرفة جوهرها وتتبع مداها وصداهـــا وتمحيص أهدافها ونتائجها ، والوقوف على غثها وسمينها ، سليمها ومريضها فرديتها أو جمعها ، ليمثل نظرة شاملة ،على غاية من الاهمية ،كانت تراود وثبة الشباب في ريعانه ،وتجسم حلما وأملا يقضان مضجعه ويشغلان ذهنه اذا هو لم يحققهما . تلك حقيقة ما انفكت تعتلج في قرارة نفسي وما برحت تدفعني دفعا عسيرا حتى سنحت الفرصة بعد لأيٍ بامكانية القيام ببحث متواضع لنيل دبلوم الدراسات المعمقة .

وما كان غرض الدراسة برمتها الا ارضاء لحلم ارتسم في أجمل لحظات العمر وأحلاها . ولا غرو أن وقع الاختيار على هذا البحث لأنّ براعم/شبابي تفتحت على صدى هذا التيار الشائع انذاك شيوعا منقطع النظير ، وكنت يومئـــذ أجهد نفسي لتكوين نظرة عامة على الاقل على هذا التيار . ووجدت شيئا من الابهام والغموض في استيعاب المبادئ والمسلمات الوجودية ،وكان يقابل ذلك الاستعصاء في الهضم والاستيعاب ارادة لا تكل ولا تفتر بغيـــة تذليل ما استعصى وفهم ما غمض . وهي الرغبة نفسها التي تحفزني الآن للدراسة . وزيادة على هذه الرغبة الملحة دوما على طلب المعرفة فان هناك سببا خارجيا وجهت الدراسة هذه الوجهة هو ايماز الاستاذ المشـــرف الدكتور محمد مصايف . ورأيت أنه من آداب البحث ألا مانع في التوجيـــه حتى لوكان لي اختيار غير هذا . خاصة أن ظروف انخراطي في الدراسة كانت نوعية . وهناك دافع أخر هو أنني لاحظت أن هناك نفورا واهمالا وربما جهل لجوهر الوجودية المسيطرة على الحضارة الراهنة ،لاحظـــت ذلك لدى كثير من الناس الذين يصفون أنفسهم بالمثقفين والمعنيين بشـــؤون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثقافة والادب في وطننا خاصة أن هذا التيار أحدث تأثيرا عظيما في الفكر البشري المعاصر ولاسيما في الحضارة الغربية ومن احتك بها وتأثر ؛وظننت أن ذلك التأثير يظل ساريا دون ريب حتى نهاية القرن الراهن بالرغم من أن بعض صيغ هذه الفلسفة قد تجاوزها الوقت .

تلك جملة من الحوافز الذاتية والموضوعية تضافرت لتحفز همتي أن تقوم بمثل هذا البحث المتواضع الذي ليس لهمن غرض سوى الفضول العلمي والتوق الى المعرفة .

ولئن كان البحث متواضعا وغايته نبيلة فان المعاناة كانت كبيرة ويرجع ذلك الى سعة الموضوع وتشعبه وجدته . وقد فضلت مبدأ الكيف ،

وأخيرا فانه لا يسعني الا أن أشكر الاستاذ المشرف على ما أسداه لي من توجيهات قيمة ،وعلى مابديه دوما ازاء طلابه من تفهم وتواضع وكرم أصيل .

كما أشكر كل الذين قدموا عونا لانجاز هذا البحث المتواضع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــــــــد

مع فجر الاستقلال في تونس، طبع محمود المسعدي، للمرة الأولـــــى، تحفته الفنية رواية "السد". وعلى اثر صدورها برزت دراسات قيمة حولهـا، بعضها ظهر في مجلة الفكر بعنوان: "النقاش الأدبي حول السد".(1)

وبعضها الآخر ظهر في صحف مشرقية ومصرية خاصة. ونشير هنـــا الى مقالين دبجتهما يراعة عميد الأدب العربي طه حسين، بعنوان "أصداء تونسية". وقد تضمن المقال الأول تحليل طه حسين لرواية السد وتقيما لها ومقارنتها مع رواية "سيزيف" للكاتب الفرنسي "ألبير كامو".

ويبدو أن المسعدي لم ترقه تلك المقارنة، فرد على طه حسين بأنه كتب روايته قبل اطلاعه على "سيزيف"، وفند المؤلف في رده رأي طـــه حسين القائل بأن جهود "غيلان" بطل رواية السد مثل جهود "سيزيف" بطل رواية الكاتب الفرنسي، مؤكدا على أن جهود الأول ذات معنى وقيمة وغاية، ولكن جهود الثاني، كانت عبثا ولا غاية من ورائها. وبناء على هذا/التفنيد عدل طه حسين من بعض أرائه في السد محاولا في مقاله الثاني أن ينزله في ظروف المجتمع التونسي ما بين الحربين، مبديا اعجابه الشديد بلغـــة السد وخياله ورمزيته. ومهما يكن الخلاف بين الأديبين الكبيرين طـــه حسين والمسعدي فان معظم آراء الأول كانت صائبة ان لم نقل كلها.

ونشير أيضا الى مقال الناقد المصري، الدكتور عبد الحميد يونس قاله بمناسبة ندوة "مصر تكرم صاحب السد"(2) أقامها معهد الدكتور ابراهيم ناجي الثقافي وشاركت الاذاعة المصرية في تسجيل الندوة. وقد شارك الدكتور يونس استاذ النقد الأدبي بجامعة القاهرة بكلمة تحليلية وتقييمية للسد

---

1) مجلة الفكر س 2 ع 6.
2) محمود المسعدي، السد / ط 2. ص: 85.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقتطف منها مايلي : " وخيرلنا أن نعد هذا (السد) في منزلة بين المنازل : بين الشعر وبين النثر بين الدراما وبين القصة "(1) .

واذا تجاوز المرء المقالات والاستجوابات وهي كثيرة لا يسمح المجال هنا باستعراضها كلها ،زيادة على المحاضرات والندوات ،وجمع أهمها نور الدين صمود في كتاب، سماه : محمود المسعدي وكتابه السد " ،وأصبح هذا العمل يعرف عند الباحثين التونسيين بمجموعة صمود لأنه جمع أهم المقالات والندوات والمحاضرات والاستجوابات حول السد ونضدها وحاورها ليجعل منها كتابا نقديا يساعد القارئ على فهم أفضل لرواية السد .

وكما تعددت المقالات حول هذه التحفة الفنية تعددت كذلك الدراسات خاصة بعدما نشر المؤلف كتابين أخرين هما : " حدث أبو هريرة قال" سنة 1973 . ثم " مولد النسيان " سنة 1974 . وأخيرا صدر له كتاب : "تأصيلا لكيان " سنة 1979 .

ولقد نالت تحفة المسعدي الفنية نجاحات كبيرة أذاعة صيت مؤلفها خارج حدود وطنه شرقا وغربا .

وقد أغرى هذا النجاح المعتبر كثيرا من الناس بالقيام بدراسات تتناول جميع مؤلفات الكاتب أو واحدا منها ،ولكنها في الجملة دراسات شاملة . ومن هذه الدراسات العامة نذكر محاولة الاستاذ محمود طرشونة بعنوان : " الأدب المريد في مؤلفات المسعدي ".

ولعل أهم ما في هذه الدراسة تلك النتائج التي توصل الدارس اليها وتبدو حسب اعتبار موضوعي محض أنها معقولة لاسيما ما يتعلق منها بنهايات

---

1) محمود المسعدي ،السد ط 2 . ص : 86 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأبطال المسعدي التي نشاطره الرأي في أنها ليست نهايات فشل ويأس رغم أنها في ظاهرها كذلك ولكنها في جوهرها متفائلة وآملة .

ومن ناحية أخرى لا أشاطره الرأي في ما ذهب اليه من اعتبار الحرية عند المسعدي حرية اعتزالية لاسارترية خاصة أنه بنى استنتاجه على أساس نظرية وجودية غربية محضة . فيقول :" وهكذا تلتقي مؤلفات المسعدي بالوجودية في معاني الارادة والحرية والفعل والمسؤولية والعبث والقلق"(1) ثم يقول مستدركا :" لكنها تختلف عنها في عدة نقاط جوهرية أولها أن الحرية الانسانية التي يدعو اليها المسعدي حرية اعتزالية لا سارترية، وبالتالي فان مفهوم المسؤولية الناتج عن تلك الحرية هو غير المفهوم الوجودي الملحد . فلاشك أن الانسان في نظر المعتزلة حر في اختيار أحد النجدين : طريق الخير وطريق الشر"(2) . وهذا ما لا نشاطره فيه على كل حال لأنه اذا سلمنا بأن حرية المسعدي ليست لا ملحدة ولا سارترية فان ذلك لا يعني مطلقا أنها اعتزالية بالضرورة .ولأن الحرية الوجودية لا تنحصر فحسب في المفهوم السارتري وكذلك الشأن بالنسبة للمسؤولية .

ومن الدراسات التي تناولت مؤلفا واحدا من أعمال المسعدي الا بداعية دراسة جادة بعنوان :" المسعدي من الثورة الى الهزيمة في : حدّث أبو هريرة قال "، من تأليف الحفناوي الماجري . ولكن جدية هذه المحاولة لم تعصمها من بعض الهفوات .

ولعل من الافكار التي لا أراها سديدة ،بما تحمله في طياتها من تناقض قوله :" وهي مسيرة مثلت بحق ثورة وجودية تنوعت مراحلها حسب تنوع

---

1) محمود طرشونة ،الأدب المريد في مؤلفات المسعدي .ط.2 . ص : 46 .
2) المصدر نفسه . ص : 47 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التجارب . فقد بدأت بثورة أخلاقية ،وتبعتها ثورة اجتماعية ،لتصل أخيرا الى ثورة دينية واتخذت كل المراحل شعار الرفض"(1) . أولا أن مسيرة أبي هريرة الوجودية بدأت بالمرحلة الجمالية وليس بثورة أخلاقية كما يرى الماجري . ثانيا لو سلمنا جدلا أن هذه المراحل التي اعتمدها بعض الدارسين مثل الماجري وكذلك الاستاذ مصطفى فاسي في رسالة جامعية بعنوان :" البطل في القصة التونسية ". أقول ان هذه المراحل الثلاث قابلة للنقد والتجريح ،لأن الفصل بين الاخلاق وبين الدين غير متصور منطقيا وواقعيا ،فالدين اخلاق ،والاخلاق من الدين .

والغريب ان هذا الخلط الذي وقع فيه المسعدي لم ينتبه اليه أي كان ممن درسوه دراسة كلية أو جزئية .

وكذلك لا أشاطر الرأي فيما ذهب اليه الماجري من أن فردية أبي هريرة سبب في هزيمته ، على أني أوافقه فيما رآه من أن قصة أبي هريرة ليست سوى تجربة ذهنية خيالية ،واتبع منهجيا ذهنيا ووصل الى حل ذهني . وبما أن التجربة ذهنية محضة في منهجها ونتائجها فلا يعقل اذن ان نحكم على البطل بالهزيمة مثلما ذهب الماجري وغيره الى ذلك ،

ان القارئ لا يجد تعليلا مقنعا في ما ذهب اليه الاستاذ فاسي من أن نهايات أبطال المسعدي ليست متشائمة ويائسة،(وربما لو انطلق ابو هريرة وحده. بحصانه في الليل المظلم في عالم المجهول لكان أقنعنا أكثر بدخوله عالم(*)

وأني أوافق الاستاذ فاسي في ما ذهب اليه من أن /تجربة الجماعة لا يعود الى الجماعة ذاتها بل يعود الى تجربة أبي هريرة ،التي /تعدو أن تكون مجرد تجربة ذهنية .

---

1) الحفناوي الماجري . المسعدي من الثورة الى الهزيمة في : حديث أبو هريرة قال . ص: 85 .

*) التصوف ، ولكان أبعد القارئ بما يمكن أن يقع فيه من التباس عند القراءة ». فما تجربته اذن سوى بحث عن الذات ،الجوهر، الذات الفرد مثلما نجد في المذهب الوجودي على العموم) ص: 466 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولي ملاحظة غير متيقن من صحتها حول تجربة الحس عند المسعدي يرى الاستاذ فاسي أن البطل عاش هذه التجربة بعمق وحس واندماج كامل لانها تخص ذاته وجسده ، وهذا صحيح ،والاحظ في هذا الصدد أنها تخص ذاته وجسده وأكثر من ذلك أنها التجربة التي تصورها المؤلف ذهنيا وعاشها كتجربة حياتية معاشة حقيقة مما جعلها عميقة حقا وواقعية فعلا . وكما قلت سلفا أن المحاولات حول اعمال المسعدي الابداعية وفيرة . ومن غير المعقول استعراضها في تمهيد كهذا . ولهذا سنشير فقط الى محاولة أخيرة حول قصة " حدث ابو هريرة قال " بقلم الدكتور توفيق بكار . وهي دراسة متأنية وعميقة ولكن لي ملاحظة بسيطة على موقف الاستاذ توفيق بكار من نهايات أبطال المسعدي ،فهو يرى :" أنها تعتمد معنى واحد هو " الجواز " في شكل غامض الى عالم أخر "(1) . ولكنه لم يحاول أن يخفف من حيرة القارئ ازاء تلك " النهايات " حيث يقول :" ولكن القارئ يظل حائرا في معنى هذه " النهايات " لا يدري أهو عظمة الانكسار أم عظمة الظفر "(2) .

وأنا أظن أنه ينبغي حسم المواقف سواء أكان ذلك بناء على تطور أحداث القصة في اتجاهها العام ،أم اعتمادا على آراء فلسفية ربما تبناها الكاتب أو تأثر بها في اطار مذهب المسعدي في الحياة .

ويبدو لي أن الاستاذ توفيق بكار لم يدرس قصة "حدث أبو هريرة قال" في اطار فلسفة حياة واضحة المعالم أوفي نطاق النظرية الوجودية في حين أنه حاول أن يفسر نزعة التشاؤم عند المؤلف وذلك بردها الى ظروف الحرب الكونية الثانية ، ملحا على فكرة تجذير الشكل الفني لقصة "حدث أبو هرير قال"

---

1) المسعدي - حدث ابو هريرة قال . ص : 38 .
2) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التراث . وأنا أرى رأيا آخر يخالف آراء كل الذين درسوا قصة "حدث أبو هريرة". وخلاصة هذا الرأي هو أن المسعدي قد اختيار شكل الحديث ليس فقط كتجربة فنية قصوى بل اختياره لما هو أهم من ذلك، هو قضية التنظير الفلسفي أو المذهبي . أن الكاتب قد تفطن الى أن افضل شكل فني أصيل يستوعب تجربته الوجودية كفلسفة حياة ،بمراحلها الخمسة لاسبيل اليه الا في شكل الحديث لانه عبارة عن دوائر متداخلة ومفضية الى القارئ دون أن يحس بأن هناك عملية تنظيرية مجردة باردة .

فالحديث في قصة "حدث أبو هريرة قال" هو الوعاء الوحيد القادر على أن يحتضن فلسفات مختلفة في انجذاب وروعة وسحر لا تتوفر في أي شكل تعبيري أخر . ذلك أن قصة "حدث أبو هريرة قال" تمثل الخلفية الفكرية لاعمال المسعدي الابداعية كلها ،وما السد ،ومولد النسيان سوى عودة الى هذه الخلفية او الارضية والتوسع في جوانب منها كانت مطروقة في قصته ولم تشد أعجاب الناس اليها ، اعجابا يلبي رغبة الكاتب .

ولئن كانت الدراسات حول أعمال المسعدي الابداعية عديدة بحيث لا يسعها هذا التمهيد ،فانها جميعا قد أضاءت جوانب هامة من شخصية المسعدي الادبية ، ويسرت فهمها للقراء .

وأخيرا أظن أن أفضل الدراسات لمثل هذا الادب هي التي تقوم على مناهج الادب المقارن .

فمن هو المسعدي ؟ وما هي آثاره ؟ وما هي فلسفته في اطار فلسفة الحياة ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولد المسعدي ونشأ في أسرة تونسية ،عام 1911م ،بقرية "تازركة" في الوطن القبلي . تعلم في كتاب قريته القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن . التحق بالمدرسة الصادقية الابتدائية في عام 1922م بتونس تحصل على شهادة الباكلوريا سنة 1933م. سافر في السنة نفسها الى باريس ،وتخصص في الدراسات الادبية ،تحصل على الاجازة سنة 1936. اثناء دراسته بفرنسا أنكب على مطالعة ألمح أعلام الفكر والادب بأوروبا ، وقراءة أفذاذ الفكر والأدب في التراث العربي . فجاءت ثقافته مزيجا متميزا فكان أنتاجه أيضا ذا خصوصية وتفردا .

بدأ نشاطه بتدريس اللغة والأدب العربي بمعاهد ثانوية في تونس من 1936 الى 1948 حيث نال شهادة " التبريز " التي خولت له العمل كاستاذ التعليم العالي ومدير الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العليا بتونس طيلة سبع سنوات . من 1948 - 1955م وتولى خلال الفترة الممتدة بين 1944 م- 1947م ادارة مجلة "المباحث" الثقافية وكان ذلك سببا في شهرته ككاتب له مدرسة جديدة في الادب العربي الحديث واضطلع بمسؤوليات في ميدان الكفاح الوطني والنقابي فتعرض للاضطهاد والابعاد .

ومنذ استقلال تونس تقلب في وظائف سامية : متفقد التعليم الثانوي ،فوزير للتربية القومية (من 1958 - 1968) طبق خطة تعليمية عشرية قضت هذه الخطة على كل مظاهر التعليم الموروثة بما في ذلك الجامعة الزيتونية . تولى كذلك مهام وزير دولة سنة 1969م ثم وزير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشؤون الثقافية ،وهو الآن رئيس مجلس النواب في تونس . انتخب عضوا ب بالهيئة التنفيذية للمنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم : يونسكو من 1974 حتى الآن ومثل تونس في منظمات دولية : سياسية وثقافية . انها حياة طيئة بالنشاط والعطاء في أكثر من مستوى .

مؤلفاته :

يتضح الكاتب بموهبة بيانية نادرة الوجود بين الكتاب العرب المعاصرين، ولكن بالرغم من خصوصة المرحلة التي عاشها على الصعيدين المحلي والعالمي وتقلبه في العديد من الوظائف السامية ،ومشاركته في النضال الوطني وتجاربه العديدة مع الناس خلال حياته الحافلة بالنشاط ،فان الاعمال الابداعيةوالمحاولات النقدية القيمة التي دبجتها يراعه تعتبر نسبيا قليلة ،الا انها رغم قلتها قد بوّأته مكانة عالية لم يتبوأها غيره من ذوي الانتاج الوفير .

ويتمثل تراث السعدي المنشور الآن في نوعين من الاشكال الفنية،

أ ـ الاعمال الابداعية : 1) السد صدر عام 1955 م وأعيد طبعة 1974 .

2) حدث أبو هريرة قال، صدر عام1973 وأعيد.ط

3) مولد النسيان ،صدر عام 1974 .

ب ـ مجموعة من المقالات والمحاولات النقدية والافتتاحيات والمحاضرات جمعت وطبعت في كتاب : تأصيلا لكيان . صدر . بتونس. بدون تاريخ

وهذه الاعمال القليلة ولكنها قيمة أهلت مؤلفها لنيل الجائزة الكبرى للاستحقاق الثقافي في تونس . وجائزة تقديرية من منظمة العلوم والثقافة لجامعة الدول العربية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضـــع السيـــاسي :

تصادف السنة التي ولد فيها المسعدي نهاية فترة مستنيرة من الاحتجاج والمقاومة الوطنية ، وتمثل مرحلة هامة في نمو الوعي الذاتي القومي . فكانت سنة مطوّة بالاحداث محليا ودوليا . فعلى المستوى المحلي شاهدت هذه السنة نشوب الحرب التي أعلنتها ايطاليا على تركيا بنية استعمارليبيا ، وقد كان لها أثر بال بالغ في نفوس التونسيين الذين هبو النجدة أخوانهم في طرابلس ، ثم صبوا غضبهم ونقمتهم على الايطاليين المقيمين في تونس وعلى المستعمرين الفرنسيين عامة . ونتج عن هذا التأزم الشديد اندلاع ثورة شعبية عارمة ذهب ضحيتها أبرياء كثيرون . وكان حصاد المعركة فرض الحصار العسكري على مدينة تونس العاصمة وضواحيها مدة ثمان سنوات من (1912 - 1920م) وعطلت الصحف العربية ، واغلقت النوادي والجمعيات وكممت الافواه وأخسرت الالسن واعتقل الزعماء الوطنيين وأبعدوا . ورغم النكسة التي منيت بها الجهود النهضوية ، فان الوعي بالذاتية التونسية العربية ما انفك ينمو سرا ويتطور منتظرا الفرصة الملائمة للانطلاق من جديد ، وهو أكثر تصميما واستماتة في النضال حتى الاستقلال . وبعد فترة الخرس الطويلة بسبب ظروف الحرب الكونية ، انبعثت الهمم تؤسس الاحزاب السياسية وتطالب بالاستقلال ، وكان أول المنظمات السياسية التي برزت هو الحزب الحر الدستوري 1920 ، ثم ظهر سنة 1922 " حزب الاصلاح " منافسا للحزب الدستوري التونسي ، وكذلك الحزب الشيوعي ، ثم برزت حركة عمالية تونسية مستقلة تدعى : " الجامعة التونسية " و " العمال التونسيين " . سنة 1924 . وهكذا تأخذ السياسة في هذا الظرف المتوتر شكل تنظيمات لها هيكل وقواعد على غرار التنظيمات السياسية في البلدان الاخرى . وقد أنشأت هذه الاحزاب وغيرها صحفا تظهر عليها ملامح الصحافة المتقدمة في فكرها وعقيدتها ورجالها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منذرة المستعمرين : " لا تمنعونا حقنا في ادارة بلادنا ، فقد قلتم في معاهدتكم لسمو الباي 1881 أنكم تتعهدون بترقية المملكة وتأييد الحكومة في مركزها بارجاعكم لها شيئا فشيئا ما أخذ تم لها من سلطتها الشرعية التي استلمتموها موقتا . وها نحن اليوم قد مضى أكثر من جيلين على احتلالكم نعيش في بلادنا (كمية) مهملة لا قيمة لها الا في دفع الضرائب وتسخير قواها لفائدة المستعمرين الفرنسيين . . . الحرية والعدالة والمساواة والا الموت "(1).

وهكذا شهدت الحياة السياسية في تونس خلال العقد الثالث من هذا القرن حركة نامية نقابية وسياسية تخللتها احداث دامية واضرابات واصطدامات عنيفة راح ضحيتها نفر من العمال .

وقد سجل الشعر السياسي في تونس تلك الاحداث التي عاشتها البلاد . ومن ابرزها حادثة "سوق الاربعاء" و" بنزرت " و " رصيف تونس " وفاجعة " المرسى "وغيرها . وقد واجهت السلطة الاستعمارية النشاط السياسي ورجاله بالقمع والدسائس، فتكلت بزعمائها نفيا وسجنا فهدأت الحركة ومال من بقي في اللجنة التنفيذية الى المهادنة . ولكن سرعان ما هبت رياح التجديد في مطلع العقد الرابع "عصر الشابي" قوية مؤثرة حيث شاركت نخبة من شباب تونس المثقفة ثقافة غربية عالية وانخرطوا في الحزب الوحيد يومئذ ، وادركوا أن الحركة تسير وفق منهجية تقليدية ، وزعامة متوارثة ، فبادرت جماعة من الشباب بزعامة الحبيب بورقيبة والدكتور الماطري وغيرهما الى بعث الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في موتمر قصر هلال في 2/3/1934م ، وبهذا الحدث الهام عاد الامل قويا ومجددا الى الشعب بضرورة استمرار الكفاح والمقاومة حتى الاستقلال واتم الله نعمته على الشعب التونسي بالنصر والتحرر .

---

1) جريدة المبشر العدد الرابع . سنة 1922 .
2) محمد الصالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر . 1870/1970م . ص: 209 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع الاقتصادي والاجتماعي :

لئن كانت الحالة السياسية في تونس خلال النصف الاول من هذا القرن نشطة وحافلة بالمشاريع الهادفة والمتطورة في الحياة السياسية والنقابية، وان كانت لم تسلم من العثرات والمضايقات ،فان الحالة الاقتصادية كانت متدهورة جدا ونجم عن ذلك ان المجتمع الذي انتقلت املاكه ،وفلاحته ، وصناعته الى المستعمرين ،أصبح يعيش في أوضاع سيئة للغاية ،فيها يعاني التونسي البؤس والحرمان ،ويلقى من زمرة المعمرين النهمين كل ضروب الاهانة والاحتقار والاستغلال الفاحش والتعذيب وحتى القتل لاتفه الاسباب وقد زخر الشعر الوطني بمثل هذه المظاهر المؤلمة التي عاناها الانسان التونسي خلال تلك الحقبة السوداء من مسيرته الكيانية . وصور لنا بعض الشعراء تلك المآسي والاحداث الفظيعة ،مثل حادثة سوق الاربعاء التي مفادها أن عاملين تونسيين قطفا شيئا من عنب أحد المعمرين ،وكانا يعملان في مزرعته ،فما كان من المعمر المتدن والمتحضر جدا الا أن شنقهما شنقا :

هل من التدبير والحكمة أن يشنق الشرقي ؟وهل هذا سداد ؟
هل اذا ما مس عنقودا من الـ عنب المبذول يرمى بالصفاد ؟
وهو ساقيه وحاميه وخـا دمه من غير أجر يستفاد
هل الى الكتاب أن يحصوا لنا ما نقاسيه ؟ وقد جف المداد
يا رجال الغرب رفقا مالكم ليس ينأى عن أياديكم زناد .(1)

وتذكرني هذه الابيات بما قاله الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي في معنى الحادثة نفسها ومما جاء فيها قوله :

الا انهضي وشمر أيها الشرق للحرب وقبل غرار السيف وأسل هوى الكتب
ولا تغتران قيل عصر تمدن فقد بان ما قالوه من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهب.

---

1) أحمد خالد . الطاهر الحداد والبيئة التونسية في الثلث الاول من هذا القرن . ص : 70 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رسم لنا الكاتب الاجتماعي الطاهر الحداد لوحات حية ناطقة من حياة الشعب في البيت والشارع ، وصورا معبرة من حياة العمال التونسيين.

الحالة الثقافية :

لئن كانت الحياة السياسية خلال النصف الاول من هذا القرن نشيطة، وكانت الحالة الاقتصادية والاجتماعية متدهورة ، وسيئة للغاية ، فان البلاد كانت تشهد نهضة فكرية وأدبية لاحت بوادرها في أواخر القرن المنصرم وتجلت بادئ بدء في وفرة الصحف العربية رغم أمكانيات أصحابها المتواضعة، وقلة عدد القراء نظر التفشي الجهل والامية لدى الاغلبية الساحقة، ورغم مضايقة السلطة الاستعمارية لحرية الصحافة العربية بصورة لا نجدلها مثيلا في المستعمرات الاخرى. وعندما يتأمل الانسان هذه الوفرة في الفترة الممتدة بين سنتي 1888 - 1911م والتي بلغ عددها خمسين مجلة وجريدة، يدرك قيمة تلك الجهود النهضوية المتطلعة نحو غد أفضل . ولهذا اعتبرت هذه الفترة منعطفا حاسما في تاريخ النهضة الشاملة بتونس ، ومن أبرز ملامح النهضة الثقافية والأدبية ظهور مجلتين متخصصتين ، أولاهما مجلة ذات صبغة روحية اصلاحية سلفية هي "السعادة العظمى" في سنة 1904 م. ومجلة يغلب عليها روح التحرر وطرافة أبحاثها هي : "خير الدين" في سنة 1906م. والتي ربما كانت حافزا قويا لظهور فن القصة في بلادنا ، و" هاتان المجلتان كانتا تحولتا بقضايا الفكر الى مناخ أكثر انفتاحا واستقلالا ، وحررتا الأدب من تبعيته للصحافة الأدبية ، وحققتا مع ثورة الفكر على التقاليد رجال الاصلاح ثورة جديدة في التطلع لمستقبل أدبي حافل بالبديع والمستحدث". (1)

ويذهب الباحثون في هذه المسألة الى أن فكرة الوعي القومي قد اكتملت في العقد الاول من هذا القرن وصارت تبعث/قلق المستعمرين "كانت النهضة

1) د . محمد الصالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر 1870 - 1970 . ص: 63 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفكرية والوعي القومي قد بلغا مبلغا لم يبق للاستعمار قبل باحتماله ، فاعلنت حالة الحصار والاحكام العرفية العسكرية - 1912م ، بكل تراب المملكة وعطلت جميع الصحف العربية " ومنعت الاجتماعات ، وتوقفت الجمعيات والنوادي ، وأغلقت المطابع ونزل الارهاق ، سجنا ونفيا وعقوبات ادارية على رجال الحركة الوطنية فخمدت الحركة الفكرية والادبية وساد عليها الركود "(1) . وهكذا تتلقى جهود النهضة ضربة قاضية وقد تضاعف خطرها بسبب اتصالها بحلكة الحرب الكونية الاولى ، فاستفحل الحكم العسكري استفحالا وشدد من قبضته الحديدية على النفوس طيلة ثمان سنوات كاملة . وقد تفاقم تألم الناس وتذمرهم من سوء الحال وهول الحرب وقساوة الحياة والتجنيد العام في صفوف الشباب التونسي وارساله أفواجا الى مجازر الحرب . ولكن رغم هذا الجو القاتم المنذر بالثبور فان روح الشعب يقظة ومتوجهة . " ذلك هو الشعب التونسي ، تعلو ناره طبقة من رماد عابرة ، فيخيل اليك أن النار قد خمدت ولم يبق لها من أثر ، انما هي بنفحة واحدة من ريح طيبة ، تنفض رمادها وتعود الى اتقادها . "(2)

وبعد الخرس والكبت وليل الحرب البارد الطويل عاد الأمل الى النفوس قويا مؤثرا ، وانطلقت الجهود النهضوية من جديد أكثر عزما وتصميما على المقاومة وتطوير النهضة الثقافية ، ومن ملامح هذا التطور الثقافي اقبال الناشئة التونسية على التعليم اقبالا هائلا بلغت نسبتهم حسب احصائية 1929 . واحدا على خمس ممن وصلوا سن التعلم ومن بينهم نجد 3ر777 فتاة تونسية ، وقد اشتد الاحتكاك بالحضارة الفرنسية حيث نظمت جمعية قدماء المعهد رحلات عديدة سياحية ودراسية الى فرنسا ، تدوم أربعة أسابيع كاملة ، يتعرف من خلالها الطلاب على الحياة الفرنسية العامة ومدى التطور العلمي والحضاري الذي بلغته ، ولعل من أبرز ملامح تلك النهضة النامية عودة المجلات العربية الى الظهور بشكل منقطع النظير . وقد اعتبرت بعض السنوات

---

1) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور الحركة الفكرية والادبية في تونس. ص: 101 .
2) احمد توفيق المدني . حياة كفاح جـ 1 . ص : 101 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـامعـة الجـزائـر

معـهـد اللغـة والادب العربـي

عنـوان البـحـث
أدب المسعدي على ضوء الرؤية الوجوديـة

رسـالـة مقـدمـة الـى معـهـد الـلـغـة والادب العـربـي
بجـامعـة الجـزائـر لـنـيـل ديـبـلـوم الـدراسات المـعـمـقـة

اعـداد الطـالـب :
بـوغـانـمـي نـاصـر

بـاشـراف :
الدكـتور حامـد حفـنـي داود

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة

ان اختيار بحث حول الوجودية والالمام بأصولها ومسلماتها ومعاشرة أعلامها على اختلاف مشاربهم ، ومعرفة جوهرها وتتبع مداها وصداها وتمحيص أهدافها ونتائجها ، والوقوف على غثها وسمينها ، سليمها ومريضها فرديتها أو جمعها ، ليمثل نظرة شاطة ، على غاية من الاهمية ، كانت ترواد وثبة الشباب في ريعانه ، وتجسم حلما وأملا يقضان مضجعه ويشغلان ذهنه اذا هو لم يحققهما . تلك حقيقة ما انفكت تعتلج في قرارة نفسي وما برحت تدفعني دفعا عسيرا حتى سنحت الفرصة بعد لأيٍ بامكانية القيام ببحث متواضع لنيل دبلوم الدراسات المعمقة .

وما كان غرض الدراسة برمتها الا ارضاء لحلم ارتسم في أجمل لحظات العمر وأحلاها . ولا غرو أن وقع الاختيار على هذا البحث لأنّ براعم شبابي تفتحت على صدى هذا التيار الشائع انذاك شيوعا منقطع النظير ، وكنت يومئذ أجهد نفسي لتكوين نظرة عامة على الاقل على هذا التيار . ووجدت شيئا من الابهام والغموض في استيعاب المبادئ والمسلمات الوجودية ، وكان يقابل ذلك ألاستعصاء في الهضم والاستيعاب ارادة لا تكل ولا تفتر بغية تذليل ما استعصى وفهم ما غمض . وهي الرغبة نفسها التي تحفزني الآن للدراسة . وزيادة على هذه الرغبة الملحة دوما على طلب المعرفة فان هناك سببا خارجيا وجهت الدراسة هذه الوجهة هو ايعاز الاستاذ المشرف الدكتور محمد صايف . ورأيت أنه من آداب البحث ألا مانع في التوجيه حتى لوكان لي اختيار غير هذا . خاصة أن ظروف انخراطي في الدراسة كانت نوعية . وهناك دافع أخر هو أنني لاحظت أن هناك نفورا واهمالا وربما جهل لجوهر الوجودية المسيطرة على الحضارة الراهنة ، لاحظت ذلك لدى كثير من الناس الذين يصفون أنفسهم بالمثقفين والمعنيين بشؤون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثقافة والادب في وطننا خاصة أن هذا التيار أحدث تأثيرا عظيما في الفكر البشري المعاصر ولاسيما في الحضارة الغربية ومن احتك بها وتأثر ، وظننت أن ذلك التأثير يظل ساريا دون ريب حتى نهاية القرن الراهن بالرغم من أن بعض صيغ هذه الفلسفة قد تجاوزها الوقت .

تلك جملة من الحوافز الذاتية والموضوعية تضافرت لتحفز همتي أن تقوم بمثل هذا البحث المتواضع الذي ليس لهن غرض سوى الفضول العلمي والتوق الى المعرفة .

ولئن كان البحث متواضعا وغايته نبيلة فان المعاناة كانت كبيرة ويرجع ذلك الى سعة الموضوع وتشعبه وجدته . وقد فضلت مبدأ الكيف ،

وأخيرا فانه لا يسعني الا أن أشكر الاستاذ المشرف على ما أسداه لي من توجيهات قيمة ، وعلى مايبديه دوما ازاء طلابه من تفهم وتواضع وكرم أصيل .

كما أشكر كل الذين قدموا عونا لانجاز هذا البحث المتواضع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيـــــــد

مع فجر الاستقلال في تونس ،طبع محمود المسعدي ،للمرة الأولـــــى ، تحفته الفنية رواية "السد ". وعلى اثر صدورها برزت دراسات قيمة حولهـا ، بعضها ظهر في مجلة الفكر بعنوان :"النقاش الادبي حول السد ".(1)

وبعضها الاخر ظهر في صحف مشرقية ومصرية خاصة . ونشير هنـــا الى مقالين دبجتهما يراعة عميد الادب العربي طه حسين ،بعنوان "أصداء تونسية ". وقد تضمن المقال الاول تحليل طه حسين لرواية السد وتقيما لها ومقارنتها مع رواية " سيزيف " للكاتب الفرنسي " ألبير كامو ".

ويبدو أن المسعدي لم ترقه تلك المقارنة ،فرد على طه حسين بأنه كتب روايته قبل اطلاعه على " سيزيف " ،وفند المؤلف في رده رأي طـــه حسين القائل بأن جهود " غيلان " بطل رواية السد مثل جهود "سيزيف" بطل رواية الكاتب الفرنسي ،مؤكدا على أن جهود الاول ذات معنى وقيمـة وغاية ،ولكن جهود الثاني ،كانت عبثا ولا غاية من ورائها . وهنا" على هذا /التفنيد عدل طه حسين من بعض أرائه في السد محاولا في مقاله الثاني أن ينزله في ظروف المجتمع التونسي ما بين الحربين ،مديا اعجابه الشديد بلغـــة السد وخياله ورمزيته . ومهما يكن الخلاف بين الاديبين الكبيرين طـــه حسين والمسعدي فان معظم آراء الاول كانت صائبة ان لم نقل كلها .

ونشير أيضا الى مقال الناقد المصري ،الدكتور عبد الحميد يونس قاله بمناسبة ندوة "مصر تكرم صاحب السد "(2) أقامها معهد الدكتور ابراهيم ناجي الثقافي وشاركت الاذاعة المصرية في تسجيل الندوة . وقد شارك الدكتور يونس استاذ النقد الادبي بجامعة القاهرة بكلمة تحليلية وتقييمية للسد

---

1) مجلة الفكر س2 ع ، 6 .
2) محمود المسعدي ،السد / ط 2 . ص : 85 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقتطف منها مايلي : " وخيرلنا أن نعد هذا (السد) في منزلة بين المنازل : بين الشعر وبين النثر بين الدراما وبين القصة "(1) .

واذا تجاوز المرء المقالات والاستجوابات وهي كثيرة لا يسمح المجال هنا باستعراضها كلها ، زيادة على المحاضرات والندوات ، وجمع أهمها نور الدين صمود في كتاب، سماه : محمود المسعدي وكتابه السد " ، وأصبح هذا العمل يعرف عند الباحثين التونسيين بمجموعة صمود لأنه جمع أهم المقالات والندوات والمحاضرات والاستجوابات حول السد ونقدها وحاورها ليجعل منها كتابا نقديا يساعد القارئ على فهم أفضل لرواية السد .

وكما تعددت المقالات حول هذه التحفة الفنية تعددت كذلك الدراسات خاصة بعدما نشر المؤلف كتابين أخرين هما : " حدث أبو هريرة قال" سنة 1973 . ثم " مولد النسيان " سنة 1974 . وأخيرا صدر له كتاب : "تأصيلا لكيان " سنة 1979 .

ولقد نالت تحفة المسعدي الفنية نجاحات كبيرة أذاعة صيت مؤلفها خارج حدود وطنه شرقا وغربا .

وقد أغرى هذا النجاح المعتبر كثيرا من الناس بالقيام بدراسات تتناول جميع مؤلفات الكاتب أو واحدا منها ، ولكنها في الجملة دراسات شاملة . ومن هذه الدراسات العامة نذكر محاولة الاستاذ محمود طرشونة بعنوان : " الأدب المريد في مؤلفات المسعدي ".

ولعل أهم ما في هذه الدراسة تلك النتائج التي توصل الدارس اليها وتبدو حسب اعتبار موضوعي محض أنها معقولة لاسيما ما يتعلق منها بنهايات

---

1) محمود المسعدي ، السد ط 2 . ص : 86 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأبطال المسعدي التي نشاطره الرأي في أنها ليست نهايات فشل ويأس رغم أنها في ظاهرها كذلك ولكنها في جوهرها متفائلة وآملة .

ومن ناحية أخرى لا أشاطره الرأي في ما ذهب اليه من اعتبار الحرية عند المسعدي حرية اعتزالية لا سارترية خاصة أنه بنى استنتاجه على أساس نظرية وجودية غربية محضة . فيقول : " وهكذا تلتقي مؤلفات المسعدي بالوجودية في معاني الارادة والحرية والفعل والمسؤولية والعبث والقلق "(1) ثم يقول مستدركا : " لكنها تختلف عنها في عدة نقاط جوهرية أولها أن الحرية الانسانية التي يدعو اليها المسعدي حرية اعتزالية لا سارترية، وبالتالي فان مفهوم المسؤولية الناتج عن تلك الحرية هو غير المفهوم الوجودي الملحد . فلاشك أن الانسان في نظر المعتزلة حر في اختيار أحد النجدين : طريق الخير وطريق الشر "(2) . وهذا ما لا نشاطره فيه على كل حال لأنه اذا سلمنا بأن حرية المسعدي ليست لا ملحدة ولا سارترية فان ذلك لا يعني مطلقا أنها اعتزالية بالضرورة . ولأن الحرية الوجودية لا تنحصر فحسب في المفهوم السارتري وكذلك الشأن بالنسبة للمسؤولية .

ومن الدراسات التي تناولت مؤلفا واحدا من أعمال المسعدي الا بداعية دراسة جادة بعنوان : " المسعدي من الثورة الى الهزيمة في : حدّث أبو هريرة قال "، من تأليف الحفناوي الماجري . ولكن جدية هذه المحاولة لم تعصمها من بعض الهفوات .

ولعل من الافكار التي لا أراها سديدة ، بما تحمله في طياتها من تناقض قوله : " وهي مسيرة مثلت بحق ثورة وجودية تنوعت مراحلها حسب تنوع

---

1) محمود طرشونة ، الأدب المريد في مؤلفات المسعدي . ط.2 . ص : 46 .
2) المصدر نفسه . ص : 47 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التجارب . فقد بدأت بثورة أخلاقية ،وتبعتها ثورة اجتماعية ،لتصل أخيرا الى ثورة دينية واتخذت كل المراحل شعار الرفض"(1) . أولا أن مسيرة أبي هريرة الوجودية بدأت بالمرحلة الجمالية وليس بثورة أخلاقية كما يرى الماجري . ثانيا لو سلمنا جدلا أن هذه المراحل التي اعتمدها بعض الدارسين مثل الماجري وكذلك الاستاذ مصطفى فاسي في رسالة جامعية بعنوان :" البطل في القصة التونسية ". أقول ان هذه المراحل الثلاث قابلة للنقد والتجريح ،لأن الفصل بين الاخلاق وبين الدين غير متصور منطقيا وواقعيا ،فالدين اخلاق ،والاخلاق من الدين .

والغريب ان هذا الخلط الذي وقع فيه المسعدي لم ينتبه اليه أي كان ممن درسوه دراسة كلية أو جزئية .

وكذلك لا أشاطر الرأي فيما ذهب اليه الماجري من أن فردية أبي هريرة سبب في هزيمته ، على أني أوافقه فيما رآه من أن قصة أبي هريرة ليست سوى تجربة ذهنية خيالية ،واتبع منهجيا ذهنيا ووصل الى حل ذهني . وبما أن التجربة ذهنية محضة في منهجها ونتائجها فلا يعقل اذن ان نحكم على البطل بالهزيمة مثلما ذهب الماجري وغيره الى ذلك ،

ان القارئ لا يجد تعليلا مقنعا في ما ذهب اليه الاستاذ فاسي من أن نهايات أبطال المسعدي ليست متشائمة ويائسة،(وربما لو انطلق ابو هريرة وحده، بحصانه في الليل المظلم في عالم المجهول لكان أقنعنا أكثر بدخوله عالم(*)

وأني أوافق الاستاذ فاسي في ما ذهب اليه من أن /تجربة الجماعة لا يعود الى الجماعة ذاتها بل يعود الى تجربة أبي هريرة ،التي/تعدو أن تكون مجرد تجربة ذهنية .

---

1) الحفناوي الماجري . المسعدي من الثورة الى الهزيمة في : حدث أبو هريرة قال . ص: 85 .

*) التصوف ، ولكان أبعد القارئ بما يمكن أن يقع فيه من التباس عند القراءة ، فما تجربته اذن سوى بحث عن الذات ،الجوهر، الذات الفرد مثلما نجد في المذهب الوجودي على العموم) ص: 466 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولي ملاحظة غير متيقن من صحتها حول تجربة الحس عند المسعدي يرى الاستاذ فاسي أن البطل عاش هذه التجربة بعمق وحس واندماج كامل لانها تخص ذاته وجسده ، وهذا صحيح ،والاحظ في هذا الصدد أنها تخص ذاته وجسده وأكثر من ذلك أنها التجربة التي تصورها المؤلف ذهنيا وعاشها كتجربة حياتية معاشة حقيقة مما جعلها عميقة حقا وواقعية فعلا . وكما قلت سلفا أن المحاولات حول اعمال المسعدي الابداعية وفيرة . ومن غير المعقول استعراضها في تمهيد كهذا . ولهذا سنشير فقط الى محاولة أخيرة حول قصة " حدث ابو هريرة قال " بقلم الدكتور توفيق بكار . وهي دراسة متأنية وعميقة ولكن لي ملاحظة بسيطة على موقف الاستاذ توفيق بكار من نهايات أبطال المسعدي ،فهو يرى :" أنها تعتمد معنى واحد هو " الجواز " في شكل غامض الى عالم أخر "(1) . ولكنه لم يحاول أن يخفف من حيرة القارئ ازاء تلك " النهايات " حيث يقول :" ولكن القارئ يظل حائرا في معنى هذه " النهايات " لا يدري أهو عظمة الانكسار أم عظمة الظفر "(2) .

وأنا أظن أنه ينبغي حسم المواقف سواء أكان ذلك بناء على تطور أحداث القصة في اتجاهها العام ،أم اعتمادا على آراء فلسفية ربما تبناها الكاتب أو تأثر بها في اطار مذهب المسعدي في الحياة .

ويبدو لي أن الاستاذ توفيق بكار لم يدرس قصة "حدث أبو هريرة قال" في اطار فلسفة حياة واضحة المعالم أوفي نطاق النظرية الوجودية في حين أنه حاول أن يفسر نزعة التشاؤم عند المؤلف وذلك بردها الى ظروف الحرب الكونية الثانية ، ملحا على فكرة تجذير الشكل الفني لقصة "حدث أبو هرير قال"

---

1) المسعدي - حدث ابو هريرة قال . ص : 38 .
2) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التراث . وأنا أرى رأيا آخر يخالف آراء كل الذين درسوا قصة "حدث أبو هريرة". وخلاصة هذا الرأي هو أن المسعدي قد اختيار شكل الحديث ليس فقط كتجربة فنية قصوى بل اختياره لما هو أهم من ذلك، هو قضية التنظير الفلسفي أو المذهبي . أن الكاتب قد تفطن الى أن افضل شكل فني أصيل يستوعب تجربته الوجودية كفلسفة حياة ،بمراحلها الخمسة لا سبيل اليه الا في شكل الحديث لانه عبارة عن دوائر متداخلة ومفضية الى القارئ دون أن يحس بأن هناك عملية تنظيرية مجردة باردة .

فالحديث في قصة "حدث أبو هريرة قال" هو الوعاء الوحيد القادر على أن يحتضن فلسفات مختلفة في انجذاب وروعة وسحر لا تتوفر في أي شكل تعبيري أخر . ذلك أن قصة "حدث أبو هريرة قال" تمثل الخلفية الفكرية لاعمال المسعدي الابداعية كلها ،وما السد ،ومولد النسيان سوى عودة الى هذه الخلفية او الارضية والتوسع في جوانب منها كانت مطروقة في قصته ولم تشد أعجاب الناس اليها ، اعجابا يلبي رغبة الكاتب .

ولئن كانت الدراسات حول أعمال المسعدي الابداعية عديدة بحيث لا يسعها هذا التمهيد ،فانها جميعا قد أضاءت جوانب هامة من شخصية المسعدي الادبية ، ويسرت فهمها للقراء .

وأخيرا أظن أن أفضل الدراسات لمثل هذا الادب هي التي تقوم على مناهج الادب المقارن .

فمن هو المسعدي ؟ وما هي آثاره ؟ وما هي فلسفته في اطار فلسفة الحياة ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصـــــل الاول -

محمـــود المســـدي وبيئتـــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولد المسعدي ونشأ في أسرة تونسية ،عام 1911م ،بقرية "تازركة" في الوطن القبلي . تعلم في كتاب قريته القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن . التحق بالمدرسة الصادقية الابتدائية في عام 1922م بتونس تحصل على شهادة الباكالوريا سنة 1933م. سافر في السنة نفسها الى باريس ،وتخصص في الدراسات الادبية ،تحصل على الاجازة سنة 1936. اثناء دراسته بفرنسا أنكب على مطالعة ألمع أعلام الفكر والادب بأوروبا ، وقراءة أفذاذ الفكر والأدب في التراث العربي . فجاءت ثقافته مزيجا متميزا فكان أنتاجه أيضا ذا خصوصية وتفردا .

بدأ نشاطه بتدريس اللغة والأدب العربي بمعاهد ثانوية في تونس من 1936 الى 1948 حيث نال شهادة " التبريز " التي خولت له العمل كاستاذ التعليم العالي ومدير الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العليا بتونس طيلة سبع سنوات . من 1948 - 1955م وتولى خلال الفترة الممتدة بين 1944 م - 1947م ادارة مجلة "المباحث" الثقافية وكان ذلك سببا في شهرته ككاتب له مدرسة جديدة في الادب العربي الحديث واضطلع بمسؤوليات في ميدان الكفاح الوطني والنقابي فتعرض للاضطهاد والابعاد .

ومنذ استقلال تونس تقلب في وظائف سامية : متفقد التعليم الثانوي ،فوزير للتربية القومية (من 1958 - 1968) طبق خطة تعليمية عشرية قضت هذه الخطة على كل مظاهر التعليم الموروثة بما في ذلك الجامعة الزيتونية . تولى كذلك مهام وزير دولة سنة 1969م ثم وزير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشؤون الثقافية ،وهو الآن رئيس مجلس النواب في تونس . انتخب عضوا بـ بالهيئة التنفيذية للمنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم : يونسكو من 1974 حتى الآن ومثل تونس في منظمات دولية : سياسية وثقافية . انها حياة مليئة بالنشاط والعطاء في أكثر من مستوى .

مؤلفاته :

يتمتع الكاتب بموهبة بيانية نادرة الوجود بين الكتاب العرب المعاصرين، ولكن بالرغم من خصوبة المرحلة التي عاشها على الصعيدين المحلي والعالمي وتقلبه في العديد من الوظائف السامية ،ومشاركته في النضال الوطني وتجاربه العديدة مع الناس خلال حياته الحافلة بالنشاط ،فان الاعمال الابداعيةوالمحاولات النقدية القيمة التي دبجتها يراعه تعتبر نسبيا قليلة ،الا انها رغم قلتها قد بوّأته مكانة عالية لم يتبوأها غيره من ذوي الانتاج الوفير .

ويتمثل تراث السعدي المنشور الآن في نوعين من الاشكال الفنية،

أ - الاعمال الابداعية : 1) السد صدر عام 1955 م وأعيد طبعة 1974 .

2) حدث أبو هريرة قال، صدر عام1973 وأعيد.ط

3) مولد النسيان ،صدر عام 1974 .

ب - مجموعة من المقالات والمحاولات النقدية والافتتاحيات والمحاضرات جمعت وطبعت في كتاب : تأصيلا لكيان . صدر . بتونس. بدون تاريخ

وهذه الاعمال القليلة ولكنها قيمة أهلت مؤلفها لنيل الجائزة الكبرى للاستحقاق الثقافي في تونس . وجائزة تقديرية من منظمة العلوم والثقافة لجامعة الدول العربية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضـــع السيـــاسي :

تصادف السنة التي ولد فيها الصمدي نهاية فترة مستنيرة من الاحتجاج والمقاومة الوطنية ، وتمثل مرحلة هامة في نمو الوعي الذاتي القومي . فكانت هذه السنة سنة مطوءة بالاحداث محليا ودوليا . فعلى المستوى المحلي شاهدت نشوب الحرب التي أعلنتها ايطاليا على تركيا بنية استعمار ليبيا ، وقد كان لها أثر بالغ في نفوس التونسيين الذين هبو النجدة أخوانهم في طرابلس ، ثم صبوا غضبهم ونقمتهم على الايطاليين المقيمين في تونس وعلى المستعمرين الفرنسيين عامة . ونتج عن هذا التأزم الشديد اندلاع ثورة شعبية عارمة ذهب ضحيتها أبرياء كثيرون . وكان حصاد المعركة فرض الحصار العسكري على مدينة تونس العاصمة وضواحيها مدة ثمان سنوات من (1912 - 1920م) وعطلت الصحف العربية ، واغلقت النوادي والجمعيات وكممت الافواه وأخسرت الالسن واعتقل الزعماء الوطنيين وأبعدوا . ورغم النكسة التي منيت بها الجهود النهضوية ، فان الوعي بالذاتية التونسية العربية ما انفك ينمو سرا ويتطور منتظرا الفرصة الملائمة للانطلاق من جديد ، وهو أكثر تصميما واستماتة في النضال حتى الاستقلال . وبعد فترة الخرس الطويلة بسبب ظروف الحرب الكونية ، انبعثت الهمم تؤسس الاحزاب السياسية وتطالب بالاستقلال ، وكان أول المنظمات السياسية التي برزت هو الحزب الحر الدستوري 1920 ، ثم ظهر سنة 1922 " حزب الاصلاح " منافسا للحزب الدستوري التونسي ، وكذلك الحزب الشيوعي ، ثم برزت حركة عمالية تونسية مستقلة تدعى : " الجامعة التونسية " و " العمال التونسيين " . سنة 1924 . وهكذا تأخذ السياسة في هذا الظرف المتوتر شكل تنظيمات لها هيكل وقواعد على غرار التنظيمات السياسية في البلدان الاخرى . وقد أنشأت هذه الاحزاب وغيرها صحفا تظهر عليها ملامح الصحافة المتقدمة في فكرها وعقيدتها ورجالها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منذرة المستعمرين : " لا تمنعونا حقنا في ادارة بلادنا ، فقد قلتم في معاهدتكم لسمو الباي 1881 أنكم تتعهدون بترقية المملكة وتأييد الحكومة في مركزها بارجاعكم لها شيئا فشيئا ما أخذ تم لها من سلطاتها الشرعية التي استلمتموها موقتا . وها نحن اليوم قد مضى أكثر من جيلين على احتلالكم نصيئ في بلادنا (كمية) مهملة لا قيمة لها الا في دفع الضرائب وتسخير قواها لفائدة المستعمرين الفرنسيين . . . الحرية والعدالة والمساواة والا الموت "(1).

وهكذا شهدت الحياة السياسية في تونس خلال العقد الثالث من هذا القرن حركة نامية نقابية وسياسية تخللتها احداث دامية واضرابات واصطدامات عنيفة راح ضحيتها نفر من العمال .

وقد سجل الشعر السياسي في تونس تلك الاحداث التي عاشتها البلاد . ومن ابرزها حادثة "سوق الاربعاء" و" بنزرت " و " رصيف تونس " وفاجعة " المرسى "وغيرها . وقد واجهت السلطة الاستعمارية النشاط السياسي ورجاله بالقمع والدسائس، فتكلت بزعمائها نفيا وسجنا فهدأت الحركة ومال من بقي في اللجنة التنفيذية الى المهادنة . ولكن سرعان ما هبت رياح التجديد في مطلع العقد الرابع "عصر الشابي" قوية مؤثرة حيث شاركت نخبة من شباب تونس المثقفة ثقافة غربية عالية وانخرطوا في الحزب الوحيد يومئذ ، وادركوا أن الحركة تسير وفق منهجية تقليدية ، وزعامة متوارثة ، فبادرت جماعة من الشباب بزعامة الحبيب بورقيبة والدكتور الماطري وغيرهما الى بعث الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في موتمر قصر هلال في 2 / 3 / 1934م ، وبهذا الحدث الهام عاد الامل قويا ومجددا الى الشعب بضرورة استمرار الكفاح والمقاومة حتى الاستقلال واتم الله نعمته على الشعب التونسي بالنصر والتحرر .

---

1) جريدة المبشر العدد الرابع . سنة 1922 .
2) محمد الصالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر . 1870 / 1970م . ص: 209 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع الاقتصادي والاجتماعي :

لئن كانت الحالة السياسية في تونس خلال النصف الاول من هذا القرن نشطة وحافلة بالمشاريع الهادفة والمتطورة في الحياة السياسية والنقابية، وان كانت لم تسلم من العثرات والمضايقات ،فان الحالة الاقتصادية كانت متدهورة جدا ونجم عن ذلك ان المجتمع الذي انتقلت املاكه ،وفلاحته ، وصناعته الى المستعمرين ،أصبح يعيش في أوضاع سيئة للغاية ،فيها يعاني التونسي البؤس والحرمان ،ويلقى من زمرة المعمرين النهمين كل ضروب الاهانة والاحتقار والاستغلال الفاحش والتعذيب وحتى القتل لاتفه الاسباب وقد زخر الشعر الوطني بمثل هذه المظاهر المؤلمة التي عاناها الانسان التونسي خلال تلك الحقبة السوداء من مسيرته الكيانية . وصور لنا بعض الشعراء تلك المآسي والاحداث الفظيعة ،مثل حادثة سوق الاربعاء التي مفادها أن عاملين تونسيين قطفا شيئا من عنب أحد المعمرين ،وكانا يعملان في مزرعته ،فما كان من المعمر المتدن والمتحضر جدا الا أن شنقهما شنقا :

هل من التدبير والحكمة أن يشنق الشرقي ؟وهل هذا سداد ؟
هل اذا ما مس عنقودا من الـ عنب المبذول يرمى بالصفاد ؟
وهو ساقيه وحاميه وخا دمه من غير أجر يستفاد
هل الى الكتاب أن يحصوا لنا ما نقاسيه ؟ وقد جف المداد
يا رجال الغرب رفقا مالكم ليس ينأى عن أياديكم زناد .(1)

وتذكرني هذه الابيات بما قاله الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي في معنى الحادثة نفسها ومما جاء فيها قوله :

الا انهضي وشمر أيها الشرق للحرب وقبل غرار السيف وأسل هوى الكتب
ولا تغتران قيل عصر تمدن فقد بان ما قالوه من أكذب الكذب
ألست تراهم بين مصر وتونس أباحوا حمى الاسلام بالقتل والنهب.

---

1) أحمد خالد . الطاهر الحداد والبيئة التونسية في الثلث الاول من هذا القرن . ص : 70 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رسم لنا الكاتب الاجتماعي الطاهر الحداد لوحات حية ناطقة من حياة الشعب في البيت والشارع وصورا معبرة من حياة العمال التونسيين.

الحالة الثقافية :

لئن كانت الحياة السياسية خلال النصف الاول من هذا القرن نشيطة، وكانت الحالة الاقتصادية والاجتماعية متدهورة ،وسيئة للغاية ،فان البلاد كانت تشهد نهضة فكرية وأدبية لاحت بوادرها في أواخر القرن المنصرم وتجلت بادئ بدء في وفرة الصحف العربية رغم أمكانيات أصحابها المتواضعة، وقلة عدد القراء نظر التفشي الجهل والامية لدى الاغلبية الساحقة، ورغم مضايقة السلطة الاستعمارية لحرية الصحافة العربية بصورة لا نجدلها مثيلا في المستعمرات الاخرى. وعندما يتأمل الانسان هذه الوفرة في الفترة الممتدة بين سنتي 1888 - 1911م والتي بلغ عددها خمسين مجلة وجريدة، يدرك قيمة تلك الجهود النهضوية المتطلعة نحو غد أفضل . ولهذا اعتبرت هذه الفترة منعطفا حاسما في تاريخ النهضة الشاملة بتونس ،ومن أبرز ملامح النهضة الثقافية والأدبية ظهور مجلتين متخصصتين ،أولاهما مجلة ذات صبغة روحية اصلاحية سلفية هي "السعادة العظمى" في سنة 1904 م. ومجلة يغلب عليها روح التحرر وطرافة أبحاثها هي :"خير الدين" في سنة 1906م. والتي ربما كانت حافزا قويا لظهور فن القصة في بلادنا .و" هاتان المجلتان كانتا تحولتا بقضايا الفكر الى مناخ أكثر انفتاحا واستقلالا ، وحررتا الأدب من تبعيته للصحافة الأدبية ،وحققتا مع ثورة الفكر على التقاليد رجال الاصلاح ثورة جديدة في التطلع لمستقبل أدبي حافل بالبديع والمستحدث". (1)

ويذهب الباحثون في هذه المسألة الى أن فكرة الوعي القومي قد اكتملت في العقد الاول من هذا القرن وصارت مبعث قلق للمستعمرين "كانت النهضة

1) د. محمد الصالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر 18870 - 1970 .ص: 63.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفكرية والوعي القومي قد بلغا مبلغا لم يبق للاستعمار قبل باحتماله ، فاعلنت حالة الحصار والاحكام العرفية العسكرية - 1912م ، بكل تراب المملكة وعطلت جميع الصحف العربية " ومنعت الاجتماعات ، وتوقفت الجمعيات والنوادي ، وأغلقت المطابع ونزل الارهاق ، سجنا ونفيا وعقوبات ادارية على رجال الحركة الوطنية فخمدت الحركة الفكرية والادبية وساد عليها الركود "(1) . وهكذا تتلقى جهود النهضة ضربة قاضية وقد تضاعف خطرها بسبب اتصالها بحلكة الحرب الكونية الاولى ، فاستفحل الحكم العسكري استفحالا وشدد من قبضته الحديدية على النفوس طيلة ثمان سنوات كاملة . وقد تفاقم تألم الناس وتذمرهم من سوء الحال وهول الحرب وقساوة الحياة والتجنيد العام في صفوف الشباب التونسي وارساله أفواجا الى مجازر الحرب . ولكن رغم هذا الجو القاتم المنذر بالثبور فان روح الشعب يقظة ومتوجهة ." ذلك هو الشعب التونسي ، تعلو ناره طبقة من رماد عابرة ، فيخيل اليك أن النار قد خمدت ولم يبق لها من أثر ، انما هي بنفحة واحدة من ريح طيبة ، تنفض رمادها وتعود الى اتقادها ."(2)

وبعد الخرس والكبت وليل الحرب البارد الطويل عاد الأمل الى النفوس قويا مؤثرا ، وانطلقت الجهود النهضوية من جديد أكثر عزما وتصميما على المقاومة وتطوير النهضة الثقافية ، ومن ملامح هذا التطور الثقافي اقبال الناشئة التونسية على التعليم اقبالا هائلا بلغت نسبتهم حسب احصائية 1929 . واحدا على خمس ممن وصلوا سن التعلم ومن بينهم نجد 3,777 فتاة تونسية ، وقد اشتد الاحتكاك بالحضارة الفرنسية حيث نظمت جمعية قدماء المعهد رحلات عديدة سياحية ودراسية الى فرنسا ، تدوم أربعة أسابيع كاملة ، يتعرف من خلالها الطلاب على الحياة الفرنسية العامة ومدى التطور العلمي والحضاري الذي بلغته ، ولعل من أبرز ملامح تلك النهضة النامية عودة المجلات العربية الى الظهور بشكل منقطع النظير . وقد اعتبرت بعض السنوات

---

1) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور الحركة الفكرية والادبية في تونس. ص: 101.
2) احمد توفيق المدني . حياة كفاح ج 1 . ص : 101 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي برزت فيها مجلات وفيرة العدد ،سنوات برکة وخصب ،خاصة سنوات 1920 ، 1936 ، 1937 ،شهدت ميلاد سبع مجلات ثقافية وأدبية في كل سنة منها / وسنة 1946 وحدها شهدت ظهور ست مجلات جديدة . ويبدو أن هذه الوفرة من المجلات يرجع سببها الى :أولا : رد فعل النخبة التونسية لأهمال الصحافة والمجلات الاستعمارية للناحية الثقافية في البلاد . وثانيهما حرص النخبة على خدمة الثقافة الوطنية ودفعها في سبيل التطور ، ويذهب بعض الباحثين الى أن أحدى هذه المجلات العربية وهي "مجلة العالم الادبي" برزت في عصر (1930) يعتبر حتى يومنا هذا العصر الذهبي في الادب التونسي المعاصر ."(1)

٤٢٠٣٨٨

ولو أردنا أن ننظر على النهضة الثقافية في تونس بمعيار التحولات الكبرى في الوطن العربي ،لوجدنا أنها كانت ترصد بدقة وفي الابان تلك التحولات الاجتماعية والثقافية التي عاشتها الامة العربية وبالتالي الثقافة العربية بدرجات متفاوتة ،مرورا بمرحلة اليقظة والبعث والاحياء ويمثل هذه المرحلة عندنا الشاعر محمود قبادو وتلاميذه،الذي يحتل "مركز الطليعة في الذين أشادوا أدب عهد "الافاقة" وأرسو الشعر منذ البداية ثائرا مناهضا "(2) ومرورا بمرحلة "الشعر العصري ".الذي يمثل بداية المدرسة الاتباعية . وقد ترافقت فكرة الشعر العصري في بلادنا بظهور القصة وهما نوعان مستحدثان ."اذ قادت مجلة "السعادة العظمى" أول ثورة على الشعر ،وجائتنا بمفهوم الشعر العصري بينما أقدمت مجلة "خير الدين" على نشر أول قصة تونسية .(3) ويهتم الشعر العصري هذا بمعالجة القضايا الوطنية وتوعية المواطنين وحثهم على النضال ،ومن بين

---

1) د . جعفر ماجد . الصحافة الأدبية في تونس من 1904 الى 1955 .ص : 133 .
2) محمد الصالح الجابري ،الشعر التونسي المعاصر . 70 188/ 1970 .ص: 53 .
3) المصدر نفسه . ص : 57 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعراء هذا الاتجاه : أمير شعراء تونس محمد الشاذلي خزندار والشاعر الكبير مصطفى خريف ، وسعيد أبوبكر وغيرهم . وجدير بالملاحظة أن هؤلاء الشعراء يمثلون الى جانب الشعر العصري أو الوطني ، المرحلة الاتباعية بنوعيها ، وكان الشعر في جملته يستجيب لمتطلبات الظرف الذي عاشوا فيه وما يعتوره من صراع من اجل الحياة والكرامة . ولكن الجهود الاصلاحية والسياسية والنقابية منيت كلها بالفشل الذريع ، وكممت الافواه واستذلت العباد وصودرت الحريات . فلاغرابة اذن والحال هذه أن يظهر أدب الشكوى والانين الذاتي ، لأن الشاعر لا يستطيع أن يتحدث الا عن نفسه وأحلامه وغرامه وأشواقه وروحه أو أن يهرب من الجحيم الذي يحيط به الى الطبيعة ومناظرها وملاهيها الخلابة يتفزى بها عن الامة والأم قومه دون أن يستطيع الافصاح عن مصدر هذه الالام أو أن يدعو الى التخلص منها بطريق أو بأخرى . وهذه النزعة جسدها أصدق تمثيلا في بلادنا الثالوث الرومنسي أبو القاسم الشابي ، ومحمد الحليوي ، ومحمد عبد الخالق بشروش . وهذا التيار الرومنسي الذي يمثل مرحلة تحول هام في الأدب المعاصر خاصة الشعر منه . جاء نتيجة الصراع المحتدم في مطلع هذا القرن بين القديم والجديد بين الاتباعية الجديدة وبين الرومنسية الناشئة ، ويتجلى ذلك في المعركة الأدبية الكبيرة التي شنتها مدرسة ((الديوان)) والتي أدت الى ولادة الرومنسية في الشعر العربي المعاصر كما عبرت عنها خاصة جماعة ((أبولو)) التي كان من بين أعضائها الشابي والحليوي . وقد تأثر جماعة التيار الرومنسي في تونس بصفة خاصة بالشعر العالمي المعاصر والرومنسي الفرنسي بصفة أخص بمختلف ممثليه وتياراته . وكان هذا التأثر بداية انفتاح هذا الشعر وخروجه من أطر الاتباعية في الشكل والمحتوى . وقد طرحت الدراسات النقدية للشعر القديم والمعرفة بأصول التيار الرومنسي وزعمائه ، مبادئ يصح أن تعتبر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمثابة منطلقات لحركة التجديد لم تلبث بعد الحرب الكونية الثانية ان تطورت لتشكل ما يشبه قفزة نوعية نقلت الشعر العربي المعاصر الى الحداثة كما هو مطروح في المرحلة الراهنة)) (1) . والدراسات الرومنسية في تونس استحثت الشابي على ان يعرف بمعالم هذه المدرسة وأن يدعو اليها بحماس . ولم يخف الشابي اعجابه بدراسة رفيقه الحليوي ، فكتب اليه مشجعا ومحرضا : ((أحييك وأهنيك على نجاحك في دراسة رومنتكية الأدب الفرنساوي . أقول أهنيك بالنظر لما أثارت في نفسي من لذة وأعجاب ، ولما أدركت فيه من دقة واستيعاب)) (2) . وقد أشار الشابي على الحليوي ان يكتب عن مذاهب الأدب الرومنسي وزعمائه لينشرها في مجلة ((أبولو)) . وقد أستجاب لندائه وكتب دراسات عن الرومنسية وزعمائها وبعث بها الى ((أبولو)) وبلغ اعجابهما بالرومنسية وزعمائها خاصة سانت بيف ولامارتين درجة خيالية . ((أنت في هذه الرسائل تشبه سانت بيف وصديقك يشبه لامارتين الأدب العربي)) (3) . والرومانسية في تونس ليست عملية أنين وانطواء فحسب بل هي معركة التحولات الكبرى : ((ففي أطوار الانقلابات الكبرى التي يريد فيها التاريخ ان يدور دورته المحتومة الخالدة ، تأخذ نفسيات الشعوب التي ستولد مرة ثانية في التطور والتحرر والاستحالة فتستيقظ أحلامها النائمة وتتوهج أشواقها الخالدة ، وتصبح نفسها شعلة متأججة بنار الحنين . وينقسم قلبها الثائر الى شطرين : شطر ملوم متبرم بالحاضر ، وشطر مشوق وطامح الى المجهول وما فيه . وفي مثل هاته الحالة النفسية المعقدة التي تصبح فيها روح الأمة مشبوبة بحمى الحياة يندفع الناس في لهفة اليقظة الطامحة الى ثقافات العالم وفنونه وآدابه يطفئون بها ما في أعماق نفوسهم من جوع وظمأ للحياة ، فتتلاقح ثقافات وتتمازج آداب وتصطفق

1) الموقف الادبي ، ع 91 ، مس 1978 ، ص : 6 .
2) رسائل الشابي . 30 مارس 1933 . ص : 108 .
3) الرسائل . ديسمبر 1933 . ص : 124 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اراء وافكار وينتج عن هذا المزيج ثقافة جديدة وأدب طريف لهما سحر وفتنة وجمال (1))
ويتضح من هذا الكلام ان الوضع الأدبي كان يشهد تطورا وحوارا مع ثقافات العالم . لذلك يجد الباحث تعايش التيارات والمذاهب المختلفة في عصر الشابي ، فالى جانب الاتباعية والرومنسية هناك الواقعية والالتزام . ((فالدعوة الى الواقعية كانت قديمة ولكن الدعوة الى ما يشبه الالتزام تعد من البدع التي تفوق الرومنسية نفسها في ذلك الحين))(2).
ولا شك أن امتزاج التيارات المتنوعة يعكس بصدق حرص الشعراء على دخول المعاصرة الراهنة من بابها الواسع . وان كان الشعر كذلك ، فماذا عن القصة ؟

رأينا في ما تقدم ان بداية القصة في تونس تأتي بعد ظهورها في لبنان ومصر . وكانت في العقدين الاولين من هذا القرن عبارة عن محاولات أولية ثم تطورت في الثلاثينات . ودخلت مرحلة القصة الفنية المتطورة بمختلف اتجاهاتها . وقد استمدت موضوعاتها في غالب الاحيان من واقع المجتمع كعشق الاجنبيات ، والحب والزواج بغير رضا ، وعادات القرويين والسحر وانحرافات المرأة وحياة العمال وعقد النقص أمام الاوروبيين والذهنيات الجديدة الخ . ولم يتخلف عن مسيرة النهضة النقد الأدبي الذي كان شديد الاتصال بحركة النقد المتطورة في المشرق وشديد التفتح على الثقافات الاخرى ((ان الاتصال بين نقاد تونس وأدبائها وبين دعاة الجديد في المشرق العربي كان شديد الاتصال ، وهو الاتصال الذي كان له الفضل الاكبر في تطور الحركة النقدية والأدبية في المغرب العربي ، لانه كما كان لأدباء تونس اتصال شديد بالمشرق العربي كان لنقاد الجزائر والمغرب الاقصى وأدبائهما اطلاع مستمر على الحركة الأدبية في تونس)) (3)

وقد ارتفعت أصوات كثيرة في تونس منادية بالاصالة والاستقلال عن الشرق والغرب و((قد كان محي الدين القليبي أحد هؤلاء الداعين الى الاستقلال والاصالة في المغرب العربي فقال بعد استنكاره الاسراف في تقليد نقاد المشرق وأدبائه : فكما تتزعم مصر حركة النهضة الأدبية في المشرق العربي يجب ان تتزعم تونس حركة النهضة الأدبية في المغرب

---

1) آثار الشابي ، ص : 115 .
2) محمد الصالح الجابري ، الشعر التونسي المعاصر . ص : 263 .
3) د . محمد مصايف . النقد العربي الحديث في المغرب العربي . ص: 87 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أدناه الى أقصاه)) (1).

وهكذا تكون تونس من الاقطار السباقة في الوطن العربي ،الى تطوير نهضة ثقافية نامية متفتحة على سائر التيارات والثقافات العالمية . وقد انجبت هذه النهضة المتطورة عباقرة أفذاذ مثل الشابي والمسعدي وغيرهما وهما قد ساهما باعمالهم الابداعية المتميزة في دعم النهضة الثقافية العربية الحديثة .

ولئن كانت تلك لمحة عن النهضة في بلادنا فما أثرها في الأديب محمود المسعدي ؟

والى أي اتجاه ينتمي ؟

---

1) المصدر السابق . ص : 124 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصل الثاني -

الوجودية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يجعل من العسير أن يقدم الباحث الى القارئ تصورا يشتمل على خصائص الوجوديين كلهم فيجعلهم في نسق واحد وبالتالي يتعذر عليه عرض مفهوم يعتبر تعريفا جامعا مانعا لهذه الفلسفة .

ولا بد أن ننبه الى أن ما سنورده من تعاريف لا تمثل في الحقيقة الا فكرة معينة بارزة في تلك الفلسفة أو أحد خصائصها .

الواقع ان الباحث في هذه المسألة يجد لها تعاريف متعددة . ومنها : ((أن الوجودية كنظرية فلسفية معاصرة تقوم على أساس مبدأ التمييز بين الوجود والماهية ، وأسبقية الأول عن الثاني)) (1)

وفي هذا المعنى يقول سارتر: ((وتعريف الفلسفة الوجودية تعريف بسيط للغاية . ولكن ما يعقد الأمور هو وجود مدرستين وجوديتين تختلف الواحدة منهما عن الأخرى، وبالتالي وجود نوعين من الوجوديين : أولهم الوجوديون المسيحيون وفيهم الفيلسوف الألماني المعاصر كارل ياسبرز والفيلسوف الفرنسي غابريال مارسيل والاثنان كاثوليكان . والفئة الثانية هي فئة الوجوديين الملحدين وبينهم يجب أن يوضع ميديجر والوجوديون الفرنسيون رأنا أيضا ... وهاتان الفئتان تلتقيان على صعيد واحد وتتفقان على أن الوجود يسبق الماهية)) (2)

ان (جوهـــر) ماهية الانسان — في نظر الوجودية . هي ما يحققه فعلا عن طريق وجوده ، فهو يوجد أولا ثم عن طريق أفعاله تتحدد ماهيته ابتداء من وجوده ، ووفقا لأعماله وحسب يحكم عليه .

و ((الانسان ، كما تتصوره الوجودية ، ليس له في البدء أي وجود حتى يمكن تعريفه

---

1 — ادارة معارف ايزوال (بالفرنسية) ص. 575

2 — جان بول سارتر، الوجودية مذهب انساني . ترجمة كمال الحاج . ص 45 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحديده ، وأن هذا التعريف وهذا التحديد لا يصح وجودهما الا بعد أن يكون الانسان قد وجد وعلى الشكل الذي يوجد عليه (1)

ويتضح من التعاريف السابقة أن الوجودية جاءت معارضة للفلسفة المثالية ، القائلة بأسبقية الماهية والجوهر على الوجود ، وبعبارة أخرى أنها ارتداد على الجوهرية القديمة ، التي تنطلق من الجوهر كقيمة عامة . كما جاءت حربا على فلسفة القرن الثامن عشر الداعية الى عالمية الانسان ((طبيعة انسانية عامة)) . انها لا تبالي بماهيات الأشياء وجواهرها كما لا تبالي بالوجود الممكن والصور الذهنية المجردة لأن غرضها الأساسي هو وجود كل ما هو موجود في الحقيقة والواقع . ((انها فلسفة الأشياء الملموسة ، الأشياء التي تقع عليها أنظارنا وتلمسها أيدينا ، أو نتصل بها بنوع من الاتصال العادي)) (2)

والوجودية لا تعارض ذلك لمجرد رغبة في المعارضة ، ولا ترفض لأجل الرفض وانما هي تهدم تلك النظرية الجوهرية لتقيم مكانها نظرية ((الظرف الانساني)) أو ((الواقع الانساني)) . ولا شك أن الواقع الانساني واقع غير ثابت يختلف من كائن الى آخر ، ويتبدل من عصر الى آخر . وهذا جعل من الوجودية فلسفة التغيير والصيرورة ، وفلسفة الرفض للجمود ، والتمرد على الاتكال والاستسلام .

ومن أهم التعاريف التي تقدم لنا تصورا ذهنيا عاما للوجودية بل لفلسفات الوجود ، تعريف " جان فال " : ((الوجودية ، تلك النزعة الفكرية التي سيطرت على الفلسفة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها . للوجودية الفرنسية شكلان ومنابع شتى ، وهذه الوجودية الفرنسية في كل من شكليها المختلفين ، فلسفة أنطولوجية ،

---

1 — جان بول سارتر : الوجودية مذهب انساني . ترجمة كمال الحاج . ص : 45 .

2 — معنى الوجودية . دراسة توضيحية . من المقدمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظاهراتية ، بقدر ما هي فلسفة وجودية ، وجعلت الانا مشكلة قائمة بذاتها .))[1]

ويتبين لنا من خلال التعريف الاخير أهم مباحث فلسفات الوجود . فهي فلسفة أنطولوجية أي مبحث علم الوجود (علم الكائن) .

ومن مباحثها الظاهراتية أي علم الظاهرات (دراسة الظاهرات كما تبدو بنصرف النظر عما وراءها من حقائق) . وبدون شك أن أول مبحث لفلسفات الوجود هو ((الانا)) : أي الذاتية الفردية ، لأن الوجودية في جوهرها الذاتية . ((أنه يجب أن نبدأ من الذاتية)) [2]

وعلى أساس هذه المباحث المتعددة — علم الوجود ، علم الظاهرات ، الاله ، وغيرها هي التي أدت الى اعتبارها فلسفة تعددية (ففي الولايات المتحدة الامريكية مدرستان للفلسفة جنبا الى جنب : مدرسة الفلسفة الميثالية . ومدرسة الفلسفة التعديدية (الوجودية) .

ولئن اتفق فلاسفة الوجود كلهم على القول بأولوية الوجود على الماهية فان الاختلافات والتناقضات الحاصلة بين وجهات نظرهم كثيرة ، كالانسانية واللانسانية ، الايمان والالحاد ، الباطنية والسر المكتوم وعدمهما .

ومثلما اختلفتات أراؤهم في كثير من مقولات الوجود ، اختلفت تعاريفهم . من ذلك تعريف الاب (كولبيرتسون الامريكي) الذي يقول : ((نعرف فلسفة الوجود كردفعل ضد الميثالية المطلقة ، والوضعية ، وكجهد مستمر لتناول الانسان برمته)) .[3]

ويعلق الأستاذ جان فال على هذا التعريف بقوله : ((يبدو ان هذا التعريف من قبل الأب كولبير تسون غير مقنع ، لانه يمكن أن ينطبق كذلك على البرغماتية ،

---

1 — جان فال . تاريخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة . ترجمة الأب مارون خوري . ص 101 .

2 — جان بول سارتر . الوجودية مذهب انساني . ترجمة كمال الحاج . ص 45 .

3 — جان فال . فلسفات الوجود . (بالفرنسية) . ص ، 10 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما ينطبق على فلسفة الحياة ، بقدر ما ينطبق على فلسفة الوجود)) (1)
وكذلك يجد الباحث تعريف آخر للوجودية ، تقدمه أعلى سلطة دينية في رومـــة :
((الوجودية عبارة عن فلسفة المحن ، واللاعقلانية المتشائمة ، والارادية الدينيـــة ، والاختيارية))(2)

ويعلق جان فال على ذلك قائلا : ((ولكن هذا الحكم ـ التعريف ـ يتضمن فـــي طياته نقائص الا أنه يمكن اعتباره منطلقا للوجودية))(3)

والواقع أن المنطلق الأول ينبغي أن يكون ابتداء من الذاتية ، وهو منطلق لا يقتصر على فلسفة الوجود وحسب ، بل هو نقطة انطلاق كل الفلسفات العظيمة كفلسفـــة سقراط وديكارت وغيرهما . ((ان هذه الفلسفات تنطلق من الذاتية الغارقة فـــي بعض التجارب كالقلق)) (4) ولعله من المفيد أن نورد في نهاية الحديث عن المصطلح الوجودي تعريفا عن فلسفات الوجود القديمة من سقراط الى ما قبيل ظهور كيركجـرد ، وهو : ((ان فلسفات الوجود ـ القديمة ـ كانت عبارة عن تجربة ميتافيزيقية مقترنـة باحساس بالهم الانساني)) . ولعل ما أوردناه من نصوص تدور حول مفهوم الوجودية وخصائصها ومباحثها تساعد القارئ على أن يكون لنفسه تصورا أوليا لهذه الفلسفـة . وان كان معنى الوجودية كذلك ، فمتى كانت نشأتها ؟

نشـــأة الـوجـوديـــــة
أصـولهـا ـ مـنطلـقهـا ـ وتـطورها .

الواقع أن معظم الباحثين في هذه المسألة يذهبون الى أن مصادر هذه

---

1 ـ المصدر نفسه . ص. 10 .
2 ـ المصدر نفسه . ص. 10 .
3 ـ المصدر نفسه . ص. 12 .
4 ـ المصدر نفسه . ص. 12 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفلسفة الوجودية قديمة ومختلفة . ويذكرون منها خاصة : الأسطورة والشعر، والدين، والفلسفة . ويؤكد بعضهم على فكرة التأملات في الشخصيات العظيمة كأصل هـــام لفلسفات الوجود بصفة خاصة .

فالتأمل في الشخصيات العظيمة ، وفي وجودات كبرى كان مبعث فلسفة الوجود ، من ذلك أن التأملات في شخصية سقراط ولدت فلسفة كيركجرد ، وكذلك التأملات فـــي حياة كيركجرد وفي حياة نيتشــه ولدت الفكر الفلسفي عند ياسبرز. (1)

ولئن كانت أصول الوجودية كذلك ، فما هي منطلقاتها ؟

منطلـق الوجوديـــة

الحقيقة أن المتأمل في هذه المسألة يجد بسهولة أن جميع الفلسفات العظيمة تنطلق من مبدأ الذاتية .

ولعل أقدم فيلسوف بنى فلسفته على هذا المنطلق هو الفيلسوف اليوناني سقـــراط، الذي كرس حياته كلها لتعليم تلاميذه فكرة ((معرفة الذات)) ، وكان ((هـدف تعاليمه (وهي تعاليم غير مكتوبة وصل بعضها عن طريق تلميذيه : أفلاطون واكسوفون) معرفة الذات.(2) وحتى منهجه القائم على توليد المعاني أو الحق من النفس عـن طريق توجيه الأسئلة وفق منهج سقراط ، يدل على أنه يولي الذات ومعرفتها كـل عنايته . ((اعرف نفسك بنفسك)) .

ويجد الباحث أن فكرة الذاتية تحتل مكانة بارزة في التصوف الاسلامي ونجد لـــدى المتصوف ابن عربي نصا منسوبا الى الرسول عليه السلام مفاده أن معرفة النفس من الايمان ، ((من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربـــه)) .

---

1 ــ جان فال : فلسفات الوجود (بالفرنسية) ص 17 .

2 ــ دائرة معارف ايزوال ، ص . 1450 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وديكارت صاحب التأملات الفكرية والشك المنهجي ، والكوجيو المشهور به في الفلسفة ((أنا أفكر اذن أنا موجود))[1] وهذا الكوجيتو يمثل ثنائية قائمة على أساس التمييز بين الجوهر والوجود ، والعلم والايمان ، وهذا التمييز الدقيق هو الذي جعل فلاسفة الوجود يعدونه من زمرتهم .

أما في فلسفات الوجود الحديثة فان فكرة الذاتية تصبح هي عين الحقيقة ، وكل ما سوى ذلك لا معنى له . ان تأكيد الذاتية في مقابل النزعة الكلية يشكل حجر الزاوية في فلسفة كيركجرد الوجودية الذي عبر عن ذلك في جملة انغراقية ((الذاتية هي الحقيقة))[2].

وأكد سارتر على هذا المنطلق بقوله : ((أنه يجب أن نبدأ بالذاتية))[3]. ويضاف الى مبدأ الذاتية كمنطلق أساسي في فلسفات الوجود بعض التجارب الهامة التي عاشها أي فيلسوف وجودي مثل تجربة القلق عند كيركجرد ، وتجربة الغثيان عند سارتر ، وغيرهما . ولا بد من الاشارة الى الظروف الخاصة التي تنشأ فيها الوجودية مثل ظروف الحرب العالمية في فرنسا وغيرها .

وان كان ذلك منطلق الوجودية بصفة عامة ، فما هو تطورها ؟ الواقع ان المتأمل في تقاليد الفلسفة عموما يدرك أن التجارب الميتافيزيقية تعد بدون شك أصول كل الفلسفات بما فيها فلسفات الوجود ، وقد اعتبر جان فال قولة ((اميل بريحي))أدق تعريف لفلسفات الوجود القديمة كلها .

---

1 — دائرة معارف ايزوال ، ص . 454 .

2 — كيركجرد . سلسلة أعلام الفكر العالمي . ترجمة . مجاهد . ص. 103 .

3 — جان بول سارتر . الوجودية مذهب انساني . ترجمة كمال الحاج . ص45 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((ان فلسفات الوجود — القديمة — هي عبارة عن تجارب ميتافيزيقية متحدة باحساس بالهم الانساني)) .(1)

ويجد الباحث أن فلاسفة الوجود قد تناولوا هذا الأصل ابتداء من سقراط الـــى كيركجرد وبقي متداولا بين هؤلاء جميعا دون تطور يذكر ، وان كانت تلك التجارب لم تسجل تطورا ملموسا ، فان ذلك لا يقلل من شأن فلاسفة القرون الخوالي . غير أن تغييرا كبيرا في هذا الأصل قد حصل في منتصف القرن التاسع عشر حيث وقع ابراز الفكرة الأساسية لهذا التطور من قبل الأب الروحي لفلسفات الوجود المعاصرة، وهكذا انتقلت فلسفات الوجود من التجارب الميتافيزيقية السالفة الذكر الى تجربة دينية عادية ، وهذا هو التطور الجذري الذي يمثل أصول فلسفات الوجود المعاصرة . وقد نسج على منوال كيركجرد في تجربته الدينية الأساسية فلاسفة أخرون مثل (نيتشه) و (ياسبرز) و (هيديجر مارتن) و (سارتر) و(غابريال مارسيل) وغيرهم من أعـــلام الوجودية المعاصرة. وهكذا يجوز القول ان فلسفات الوجود القديمة التي كانت تقوم على تجارب ميتافيزيقية مقترنة باحساس بالهم الانساني تولد عنها تجربة دينية عادية معاصرة يمكن اعتبارها كذلك ميتافيزيقية . ولكنها ميتافيزيقية جديدة .

وجدير أن ننوه بأن فلسفات الوجود قد تطورت في بداياتها على يد فلاسفة ألمان. وحري بالتذكير أيضا أن فلسفات الوجود تتشابه مع فلسفة الحياة والفلسفة الظاهراتية، وكما يوجد تماثل بين هذه الفلسفات عموما ، يوجد بينها اختلافات .

ولعل من أبرز الاختلافات القائمة بين فلسفات الوجود وفلسفة الحياة هو ان الأخيرة مشغولة خاصة بمعارضتها لهذا الانفصام الذي أحدثته المذاهب الفلسفية بين الواقع وبين الوجود الانساني .

---

٩ — جان فال . فلسفات الوجود (بالفرنسية) ، ص . 32 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذلك فهي تركز على فكرتين هامتين هما مبدأ الوحدة (وحدة الوجود) ومبدأ الصيرورة (استمرار الوجود) .

وأيضا هناك مجالات تتشابه فيها فلسفات الوجود والظاهراتية ، من ذلك أن الوجودية والظاهراتية كليهما تركزان بشدة على الوجود في هذا العالم : (سارتر، وهيديجر وياسبرز ،) (1)

وفي الأخير لا بد من الاشارة الى أن جميع فلسفات الوجود تتفق على أن الوجود الانساني هو المشكلة الكبرى ، فالعقل عاجز عن تفسير الكون ، ومشكلاته ، وأساس الأخلاق قيام الانسان بفعل ايجابي ، وبأفعاله تتحدد ماهيته . واذن فوجوده الفعلي يسبق ماهيته)) (2)

ويذهب الباحثون في هذه المسألة الى أن الوجودية فلسفة قديمة جديدة ، ظهرت في أزياء مختلفة عبر كل العصور . ((ان كل عصر يكشف مظهرا من مظاهر الشرط الانساني ، وفي كل عصر يختار الانسان نفسه اتجاه الغير ، والحب ، والموت والعالم)) (3) .

وبالرغم من أنها قديمة الا أنها صارت دون شك فلسفة القرن العشرين .

ويرى الفيلسوف الالماني ((كارل ياسبرز)) أن الفلسفة عظيمة وأن الفلاسفة عظماء ، وأن عظمة الفلاسفة الأوائل لايجاريهم في عظمتهم وعظمة فلسفاتهم أحد مطلقا ، ويمضي الى أن هؤلاء لم تكن تربطهم في الزمن الغابر أي رابطة تاريخية ، الا أنه يكشف عن نوع من القرابة بينهم جميعا تسمح له أن يصنفهم في الطليعة : ((ولكننا اذا أردنا الاعراب عن هذه القرابة وجدنا أننا لا ننجح الا بالرجوع الى مسائل فلسفية ،

---

1 — جان فال . فلسفات الوجود (بالفرنسية) ص . 32 .

2 — الموسوعة العربية الميسرة . ص945 .

3 — جان بول سارتر ، مواقف . ج 1 ،ترجمة مجاهد . ص 11 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى جهات المعرفة الأساسية ، الى المطالب والى معنى الحياة ، الى نشـــاط العقل والى الواقع الاجتماعي)) (1)

ويقسم ياسبرز الفلاسفة الى فئات ثلاث : الانسانيون ، المفكرون العظام (فلاسفـة) ، فئة الفكر الفلسفي في ميادين الشعر والبحث والانتاج الأدبي والحياة العملية وفي تعليم الفلسفة . ((تتضمن الفئة الرئيسية الأولى أنا ساحددوا ، تاريخيا ، بحياتهم وبطبيعتهم ، الكائن الانساني على نحو لم يجارهم فيه أي شخص آخر سواهم . ونحن نعرفهم بأثرهم المستمر خلال آلاف السنين الى يومنا هذا : (سقراط) ، (بوذا) ، (كونفشيوس) ، (يسوع) ، ونكاد نعجز عن أن نضيف الى أسمائهم اسما خامسا يتمتع بالسلطة التاريخية ذاتها ، نعجز عن اضافة أي شخص من مستوى سموهم وهو يتحدث الينا حتى اليوم . وقد نتردد قبل ان نسميهم فلاسفة . ولكنهم ينفردون في الفلسفة بأهمية لا تضاهي . انهم لم يكتبوا شيئا (باستثناء كونفوشيوس) . ولكنهم أصبحوا منطلق حركات فلسفية رائعة . ونحن ندعوهم : ((أولئك الذين حققوا مدى الانسان)) (2)

ويقسم كارل ياسبرز الفئة الثانية ، زمرة الفلاسفة الى أربع فروع :

1 — زمرة يستمر تأثيرها استمرارا منجبا خصيبا دون أمكانية تجاوزهم أو التفوق عليهم ، وهم : (أفلاطون) ، (القديس أوغسطين) ، (كانط) .

2 — زمرة طلائع الفكر (الميتافيزيقيون الأصليون) ، وهم أنواع كثيرة .

---

1 — كارل ياسبرز ، عظمة الفلسفة . ترجمة د . عادل العوا . ص 84 .

2 — المصدر نفسه ، ص . 85 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — زمرة الذين زعزعوا وجددوا ، الذين أفادوا من النفي للاسترسال في التعمق : ((ديكارت ، (هيوم) ، والملتزمتون الموقظون (باسكال) ، (ليبنغ) ، (كيركجرد) ، و(نيتشـــه) .

4 — الفئة الفرعية الرابعة هي زمرة مبدعي الصروح المنظمة : (أرسطو) ، (القديس توما) ، (هيجل) ، وغيرهم من الذين يتوجون ضروب تطور واسع بمنظومـات واسعة) (1)

وهؤلاء الفلاسفة جميعا قد كانوا بصورة من الصور منطلق فلسفات الوجود القديمة ، وممهدي ظهور فلسفات الوجود الحديثة .

ولئن كانت تلك لمحة تاريخية عن فلسفات الوجود القديمة ونظرة وجيزة عن أهم فئاتَ فلاسفة الوجود ، فما هي فلسفات الوجود الحديثة وابرز اعلامها ؟

الـوجـودية المـعاصـــرة
أو التجربة الدينيـة العادية .

الحقيقة والواقع ان الباحثين في الوجودية المعاصرة متفقون على أن هذه الفلسفات انبعثت كلها من التأملات الأساسية الدينية ، لكيركجرد . ولهذا اعتبـروه بلا شك الأب الروحي لهذه الفلسفات وقد اتبعه في ذلك مفكرون أخرون عدوا جميعا رواد هذه النزعة الفكرية المعاصرة . ومن أبرز رواد هذه الفلسفات نذكر كيركجرد . نيتشه . ياسبرز . غابريال مارسيل . سارتر . ألبير كامو . وسيمون دي بوفوار وغـيـرهـم . ويتقاسم فلسفاتهم تياران كبيران ، هما تيار الوجودية المسيحية ، وتيار الوجوديـــة الملحدة . وبالرغم من انشطار أولئك الوجوديين الى فئتين مختلفتين فانهم يتفقـون على أن الوجود سابق على الماهية ، على عكس الفلسفات السابقة التي تجعل الماهية

---

1 — المـصـدر نفسـه ،ص . 87 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سابقة على الوجود .(1)

ولئن كان أولئك هم ألمع أعلام الوجودية المعاصرة ، فما هي اتجاهاتهم ؟

الوجودية واتجاهاتها .

مؤمنة — ملحدة — نزعة توفيقية .

وان كانت منطلقات هذه الفلسفات المعاصرة التأملات الدينية العادية لكيركجرد فان بعضهم حاول أن يجعل تجربته غير دينية أو أحيانا ضد التجربة الدينية مثل سارتر .

ومن أبرز فلاسفة الوجودية المؤمنة هم كيركجرد وياسبرز وغابريال مارسيل وكلهم كاثوليكيون . ويذهب هؤلاء جميعا الى الاعتقاد بأن الانسان كان قد خلق وصمم من قبل الله متمكن ، ذي ارادة عظيمة ، موجود في عالم سام . وقد خلق الانسان على شاكلة هذا الاله وعلى صورته وهيئته .(2) وعلى هذا الأساس فالانسان وجود معرف ومقرر سلفا من قبل قوة خالقة . وتتضح هذه الفكرة أكثر في تأكيد كيركجرد على القدوة وبالمسيح ، ((ان الانسان الذي يروم الوصول الى معرفة وجود الخالق ، عليه أن يعيش على غرار تجربة المسيح في الحياة ، أي تجربة صوفية ذاتية تنقل الوجود الانساني الى مصاف الوجود الالهي . وعليه فلا تعتبر أراء وأفكار كيركجرد وتأملاته الدينية ثورة على الدين المسيحي بقدر ما هي ثورة على الطقوس والأنصبة الأكليريسية والتعاليم الجامدة الكنسية التي حالت دون الانسان وادراكه للدين الحقيقي النابع من الذات الانسانية الحرة))(3)

---

1 — سارتر . الوجودية مذهب انساني . ترجمة كمال الحاج . ص45

2 — غازي أحمد . الوجودية ، فلسفة الواقع الانساني ، ص30 .

3 — المصدر نفسه . ص 30 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن القول بصفة عامة أن الوجودية المؤمنة تحاول توحيد المعنى الانساني والمعنى الالهي ، بحيث يصبح الانسان في طبيعته العميقة حقيقة الهية في ني بشري .

تتضح هذه المسألة أكثر عند ((غابريال مارسيل)) في حديثه عن الاتصال بالله عن طريق العبادة ، ((ليست الحكمة في أن أوجد ، بل في أن أعلو على وجودي — بتجاوزه — حتى أصل نحو المطلق)).(1)

ذلك أن فلسفة غابريال تتمثل في أنها عبارة عن سلسلة متماسكة الاتصالات بين الذوات وبين الاشياء ، عن طريق الاحساس واتصال الانفس ذواتها عن طريق الذاكرة ، واتصال بين الانا وبين الآخرين عن طريق الحب . وأخيرا اتصال بين الانا وبين الله عن طريق الصلاة .)).(2)

يتبين لنا من النص السابق أن غرض الفلسفة الوجودية المؤمنة هو وحدة الوجود الموجود التي لا تنفصم عراها أبدا . أنه الوجود الذي يتحد مع الموجود فيكون كلا واحدا فقط .

هكذا تبدو الوجودية بهذا المعنى عبارة عن صوفية جديدة أو تصوف جديد .

إن كان ذلك هو اتجاه الوجودية المؤمنة ، فمن رائدها ؟

سورين كيركجرد : رائد الوجودية بنوعيها +

يذهب كل الدارسين الى أن فلسفات الوجود المعاصرة كلها انبعثت من تجربة كيركجرد الدينية العادية . (ان فلسفات الوجود تولدت من تأملات كيركجرد

---

1 — جان فال . فلسفات الوجود (بالفرنسية) ، ص 72 .

2 — زكريا ابراهيم ، الفلسفة الوجودية ، سلسلة أقرأ . ص 40 .

+ ولد كيركجرد في كوبنهاجن يوم 5 ماي 1913 م من أسرة قوتية غنية ، وكان أصغر أخوته السبعة . عاش في بيت هيمنت عليه النزعة الأبوية ، والتربية الدينية الصارمة . وقد ورث عن أبيه أعمق مكونات شخصيته والاكتئاب الذي -

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أحداثه الخاصة) .
ولئن كانت تجربة كيركجرد الخاصة منطلقا للوجودية ، فما هي هذه التجربة ؟
وما هي بواعثها ؟

تجـربة كيركجرد الدينيـة

يمضي الباحثون في فلسفات الوجود المعاصرة كلهم الى أن الوجودية بشكليها المؤمن والملحد ، انطلقت عن التأملات في تجربة كيركجرد الدينية . كما أنهم يؤكدون على أن بواعث هذه التجربة الكيركجردية هي تأملات في أحداثه الخاصة وانعكاسات هذه الأحداث على نفسه وتفكيره ((ان فلسفات الوجود كلها نشأت من تأملات كيركجرد في أحداث حياته الخاصة ، تأملاته في : خطوبته ، في تربيته المسيحية الصارمـــة ، وفي الخطيئـة المعلقة حول أسرته)) (1)

- كان ينتابه بين الحين والحين ، كما ورث عن أبيه أيضا قدرات التفكير البارزة ، والعقلية الجدلية ، النفاذة والخيـال الانفعالي . وقد ظلت صورة المسيح التي غرسها أبوه في عقل الطفل مهيمنة .
أنهى كيركجرد في 1830 بتفوق ، دراسته الثانوية ثم بدأ يقرأ بتوسع في اللاهوت والفلسفة وعلم الجمال . أنتابه في عام 1835 م حال من القلق والتشويش الذهني العنيف اضطرته لأن ينقطع عن دراسته ، وفي هذه الفترة بدأ التحول الفلسفي . في عام 1840 م تقدم لخطوبة فتاة جميلة للغاية وعقبت هذه الخطوبة سنة مليئة بالعواطف والتعذيب ، قرر كيركجرد في 1841 م أن يفسخ الخطوبة . كان لهذه الخطوبة أثر كبير في حياة كيركجرد كلها . بدأ التأليف منذ عام 1835 وواصل الكتابة دون انقطاع حتى توفي عام 1855 . له مؤلفات كثيرة وهامة : التهكم (رسالة الدكتوراه) ـ مؤلفات فلسفية مجهولة الاسم ـ مراحل الحياة الثلاث ـ اما ... أو ـ القاضي ولهلم ـ الرجعى ـ الخوف والرعشة ـ مفهوم القلق ـ حاشية غير علمية ـ التدريب على المسيحية ـ المرض حتى الموت ـ الصراع مع الكنيسة . الخ . بالاضافة الى يومياته ، وأشعار ورسائل كثيرة .
كانت فلسفته تمثل منعرجا حاسما في تاريخ الفلسفة .

1 ـ جان فال . فلسفات الـوجـود (بالفرنسيـة) ، ص. 8 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أن تجربة كيركجرد تكمن في ازدواجيته (ثنائيته) ، فهو يرى أن الانسان مركب من الجسم والروح ولكل منهما متطلبات لا بد من تحقيقها ، وان عجز الكائن عن تلبية تلك الرغبات كان ذلك عين القلق ومصدر الاكتئاب واليأس .

كان كيركجرد يركز على كثير من المفاهيم الأساسية المتعلقة بالجسم كالشوكة التي في اللحم ، وان شوكته التي في اللحم تشير الى انفعال سوي و ((نقص أساسي)) يجعله ((استثناء)) أو ((شاذ)) في اطار ما هو انساني ويحول بينه وبين ((تحقيق ما هو كلي : ((لقد كانت لي شوكتي التي كانت تؤلم لحمي وبسبب هذا لم أتزوج ولم أستطع أن ألج الحياة)) [1] وكانت هذه الشوكة عبارة عن لحن ساري في حياته كلهـا .

أما عن الجانب الروحي فانه يحدده بقوله : ((وأنا طفل تربيت على المسيحية بصرامة وشدة ، واذا جاز لي أن أعبر عن نفسي بانسانية لقلت انني تربيت على نحو جنوني : وحتى في طفولتي المبكرة قيدتني انطباعات حطت علي من سوداوية الرجل العجوز الذي كان هو نفسه محاصرا بها — لقد كنت طفلا تربى — بجنون — كرجل عجوز سوداوي)) .[2] ولقد ظلت صورة المسيح التي غرسها الأب العجوز في عقل الطفل معه طوال حياته باعتبارها التجربة المهيمنة . وقد كتب كيركجرد في مواضع عديدة ان الانطباع السائد للمسيح الذي تكون في طفولته ، قد جعله تعسا الى حد كبير ، ((لقد كانت المسألة برمتها مرتبطة ، بالعلاقة مع أبي أكبر كشخص أحببته — فماذا كان يعني هذا ؟ انه يعني أنه كان مجرد الشخص الذي يجعل من المرء انسانا تعسا — ولكن من خلال الحب ، ولا يكمن خطاه في نقص الحب ولكن

---

1 — كيركجرد . سلسلة أعلام الفكر العالمي . ترجمة مجاهد . ص 167 .

2 — المصدر نفسه ، ص 7 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في خلطه لانسان عجوز بطفل))[1]

ولقد بدأ التحول الوجودي الفعال في مرحلة مبكرة من حياة كيركجرد ، وذلك عندما اضطر لأن ينقطع عن دراسته انقطاعا تاما ، ويستريح في مصيف ساحلي (نوتلاند) للعلاج خلال صيفي 1834 ، 1835 . وهناك حاول أن يكشف تجربته ويجلو أفكاره التي سجلها في مذكراته ، ومن أمور كثيرة قوله : ((ان ما أحتاج اليه حقاً هو أن أتطابق مع نفسي عما يجب علي أن أفعل لا عما يجب علي أن أعرف الا اذا كانت المعرفة ستكون مقدمة للعمل ، ان ما يهم هو اكتشاف حقيقة تكون حقيقية (بالنسبة لي) وأجد تلك الفكرة التي أعيش وأموت من أجلها))[2] وجدير بالملاحظة أن الفكرة التي اكتشفها كيركجرد ليست سوى الحياة .

ويتوقع بعض الدارسين أن هزة مخيفة حدثت للشاب كيركجرد في خريف 1835 . وقد عبر عن تلك الحادثة بكلمات غامضة ، ((لقد وقع انذاك (الزلزال الأكبر) الهزة المخيفة التي أثرت في على نحو فجائي بتفسير جديد لا يخطئ لكل ظاهرة . ثم بدأت أشك في أن سن والدي المتقدمة ليست نعمة الهية ، بل هي بالأحرى لعنة ، ان القدرات العقلية البارزة لأسرتنا لا توجد الا لتعذب الآخرين ، ثم شعرت بصمت الموت يتزايد في عند ما رأيت في والدي رجلا تعسا قد يظل حيا بعدنا جميعا ، حجر اعلى كل أماله . لا بد أن خطيئة ما كانت معلقة على كل الأسرة ، عقابا من الله على هذه الأسرة))[3]

لا بد أن تكون هذه الهزة المخيفة ـ الزلزال الأكبر ـ ناتجة عن شعور كيركجرد

---

1 ـ المصدر نفسه ، ص 8 .

2 ـ المصدر نفسه ، ص 10 .

3 ـ المصدر نفسه ، ص 11 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالخطئة المعلقة على الاسرة • ولا بد أن تكون أرضية القانون الذي لايخطىء لتفسير كل ظاهرة هو ((أن الاسرة بكاملها يجب محوها)) وكذلك احساسه العميق بأن الموت يتعقبه في كل لحظة من حياته •

ان هذه الهزة المخيفة قد أثارها تأمله في عدد الوفيات الغريب في اخوته السبعة، الذين لم يبق منهم سوى اثنين ، وخلال الفترة 1833 ، 1834 وحدها توفي ثلاثة اخوة وأمهم • ولا شك أن كيركجرد قد تأمل مليا عدد هذه الوفيات الغريب فجاءت البنية الحقيقية عنده دائما بنية دينية (تجربة دينية عادية) ، فما الذي يعنيه الله بهذه الوفيات الكثيرة في فترة وجيزة ؟ ثم وجد ((القانون الذي لايخطىء الخاص بالتفسير)) : يجب الاطاحة بالاسرة كلها لانه لابد أن هناك خطيئة ما تحلق فوقها •

وحري بالملاحظة أن أكبر سن وصل اليها أخوة كيركجرد السبعة لم تتجاوز الرابعة والثلاثين عاما فقط • وان هذا العدد الغريب من الوفيات في أمد قصير وفي سن مبكرة هو سر تلك الهزة المخيفة ، ومما يؤكد ذلك أن كيركجرد نفسه كان يظن أن أقصى سن سيصل اليه يجب أن يكون 34 سنة • فلما بلغ ذلك السن كتب يقول: عجيب أنني في الرابعة والثلاثين • ان هذا غير مفهوم بالنسبة لي ، لقد كنت على يقين بأنني يجب أن أموت قبل هذا التاريخ أو معه حتى لقد اعتقدت حقا أن تاريخ ميلادي لابد أن هناك خطأ في تسجيله ، وأنني على هذا سوف أموت وأنا في الرابعة والثلاثين)) . (1)

ولم يقدم كيركجرد سببا لهذا الرقم الغريب وأثر ان يبقى غامضا • مع العلم أن رقم 33 يشير الى عمر المسيح ، وعمر الجيل من تلك الحقبة ، خاصة أخوته ،ولعل هذا أهم تبريراته •

ونذكر حدثا آخر هاما في حياة كيركجرد وتجربته الدينية وهو حدث الخطوبة ، ذلك أنه حب حبا مثاليا فتاة جميلة للغاية تدعى ((ريجين أولسن)) وخطبها وعقبت هذه

---

1 ــ المصدر نفسه • ص13 •

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطوبة سنة مليئة بالمشاعر والتعذيب ويذكر كيركجرد في مؤلفاته أنه في اليوم التالي للخطوبة تيقن أنه خطأ فتملكته الكآبة مع الشك والقلق بشأن ما اذا كان يستطيع أن يواصل الحياة وهو متزوج ((ان تمسك بهذه الصبية المحبوبة بين يديك وأ ن تجعل من الحياة غناء لها وأن تريها الفرح الغامر وهي أعظم سعادة لدى السوداوي ، تتمسك بالصوت المصيري : يجب أن تتخلى عنها هذا هو عقابك يتجسد أكثر بمرأى كل معاناتها وابتهالاتها ودموعها تلك التي لا تدرك أنها عقابك أنت)) (1)

ويتفق الدارسون على أن هذه الخطوبة التعسة كان لها تأثير بالغ على كيركجرد طول حياته ، وكان صداها لحنا ساريا في أعماله كلها .

ان هذا الحدث التعس ، يضاف بكل قساوته الى مسألة الشوكة التي في اللحم . وقضية التربية المسيحية الصارمة التي تربى عليها . تلك هي ظروف مأساوية ولدت تجربة كيركجرد الوجودية المسيحية . ولئن كان ذلك هو الجو الذي اكتنف انبعاث الوجودية ، فما معنى هذه التجربة ونوعيتها ؟

معنى الوجودية الكيركجردية

الواقع ان المعنى الذي يعطيه كيركجرد للوجود هو أولا التطابق الكامل بين حياته وبين تفكيره وعمله ، ويبدو أنه كان متأثرا بما سمعه من محاضرات ((شلنج)) التي كان يلقيها في ((برلين)) ، وكان يركز فيها على العلاقة بين الفلسفة والواقع ، ((ان هذه الكلمة الواحدة انما كانت تذكرني بكل معاناتي وكربي الفلسفي (2) . وسبق أن أشرنا الى معنى الحقيقة التي يريد كيركجرد أن يعيش ويموت من أجلها .

---

1 — المصدر نفسه . ص ، 19 .

2 — المصدر نفسه . ص ، 30 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبينا أنه يقصد بذلك الحياة ولا شيء سواها . وان معنى فلسفة الحياة لدى كيركجرد لا يعني أن يكون له مجرد رأي عنها ، بل يجب أن يحياها ، ويحققها ،((الحقيقة أن تعيش وتموت من أجل فكرة)) . وقد ألف فيها أكثر من كتاب . وحاول أن يبين لنا في مؤلفاته طرقا مختلفة للحياة بها يمكن أن تعاش الحياة ، ويحددها على أنها مراحل حياة أو ((مجالات الوجود)) ، وقد استخلص في فلسفة الحياة هذه ثلاث مجالات رئيسية كأنماط حياتية .

وهذه المجالات هي باختصار دقيق :

1— مرحلة الجمالية وتعد اللذة هي الهدف من الحياة .

2 — مرحلة الأخلاقية . ويكون معنى الحياة هو العيش بمقتضى المسؤولية والواجب.

3 — مرحلة الدينية ، وتكون العلاقة بالله هي أعمق شيء في الحياة ، وهذه الحياة الأرضية حياة زمانية لا تنال أرضيتها الحقة وعمقها ما لم ترتبط بالله والحياة الخالدة. وما يهم هنا مباركة في الحياة الخالدة والأمل في الأبدية .

ورغم أن هذه المراحل مختلفة ومتباينة وتشكل كل مرحلة منها فلسفة بذاتها ، فانه يمكن الانتقال من مرحلة الى أخرى وذلك عن طريق الوثبة . ولكن كيركجرد يذكر مرحلتين انتقاليتين بين تلك المراحل الثلاث الرئيسية ، مرحلة التهكم وهي مرحلة انتقالية بين الجمالية والأخلاقية . ومرحلة فكهة وهي مرحلة انتقالية بين الأخلاقية والدينية .

وهكذا تصبح أنماط الحياة خمسة ، يمكن أن يحياها الانسان كلها . وقد يحيا بعضها فقط . وليس من الضرورة أن يعيشها كلها بصورة منطقية .

وجدير بالملاحظة أن مراحل الحياة عند كيركجرد تشبه فلسفات قديمة هي :

الابيقورية ، والرواقية ، والمسيحية .

ويعتبر كتاب كيركجرد ((اما ... أو)) حجر الزاوية في بناء فلسفته من مجالات الوجود .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقدم كيركجرد هذه المراحل بأسلوب يمزج فيه الواقع والخيال والتصوف في جوهر شعري سام وعلى الباحث أن يميز مكوناته الواحد من الأخر ٠
وان كان ذلك هو معنى وجودية كيركجرد ومجالاتها ، فما هي طرقها ؟

وجـودية كيركجـرد وطـرقهـا

الواقع ان الأمر المؤكد بالنسبة لدارسي كيركجرد هو أنه رجل منذ بداية حياته ابتلى (بشكوى رئيسية) لم يشرح طبيعتها اطلاقا لكنه يسميها أحيانا أحزانا سوداوية وأحيانا أخرى يسميها شوكته التي في اللحم ٠ وقد اعتبر هذا مرضا خطيرا له طبيعة مادية وروحية معا ٠ زيادة على ذلك أنه اقتنع اقتناعا شديدا ان الانسان لا يصبح (سوداويا) الا بسبب وجود (ذنب) ٠ وان هذا الذنب القائم في سوداويته هو ذنب شخصي في جانب منه وخطيئة أولية ورثها من أسرته في الجانب الآخر (1) ٠ ولئن لم يحدد كيركجرد الوجودية ، فان المهم بالنسبة اليه هو ((أن يوجد الانسان كانسان)) ٠ وما هي الطرق التي يمكن للانسان بها أن يوجد كانسان؟ الحقيقة ان كيركجرد يرى أن الوجود الانساني هو أولا وقبل كل شيء وجود في الزمان مقابل الوجود في الأبدية ٠ ((ان الانسان يولد ويعيش لفترة من الوقت ثم يموت ٠ وفي ظل أفضل الظروف يعيش ثلاثة أجيال وعقدا من السنين ٠ وبدون أن يريد الانسان فانه مدعو للوجود ذي الديمومة المحدودة للغاية ٠ ومع هذا : ((ان توجد هو الاهتمام الأكبر للانسان)) ٠(2)
وعلى الانسان أن يصل الى فهم صميمي للطرق المختلفة لكي يوجد ، ويدلي (بتواصلات الوجود) عنها ٠ ومثل هذا التواصل للوجود قد يكون من الطابع الشخصي جدا ٠

---

1 ــ المصدر نفسه ، ص 20 ٠

2 ــ المصدر نفسه ، ص 100 ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون من النوع الفني . والمهم بالنسبة للوجودي ليس فقط في أن يختـــار أحد الامكانيات المختلفة بل عليه أن يختار موقفا عقليا ويعيشه بشدة ويكرس حياته له ((وهو نفسه يعيش بشدة وبحدة في ذلك ـ الشكل للوجود ـ الذي أختاره)) .(1)

ومن خلال تواصلات الوجود يمكن أن نستنتج أن كيركجرد يفصل فصلا تامـا بين حقيقتين : الحقيقة الذاتية ، والحقيقة الموضوعية . وبالتالي بين المفكرالوجودي ((الانفعالي)) وبين المفكر الموضوعي). وهذا التقسيم يوحي بتلك المعركة الدائمة بينـه وبين هجل . ويطرح كيركجرد المسألة الأساسية عن ((حقيقة)) أو (زيف)) فلسفة الحياة. ((ما هو معيار فلسفة للحياة ؟ هل كل فلسفات الحياة متساوية على أساس واحد ؟ أو أنه من العبث أن نبحث حقيقة أو زيف فلسفة حياة ؟(2) .

ويجب كيركجرد عن ذلك بقوله : ((ان المعيار للحقيقة الذاتية هو انفعالي وارادي ـ المسألة مسألة الباطنية . ومعيار الحقيقة الموضوعية هو التعريفات الخاصة بالفكـر ـ من الناحية الموضوعية المسألة مسألة التعريفات الخاصة بالفكر)) .(3)

ولئن اكتفى كيركجرد بالفصل بين الحقيقة الذاتية ومعيارها الباطنية أو الانفعال والارادة) ، وبين الحقيقة الموضوعية ومقياسها معرفي محض (التعريفات الخاصة بالفكر) ، فان الفيلسوف كارل ياسبرز ، قد قسم الحقيقة الى أربع حقائق مختلفة : 1ـ حقيقـة ذاتية ـ 2 ـ حقيقة وجود ـ 3 ـ حقيقة تجريبية ـ 4 ـ وحقيقة علمية . غير أن الأمر (4) الذي لا يمكن أن نتقبله بسهولة عند كيركجرد هو نظرية ((الكيفية)) المتعلقـة بالحقيقة الذاتية ، فهو يقول : ((وعندما نبحث الحقيقة ذاتيا فاننا نأمل بذاتيـــة

---

1 ـ المصدر نفسـه . ص 102 .

2 ـ المصدر نفسـه . ص 100 .

3 ـ المصدر نفسـه . ص 104 .

4 ـ جان فال ، فلسفات الوجود . ص 38 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في علاقة الفرد ، وعندما تكون كيفية هذه العلاقة في الحقيقة ، يكون الفرد في الحقيقة حتى لو كان مرتبطا بما هو ليس حقيقيا)) .(1)

ويضرب كيركجرد مثلا لتوضيح نظرية الكيفية هو : ((اذا ولج انسان يعيش في مسيحية العصور الوسطى بيت الرب ، بيت الرب الحقيقي ، بالتصور الحقيقي عن الرب في معرفته ويصلي فانه يصلي في اللاحقيقي ، والانسان الذي يعيش في الأرض الوثنية ولكن يصلي بكل انفعال باللامتناهي بالرغم من أن نظرته مثبته على الوثن : فأين اذن تكمن الحقيقة القصوى ؟ ان الانسان يصلي في الحقيقة للرب بالرغم من أنه يعبد الوثن ، والآخر يصلي في اللاحقيقة للرب الحقيقي ولهذا فهو يعبد في الحقيقة وثنا))(2) . ولا بد أن نفهم من هذه النظرية ، ان المسألة كلها عند كيركجرد مسألة ايمان وليست مسألة معرفة .

ونفهم كذلك أن كيركجرد يؤكد على الجانب الانفراقي في الايمان . ولامجال للفكر أو العقل أو التأمل أو العلم في الايمان ، ((الأمر لا يتم الا بالايمان بالرغم من كل عقل))(3)

وهكذا يمكن أن نقول ان وجودية كيركجرد ، وجودية مسيحية ذاتية ، انها تجربة صوفية جديدة . ولهذا يقول كيركجرد : ((ان النتائج التي ينتهي اليها الانسان هي وحدها الخليقة بالايمان ، وهي وحدها المقنعة ، لأن الحق مايلتزم به المرء ويكون متأهبا للمخاطرة في سبيله ، فان شئت أن تعرف مقدار الحق عند

---

1 - المصدر نفسه . ص 39 .

2 - سلسلة اعلام الفكر العالمي . ترجمة مجاهد . ص105 .

3 - المصدر السابق . ص 108 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انسان ، فعليك بملاحظة ما اذا كان يحياه دون أي تحفظ ويلتزم نتائجه)) .(1)

ولا بد هنا من الاشارة الى أن الحقيقة الحقيقية في نظر كيركجرد لا يجب أن تفسر بل أن نحياها .

ومن الافكار الكثيرة التي قدمها كيركجرد للوجودية ، نذكر فكرة علاقة الانسان بالآخر ، وعلاقة الذات بخالقها . وفي هذا الصدد يذهب بعض الباحثين الى أن الصلة بين الانا وبين الآخرين في فلسفة كيركجرد ، تتحقق بصورة غير مباشرة وكذلك العلاقة بين الذاتية وبين الاله ، تتم بطريقة غير مباشرة ، وفي أفضل الأحوال تتحقق بواسطة علاقة الوجود ، وهي علاقة غير مباشرة وأحيانا منعدمة ، ((ان محاولة الانغلاق في الذاتية الخالصة هي في نفسها عملية جدلية ذلك أنه في حياته الفردية والذاتية يكتشف الآخرين حتى ولو أراد انكارهم . أنه يدرك انطلاقا من فرديته نفسها وبالتأمل في ذاتيته ، أن حياته لا معنى لها الا في علاقتها بالآخرين سواء أكانت صلة ائتلاف أو اختلاف .(2)

ومن أبرز الافكار الوجودية عند كيركجرد ، فكرة القلق ، الواقع ان فلسفة كيركجرد لم تنطلق من فكرة الاندهاش مثل الفلسفات القديمة وانما انبعثت من احساس القلق واليأس ، وفكرة اليأس التي هي منبع القلق ، فكرة مستقلة تماما عن فكرة الخطيئة ، بقدر ما هي مقترنة بفكرة البراءة ، ولهذا فهو يحدث بدون سبب ، وليس له علاج . ان فكرة اليأس مرتبطة بالتجربة المحسوسة للحرية (3) .

والقلق هو فلسفة بدون خوف ، وهو يحيلنا على الايمان ، لأنه شعور الفرد في فعله الحر ، بالخطيئة الناشئة بالضرورة من الاختيار لأن الاختيار نبذ للممكنات

---

1 — معنى الوجودية . دراسة توضيحية . ص 27 .

2 — كيركجرد حي . (بالفرنسية) . ص 120 .

3 — المصدر السابق . ص 17 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن طريق النبذ يتسلسل العدم الى الوجود ومن هنا جاءت الصلة الوثيقة بين العدم والحرية والقلق)) (1)

ولئن كانت تلك أهم الافكار الوجودية التي قدمها كيركجرد ، فما هو هدفه؟ وما نتائج هذه التجربة الكيركجردية؟

الحقيقة والواقع أن هدف هذه الفلسفة بصرف النظر عن المعركة التي قادها ضد فلسفة هيجل وبالتالي ضد سائر الفلسفات الميثالية من هيجل الى أفلاطون. فانه يتمثل في زعزعة الفلسفة الاتباعية ، وبعث فلسفات جديدة ، وفعلا اعتبرت تجربته منطلقا لكل فلسفات الوجود المعاصرة . وان سائر فلاسفة الوجود المعاصرين قد استمدوا من معين كيركجرد ومن منهجه ولذلك اعتبروه الأب الروحي للوجودية.

ان فلسفة كيركجرد — كمأساة معاصرة ومغامرة فردية — تعارض ميثولوجية العصور الذهبية المنصرمة ، هادفة الى أن الانسان المعاصر . سيد حر يصنع مصيره بنفسه . ولم يعد يبحث عن حريته في حركة ارتدادية — أي الذكرى التي تذهب في حركة نحو الوراء — كما هو الشأن في الفلسفة الاتباعية ، وانما النظرية المعاصرة تبحث عن الحرية في حركة مستقبلية .

ان فلسفة كيركجرد بالرغم من أنها فلسفة التنوير والتجديد ، وفلسفة الثورة على الطقوس المسيحية الجامدة ، فانها لا تخلو من بعض السلبيات ، التي نذكر منها . المعركة التي قادها كيركجرد ضد هيجل ، وضد كل فلسفة اتباعية ،قد اعتبرها بعض الدارسين ناحية سلبية في فلسفة كيركجرد ، خاصة عند ما يفصل فصلا كليا بين النسبي والمطلق وتنحية نسبية النظام الهيجلي ، ومن الانتقادات الموجه

---

1 — معنى الوجودية . دراسة توضيحية . ص 28.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضد فلسفته ، خاصة المتعلقة بمراحل الحياة الثلاث الرئيسية ، وخاصة فصله بين المرحلة الأخلاقية والمرحلة الدينية ، وهذا يعني في نظر بعض الباحثين تجريد الدين من معنى الأخلاق لأن الدين دين وأخلاق في آن واحد .

ويذهب بعضهم الى أنه لم يستطع أن يتجاوز - الا صوريا - متناقضات المجتمع البورجوازي التي حددها هيجل في نظامه ، ويؤاخذون عليه في هذا المعنى ، انكاره المواطنة مقابل الانسان الخاص .

ولكن مهما قيل فان فلسفة كيركجرد تمثل فلسفة التنوير في القرن العشرين ولئن كانت هذه لمحة عن الوجودية المؤمنة ورائدها ، فما هو الاتجاه الملحـــــد ؟ ومن يمثله ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوجودية الملحدة ورائدها سارتر

يذهب الباحثون في هذه المسألة الى أن نشأة الفلسفة ، كانت نشأة وثنية. فالفلسفة كلها قد كانت وثنية حين ابتكرها اليونانيون وسقراط وتلاميذه خاصة، ثم تنصرت حين انتصرت المسيحية على وثنية العالم القديم أو العالم اليوناني الروماني خاصة ، واسلمت بعد ذلك حين أتم الله نوره وانتشر الاسلام في الشرق والغرب . ولئن كان الالحاد ظاهرة شائعة في كل العصور ، فانه بدا في هذا العصر بصورة مثيرة للانتباه ، ولعل مرد ذلك الى شيوع هذه الفلسفة نفسها . ويتزعم هذا التيار الملحد المعاصر كل من الفيلسوف الالماني (هيديجر) وفلاسفة فرنسيين أبرزهم (سارتر) و(كامو) . ويتجسد الحادهم في عدم الاعتراف بوجود اله خالق مصمم متمكن و ذلك لأن الانسان في نظرهم وجد في هذا العالم دون أن تكون له ماهية سابقة ،ودون أن يكون على صلة أو معرفة بالقوة التي دفعته وزجت به الى هذا الوجود ، وألقته في هذا العالم دون عناية . ويتزعم سارتر هذه الوجودية ، لما لقيه من نجاح أدبي منقطع النظير . وقد روى كارل ياسبرز أنه أطلع يوما في أحدى الصحف الامريكية على صورة توضيحية لما أعتاد الناس تسميته بالوجودية فوجد أن الرسام قد وضع في المركز صورة ضخمة لسارتر وقد علت فمه ابتسامة الرضا ، والى جانبه صور أخرى صغيرة لأربعة أقمار ثانوية قد أحاطت به من جميع الجهات ، وهي صورة باسكال وكيركجرد ونيتشه وياسبرس[1] .

ولهذا سنعرض لبعض أفكار رائد هذه الوجودية بصفة عامة والملحدة بصفة خاصة.

سارتر الفيلسوف *

ينطلق سارتر من فكر فلسفي ذي طابع مأساوي . وقد استفاد من كل الفلاسفة المعاصرين الذين سبقوه ، ونقض كثيرا من أرائهم ، وأسس نظام فلسفته على مبدأ الحرية

1 — كارل ياسبرز ، عظمة الفلسفة ، ترجمة . الدكتور عادل العوا . ص 5 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي ما يريد الانسان أن يكون ، لأن الانسان ليس شيء في البدء ،وليس ماهية مسبقة ، ولكنه يوجد أولا وعلى الشكل الذي يوجد عليه ثم بأفعاله تتحدد ماهيته.

((في التعبير الفلسفي ما يدل على أن لكل شيء من الاشياء ماهية ووجودا . فالماهية هي مجموعة ثانية من الخصائص . والوجود نوع من الحضور الفعلي في العالم. يعتقد كثير من الناس أن الماهية تأتي أولا ثم يتبعها الوجود ... وأن أصول هذه الفكرة موجودة في التفكير الديني ، بدليل أن من يريد بناء بيت ، يجب أن يعرف بدقة صورة هذا البيت وهيئته ، وهنا نسبق الماهية . وكذلك شأن من يومنون

---

* ولد جان بول سارتر 21 يونيو (جوان) عام 1905م. من أبوين كاثوليكيين . كفله جده من جهة أمه بعد وفاة أبيه . وأوحى له جده بأنه عبقري . تزوجت أمه وهو في الحادية عشر وقيل انه ألحد في هذه السنة نفسها . تعلم سارتر أولا في الريف ، وفي المرحلة الثانوية انتقل الى باريس ، والتحق بمدرسة المعلمين . وأصبح مدرسا للفلسفة بعد فوزه في مسابقة البريز . وابان الحرب العالمية الثانية جند سارتر في الخدمة العسكرية وكلف بتسجيل الأحوال الجوية اعفاء له من القتال لضعف بصره. وكان يكتب عشرات الصفحات يوميا ليحيا وجوده منذ صغره . وقد أختار الرواية الوجودية لما لها من حيوية . لم يعرف سارتر الالتزام الا في بداية الحرب حيث شارك في السياسة رغم اهتمامه الكبير بالأخلاق والسياسة .

كتب سارتر عددا كبيرا من المؤلفات الأدبية والفلسفية وتتسم مؤلفاته دوما بالاثارة والتوقع والتطور في فكر صاحبها الى حد التناقض . لقد انضم مع رفاقه الفلاسفة الملحدين الفرنسيين في الحزب الشيوعي . وناصروا قضايا التحرير في الفيتنام والجزائر والسامية ثم اختلفوا وتفرقوا .

وقد ازدات شهرة سارتر بعد موت (كامو) و(ميرلوبونتي) . وقد أستمر سارتر في العطاء بسخاء دون انقطاع الى عام 1974 حيث توقف عن العطاء والانتاج لفقدانه عينه الوحيدة التي كان يرى بها . وفي العام نفسه أقيم حفل الوداع والانفصال بينه وبين (سيمون دي بوفوار) التي تعد بمثابة زوجته ، واقتصر نشاطه بعد ذلك على مشاركات في أفلام وثائقية أو محادثات اذاعية .

توفي سارتر عام 1981م في ظروف صعبة ،بعد حياة مليئة بالنشاط والعطاء ، والبساطة ، لكن تأثيرها قد تجاوز الآفاق وشهرته بلغت أوجها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأن الله هو خالق الانسان . انهم يعتقدون أن خلق الله قد تم بعد أن استعان بفكرته عنهم ، وهي ماهيتهم . أما الذين لم يحتفظوا بايمانهم بالله فقد احتفظوا بهذه الفكرة التقليدية القديمة القائلة بأن الشيء لا يتحقق وجوده مالم يكن منسجما مع ماهيته . وقد رأى القرن الثامن عشر كله ان هناك ماهية مشتركة عامة لكل الرجال دعيت بالطبيعة البشرية . وخلافا لهؤلاء جميعا تؤكد الوجودية أن الوجود يسبق الماهية عند الانسان فقط ، والانسان وحده . ((يعني ببساطة كلية أن الانسان يكون أولا أن يتحقق وجوده ثم يصبح بعد ذلك هذا أو ذاك))[1]. وبجملة واحدة الانسان هو الذي يختار ماهيته .

ويزيد سارتر الفكرة ايضاحا متسائلا : فما معنى كون الوجود يسبق الجوهر أو الفكرة المجردة ؟[2] ويجيب عن ذلك التساؤل قائلا : ((ان ذلك يعني أن الانسان يوجد قبل كل شيء يصادف ويظهر من الطبيعة والكون ، ومن ثمة يحدد ويعرف. والانسان كما تتصوره الوجودية ليس له في البدء أي وجود حتى يمكن تعريفه وتحديده، وهذا التحديد لايصح وجوده الا بعد أن يكون الانسان قد وجد ، وعلى الشكل الذي يوجد عليه نفسه[3]

ويصل في نهاية تساؤله الى نفي وجود الخالق : ((وهكذا يصح الاعتقاد أنه لا توجد طبيعة انسانية ، لأنه لا يوجد اله خالق يتصورها في ذهنه ومن ثمة يعمد الى خلق الانسان بناء على تصوره لتلك الطبيعة (4) .

وسارتر يهدف من وراء ذلك الى أن الانسان خالق لنفسه لانه وحده متصور لها (5) .

---

1 — معنى الوجودية ، دراسة توضيحية . ص 32 .

2 — سارتر . الوجودية مذهب انساني ، ترجمة د كمال الحاج ،ص . 66 .

3— الوجودية مذهب انساني ، ص 45 .

4— المصدر نفسه . ص 45 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما تقدم يتضح الحاد سارتر ، وانكاره للخالق · وهو يظن أنه بانكاره للخالق يستطيع أن يخرج الانسان من سجن الجبرية المطلقة الى عالم الحرية الذي يريد أن يصنعه للانسان · لأن سارتر يرى أن وجود الخالق يعارض ويناهض وجود الحرية التي هي الشيء الأساسي الذي يفترضه الوجود الانساني في الحياة · فكيف يصح أن تخلق وتسير وتصمم حياتنا من قبل اله سام ، ثم ندعي أننا أحرار ؟ اذ لابد من انتفاء أحد الأمرين في هذه الحالة : اما وجود الاله الخالق · — واما وجود الحرية التي لايمكن ادراك الحقيقة الانسانية مطلقا بدونها ·

والحقيقة ان فكرة الحرية عند سارتر بصفة خاصة هي الفكرة الأساسية التي شيد عليها نظرياته الفلسفية ، ولهذا فهو يعتقد أن فكرة الحرية هي الجوهر الأوحد للقيم كلها انها بنظره قيمة القيم ·

ولمبدأ الحرية عند سارتر جانبان: ناحية عامة باعتبارها قيمة كل القيم الموجودة في العالم ، وباعتبار أن حريته مرتبطة بحرية الآخرين جميعا ·ومن ناحية ثانية فان سارتر يرى أن فكرة الحرية ، فكرة خاصة به ، فهي أساس حريته هو وحده ،ولايشاركه فيها غيره مطلقا · ((لا أحد غيري يستطيع أن يعبر الطريق التي هي ليست الاسبيلي أنا)) · (1)

وتجدر الاشارة هنا الى أن فلسفة سارتر تنهل نهلا من الفكر الألماني حتى أن بعضهم يقول: ان أهم كتب سارتر في الوجودية وهو كتاب (الوجود والعدم) انما هو عبارة عن ترجمة لكتاب هيديجر الألماني : (الوجود والزمن) · وكذلك الحال بالنسبة لفكرة الحرية نجدها تمثل مركز التفكير الفلسفي عند ياسبرز تماما مثل سارتر مع تحفظ ناتج عن عقيدته المسيحية فهو يقول : ((ان الاله مختفعنا ،لو ظهر للعيان ، فلا نستطيع أن نكون أحرارا ·

1 — جان فال ، فلسفات الوجود (بالفرنسية) · ص 90 ·

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبما أن الاله مختف لحكمة ، ولا يمكن أن يتجلى الا بطريقة غير مباشرة وذلك لكي نشعر نحن بحريتنا))[1]

ويتضح لنا من هذا القول أن الفرق الوحيد بين فكرة الحرية عند ياسبرز وفكرة الحرية عند سارتر هو أن الاول أقامها على أساس الاعتقاد في الاله الاب ، والثاني أقامها على أنقاض هذا الاله الاب حيث يقول : ((بما أنني حذفت الاله الاب من تفكيري ، فيجب علي على الاقل أن اعتمد شخصا يخلق القيم الاخلاقية))[2] وبغير شك فان الحرية هي قيمة القيم الاخلاقية .

ونجد أن سارتر يتفق اتفاقا كاملا مع (نيتشه) في مبدأ أفكار كل القيم من العالم قصد تعويضها بقيم مبتكرة جديدة ، ((فالغربيون الاولون ادخلوا هذه القيم الى العالم ، والغربيون المحدثون يلغون من العالم تلك القيم قصد خلق قيم جديدة))[3] ولئن اعتقد (نيتشه) ان قيمة القيم الجديدة تتمثل في ارادة القوة المفضية الى الانسان الكامل ، فان سارتر جعل من الحرية قيمة مطلقة . وقيمة أساسية لكل القيم (فالحرية هي الاساس الوحيد للقيم ، ولا يوجد مطلقا ما يبرر قبولي لهذا السلم للقيم))[4] .

ومن ثمة يدعو سارتر الى حرية الاختيار والى الاخلاق الحرة ، ((على كل انسان ان يصنع قيمه الخاصة لانه لا وجود لاية أخلاق شاملة)) .

---

1 — المصدر نفسه . ص89 .

2 — سارتر . الوجودية مذهب انساني . ترجمة ،كمال الحاج . ص85 .

3 — هيديجر ، كتاب نيتشه ، (بالالمانية) ص 87 .

4 — سارتر بين الفلسفة والادب ،ترجمة مجاهد . ص50 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو مما تقدم أن موقف سارتر يتمثل في الرفض المطلق والمعارضة الى حد الازعاج كل النظريات الآتية : ((الأخلاق العلمانية ، والطبيعة الانسانية العامة) ، و(فكرة وجود اله خالق)) و(أسبقية الماهية على الوجود) و(القيم) وغير ذلك مما جعل بعضهم ينعتونه بالرجل المزعج والمتطرف ((سارتر يحب المزعج)) .

وفيما يتعلق بموضوع الأخلاق ، فانه يعارض بشدة نظرية : ((الأخلاق العلمانية لانها ليست وليدة التجربة بل انها اخلاق ذات صفة جبرية ، ((فانه حوالي 1880 حاول بعض الأساتذة الفرنسيين انشاء فلسفة علمانية أو أخلاق علمانية على هذا الأساس : ((ان فكرة الاله هي افتراض لا طائل تحته وهو الى ذلك يكلف غالبا . ولكنه يجب عوضا عن ذلك التمسك ببعض القيم وذلك بغية المحافظة على الأخلاق والمجتمع والمدنية . وتلك القيم ليست وليدة التجارب بل انها ذات صفة جبرية))[1] ووجودية سارتر جاءت لتفنيد هذه الأخلاق العلمانية التي تنفي فكرة الله بسهولة زائدة .

ولئن انكر سارتر فكرة الاله ، ورفض كل القيم ، فانه يضع الانسان أمام نظرة أخلاقية عملية انضوائية — ملتزمة — وهذه الأخلاق الحية التي ينادي بها سارتر تناقض كذلك الأخلاق المجردة عند ((كانط)) حيث يقول : ((ونحن نتفق مع كانط ولكنه يعتبر أن أخلاقا مجردة وشكلية محضة تستطيع أن تكون نواة أخلاق شاملة وعامة))[2] واعتمد سارتر الالحاد مبدأ لكي يتوصل الى بعض النتائج التي هدف اليها ، (الوجودية ليست الا جهد الاعتماد الالحاد مبدأ ننطلق منه لنخلص الى جميع النتائج الممكنة))[3]

---

1 — سارتر . الوجودية مذهب انساني . ترجمة ، كمال الحاج . ص 52

2 — المصدر نفسه . ص 84 .

3 — المصدر نفسه . ص 89 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولئن كانت تلك صورة غير كاملة عن فلسفة سارتر ، فماذا اذن عن أدبـــه؟

ســارتــر الأديـــب

بالرغم من أن سارتر يعتبر قبل كل شيء فيلسوفا ينطلق من رؤية فلسفيـة وثقافة فلسفية متخصصة ، فان الباحث في الفكر السارتري لا بد أن يتطرق الـــى أعماله الأدبية المسرحية منها والقصصية ، لأن مؤلفات سارتر الأدبية خير مـــا يكشف لنا عن أفكاره الفلسفية حية نابضة ، وذلك يعود الى حبه للأدب وتمسكـــه به في رؤية مأساوية أصيلة ، ((أتمسك أنا - سيمون دي بوفوار - بالحياة في حضورها المباشر أولا بينما يتمسك سارتر بالأدب أولا والحياة ثانيا))[1].

ومادام سارتر يحب الأدب أولا والحياة ثانيا فما هي وظيفة الأدب ورسالته في نظره ؟

الواقع أن سارتر يرى أن الأدب لا يعدو أن يكون كشفا للعالم بغية تغييره، وتكون الكلمة بمثابة سلاح في يد الأديب الذي ينبغي عليه اذا أراد أن يكون أديبا حقا وملتزما ، عليه أن تكون كلمته هادفة ، أن تكون رسالة ، ومن هذا المنظـــور يحدد سارتر وظيفة الأدب بأنه لا يكون الا وظيفة اجتماعية ، ((ان الأدب قـد عاد على الأقل بالنسبة الينا ، ما كان يجب ألا ينقطع عن أن يكونه ، وظيفـــة اجتماعية))[2].

وينظر سارتر الى الظاهرة الأدبيـة وتطورها من زاوية رؤيته الفلسفية الخاصة، وحسبها ، فان الانسان يسعى ليحدد خصائصه بحرية كاملة بعد وجوده . فاذا كان الانسان يسعى الى أن يتحرر ، فان الأدب ينبغي أن يعينه على هذا التحرر .

---

1 - سارتر بين الفلسفة والأدب . ترجمة مجاهد ، ص13.

2 - سارتر ، ما هو الأدب (بالفرنسية) . ص106.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((والانسان تاريخيا دائم السعي نحو التحرر)) .

ويعرض سارتر في كتابه القيم ، ما هو الأدب ، مراحل التطور الأدبي في العصور الحديثة خاصة ، ويصل الى نتائج قيمة منها : أن الأدب تطور في القرن الثامن عشر الى العالمية ، ((الطبيعة ، الانسانية)) ، وتطور في القرنين التاسع عشر والعشرين من العالمية الى الدفاع عن طبقة معينة (البورجوازية) ، مؤكدا على أن الأدب يجب أن يتطور حتى يستطيع أن يلبي جميع مطالب الناس ويستجيب لرغباتهم . وان هذا الأدب الذي يتجه الى كافة الناس لا سبيل الى تحقيقه وازدهاره الا في مجتمع لا طبقي ((مجتمع اشتراكي)) .

ونظرية سارتر هذه تلتقي مع نظرية الماركسيين في هذه النقطة بالذات ،وهي وجود أدب حقيقي في مجتمع اشتراكي .

وكذلك يبحث سارتر في كتابه السالف الذكر صلات الأدب بالسياسة وبالمسيحية، وهو يرى فيما يتعلق بعلاقة المسيحية بالأدب ، أن الديانة المسيحية عرقلت تطور الأدب وجمدته في مضمونه وشكله .

هذا وقد أولى سارتر في كتابه القيم ، ما هو الأدب ،عناية بالغة لشخصية الأديب ، وذلك عندما يتساءل : لماذا يكتب الأديب ؟ ولماذا تظهر كل يوم أعمال أدبية ؟ ويجيب عن تلك التساؤلات بقوله : ((انما يفعل الأديب ذلك للتأكيد على المسألة الهامة وهي القيمة الذاتية للكاتب)) ، ((من أسباب الخلق الفني حاجتنا المتمثلة في ادراك ان لنا وجودا أساسيا بالنسبة للعالم)) .[1] ومن هنا يقرر سارتر أن للعمل الفني خاصيتين : أولاهما التأكيد على الذات الفردية للفنان. وثانيهما : دافع حب تغيير الآخرين ، عن طريق ربط الأديب الآخرين بنفسه ربطاً وجدانيا .

---

1 ـ المصدر نفسه . ص . 107.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الأخير فان فكرة الالتزام التي حظيت باهتمام متميز ،وشاعت شيوعا منقطع النظير وربما أثارت جدالا حادا في الأدب العربي • بينما هي في الفكر الأوروبي فكرة عادية ، لم يحتدم حولها الجدال ولا كثرت فيها التأويلات •

وعند سارتر فان الالتزام يراد به أن الاتصال يجب أن يكون وثيقا بين الأديب وبين قضايا . . . مجتمعه • غير أن سارتر يستثني الشعر من مجال الانضواء، لأن مفهوم الشعر في نظره أمر ذاتي • ذلك أن الشاعر ينظر الى الأشياء الخارجية نظرة خاصة •

ويبدو أن سارتر قد خالفه الصواب في هذا الحكم ، ذلك أن الشعر كثيرا ما كان ملتزما باعتباره عملا أدبيا أثبت عن جدارة خدمته للتاريخ والانسانية عن طريق التصوير والتأثير والتغيير • وجملة القول ان الوجودية السارترية تركز بكثافة وشدة منقطعة النظير على وحدة الانسان وحريته وحرية اختياراته مسؤوليته الكاملة ، لأن الانسان يواجه مصيره وحده ، ولأنه لا يوجد في العالم الا الرجال •

وقد استطاع سارتر بمهارة فائقة أن يذيع هذه الآراء والمواقف وحتى هذه الألفاظ نفسها على قاعدة عريضة من القراء في العالم كله •

وسارتر كغيره من عظماء الفكر الانساني له جوانب مظلمة وأخرى مشرقة • ولعل أظهر ما يؤاخذ عليه سارتر هو ، تجريده الانسان من عوامل البيئة الاجتماعية والطبيعية ، ليجعله مسؤولا بصورة كاملة عن مصيره مختار السبيل حياته • ومهما حاول الدارس ابراز سلبيات هذا الانسان ، فان تأثيره البالغ على التراث البشري كان بعيد المدى لا سيما في مجال الفلسفة واللغة والأدب •

ولئن كانت تلك هي الوجودية الملحدة ،ورائدها ومعلمها ، فما هو الاتجاه التوفيقي ؟•

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاتجـاه التـوفيـقـي

ذكرنا في الحديث عن منطلق الوجودية ، انها تنطلق من . الذاتية، وان فلسفات الوجود كلها تؤكد على أن الوجود سابق للماهية ، وهذا يعني انها ارتداد على فلسفة الجوهر القديمة ، الفلسفة القديمة كانت تنطلق من جوهر ثابت. والجوهر قيمة عامة لا تخص أحدا بذاته . وفلسفة الجوهر تتضمن غياب الشخص أو الوجود ، وغياب الالم .((غياب الشخص ، أو الوجود الشخصاني . أمر طبيعـي في الجوهرية ، التي تقوم بتجريد الشيء من طوابعه الفردية ، العينية ، ليقع هكذا تحت عنوان الشامل . ذلك هو الجنس أو النوع))(1).

وهكذا يصبح الجوهر كالفضاء الذي لا وجودات فيه ، أو كالليل الحالـك الذي يضم كل الوجودات فتذوب . في الجوهر تنسطح النتوءات (2) ومن أولـى نتائج الجوهرية ، وأقواها بلا ريب ، ان الالم غائبا تماما . لا صراع ولا تمـزق. لا دموع ولا تحرق . وبالتالي لا نضال ولا مقاومة . اذن لا مسؤولية (3).

والوجودية ضد افناء الشخص هادفة الى الحرية ، والديمقراطية ولهذا كانت تنطلق من الذاتية الفردية واعتبارها الحقيقة المطلقة أو حقيقة الحقائق ((الذاتية هي الحقيقة)).

وتعريف سارتر للوجودية ((الوجود سابق الماهية)) لايترك مجال للشك في أن الفلسفة المعاصرة لا ترفض فقط فكرة الماهية أو الجوهر بل ترى ذلك يمثل فكرة سخيفة .

---

1 ـ سارتر . الوجودية مذهب انساني ،ترجمة كمال الحاج . ص 9.

2 ـ 3 ـ المصدر نفسـه . ص 10.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حاول بعض المفكرين أن يحدثوا نوعا من التوفيق بين الجوهرية والوجودية القائمة على رفض الجوهر كفكرة مسبقة عن الوجود ، وبعبارة أوضح ، محاولة التوفيق بين القائلين بأولوية الوجود على الماهية . والقائلين بأسبقية الجوهر على الوجود . ويلاحظ الباحث هذه النزعة التوفيقية أنها تمتد الى الماضي السحيق ، تنزل الى القديس توماس الاكويني الذي يعتبره الباحثون أنه وجودي ولكنه لا يقلل من قيمة الماهية — الجوهر — بل يحتفظ لها بحقها منتصرا للعقل الانساني على ألا يحول ذلك دون القول بأولوية الوجود في حياتنا الانسانية . ((لماذا نستطيع أن نقول مع القديس أوغسطين : ((بأننا خيرون لأننا موجودون ؟ . ويجيب عن هذا التساؤل قائلا : ((لأن الخير والوجود متماثلان)) (1)

ان الخير والوجود متماثلان ويتناول كل واحد منهما الآخر تناولا متبادلا ، ومع هذا فأولوهما الوجود لأن الوجود هو الموضوع للفهم ، ولاننا لا نستطيع أن نتصور خيرا الا اذا ما تصورنا ه موجودا قبل ذلك . ولهذا يجيب توماس بالسلب عن التساؤل التالي : ((هل الخير منطقيا سابقا على الوجود ؟)) (2) .

وقد اتبعه في منهجه الفلسفي هذا ، مفكرون معاصرون ، وضعوا صيغة جديدة تمزج بين التفكير التجريدي — الجوهري — والنظرية الوجودية المعاصرة .

ومن بين أولئك المفكرين ، نذكر ((فورست)) و((لاقيل)) الذي تقوم فلسفته على فكرة المشاركة ويرى في القيمة سر الوجود ودليل السلوك ، ((ان الكينونة لا معنى لها الا اذا كانت حاملة للقيمة ، والقيمة لا تكون لها فعالية الا بشرط

---

1 — الدكتور الربيع . نظرية القيم في الفكر المعاصر . ط الجزائر . ص 40 .

2 — المصدر نفسه . ص 41 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تعبر الكينونة عنها وأن تحققها . وهناك قيمة أوحد يتماثل فيه المفهومـــان))[1].
والجدير بالملاحظة أن تجربة الكينونة اذا كانت كافية تختلط مع تجربة القيمة لأن الكينونة تمنحها ما هو أكثر جوهرية فيها بواسطة علاقتها بما هو جوهري فينا .

ويلخص الدكتور الربيع علاقة الوجود بالقيمة — والعكس صحيح — في نظريات ثلاث هـــي :

1 — القيمة هي الوجود على نحو من الانحاء وأن الوجود هو الموضوع الأول بالنسبة الى الفهم في الفلسفة المدرسية .

2 — القيمة هي الاولى وأن لا معنى للوجود بدونها عند ((لوسين)) .

3 — الوجود هو الاول وأن لا معنى للقيمة الا به عند ((فورست)) و(لافيل)) .

((هيهات أن تنير فكرة القيمة فكرة الوجود بنور يعادله اذ أنها لا تعرف ذاتهـــا مطلقا . فالقيمة ليست سوى خاصية للوجود (...) واذا كان هذا هو الأمر فـــان التجربة التي تكون عن الوجود ، تصير عندما تتعمق ، تجربة للقيمة نفسها))[2].

ونذكر في هذا الصدد ، النقد الذي وجهه الفيلسوف الوجودي المعاصـــر ((مارتن هيديجر)) الى سارتر ، والذي ينصب خاصة على تعريف سارتر للوجودية القائل بأن الوجود يسبق الماهية .

ويذهب هيديجر الى أن سارتر لا يختلف في هذا المعنى عن الفلاسفـــة الاتباعيين ، الذين فصلوا بين الجوهر والوجود . و يرى أنه لايجب أن نفصل الوجود عن الماهية .((ان وجود الانسان يتمثل في جوهره))[3].

ويرى بعض الدارسين أن هيديجر يبني فلسفته على المنهج ((التوماثـــي)) . الذي تقدم ذكره .

---

1 — المصدر نفســه . ص . 299 .

2 — المصدر السابق . ص 41 ، .

3 — فلسفات الوجود . جان فال . ص 28 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما تعددت الفلسفات الوجودية ، وتعدد فلاسفتها ، وتنوعت اتجاهاتها فان معظم الوجوديين يتفقون على أن الوجود يسبق الجوهر • وقليل منهم يمزجون بين المفهومين في تجربة وجودية عميقة • ولئن كان ذلك ضوء خافت على الوجودية ، فما موقف الدارسين من هذه الفلسفة ؟

الوجودية بين التجريح والاطراء

من المسلمات العامة ، الاختلاف في الرأي أمر فطري في البشر • فلا غرابة اذن ان وجدنا المهتمين بهذه المسألة منشطرين بين مؤيد ومدافع من ناحية ، وبين رافض ومجرح من ناحية ثانية •

ولعل أشد الانتقادات التي وجهت الى الوجودية تلك التي ينضمر أصحابها خلفية عقائدية سواء كانت دينية أو فلسفية أو سياسية • ومن هذه التجريحات شيوع بعض المفاهيم الزائفة عن الوجودية ومفادها أن الوجودية عبارة عن مذهب يديـــن ويؤمن به أناس متحللون اباحيون هدامون عديمو المسؤولية ولا يعترفون بالقيم والاخلاق والتقاليد والشرائع والأديان • ولعل هذه الحكاية الطريفة تؤكد لنا مقدار الاثـــر الذي أحدثته هذه الدعايات في تزييف الوجودية كفلسفة انسانية رائعة • (سأل أحد الطلبة أستاذا كان قد أكمل تحصيله العالي في احدى الجامعات الفرنسية المشهورة عن ماهية الوجودية ؟ فأجابه الدكتور بلهجة الواثق من معرفته انها فلسفة نرويد الجنسية في مرحلة التطبيق) •

وأشد الانتقادات الموجهة للوجودية كانت نتيجة للحملات التي قادها المعارضون المتحيزون كالمحافظين والمثاليين والماركسيين واللاهوتيين وغيرهم • وأشد أولئـــك امعانا في التجريح هم الماركسيون • ومن يتصفح كتبهم في نقد الوجودية يجـــد أنها تعج بنعوت لا تدل الا على نواياهم ومقاصدهم وأنهم ضد كل الفلسفـــات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قديمها وحديثها)· ومن كتبهم نذكر الكتب الآتية :

1 ــ كتاب : ((الوجودية فلسفة لا انسانية)) تأليف كتاي ·

2 ــ كتاب : ((الوجودية فاشستية)) تأليف أنار لندي ·

3ــ كتاب : ((الوجودية فلسفة استعمارية)) تأليف روجيه غارودي ·

ان هذه الأقوال وغيرها من الكلمات لا تنم في الحقيقة الا عن خوف أصحابها وهلعهم الشديد من انتشار هذه الفلسفة التي تقدس الانسان وتعظمه وتؤكد على الحقائق المنبثقة عن الذات الانسانية فقط · ولا تعترف بالحتميات التي تجعل من الانسان عنصرا سلبيا يدور في أفلاك مصممة ومقدرة سلفا لا يعرف الى أين سيؤول مصيره كوجود انساني ·((ان الوجودية رد فعل عنيف ضد كل ما هو لا انساني)) · وأنها ضد كل استعمار وديكتاتورية · ولعل أدق تعبير عن حقيقة الوجودية هو ما ذهبت اليه الفيلسوفة المعاصرة (غرين) من أن الوجودية ((هي جهد لا ادراك الطبيعة الانسانية في حدود انسانية دون اللجوء الى ما هو فوق الانسانية أو الى ما يمكن أن ندعوه بما تحت الانسانية)) · ومن التعابير الصادقة قولة ((ألبيركامو)) : ((مهما يقولون عن الوجودية لا ينفي من كونها فلسفة الانسان والحقيقة والحياة)) · ويذهب سارتر الى أنها أقل النظريات اتصالا بالفضيحة وتقربا الى الشر ، وهي أكثر النظريات جدية وصرامة ·

ولئن كان ذلك عبارة عن نظرة اجمالية عن الوجودية ومواقف الدارسين نحوها ، فما مواقف الدارسين العرب ؟

الوجودية من وجهة نظر عربية

الواقع ان الدارسين العرب لهذه المسألة يختلفون في نظرتهم للوجودية باختلاف الخلفية الفكرية والمذهبية التي ينطلقون منها · ويمكن أن نصنف الباحثين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العرب في هذه الفلسفة الوجودية الى فئات ثلاثة ·

1 — زمرة أولى هي زمرة أساتذة الفلسفة الذين ادركوا في الا يمان قيمة الوجودية كفلسفة تنوير ، فدعوا اليها وتبنوها في انتاجهم ووجدوا فيها صلة متينة بالتصوف الاسلامي وفلسفة الاشراق · ويتزعم هذه الفيئة من الأساتذة ، بدوي عبد الرحمن · وكمال الحاج · الخ ويضاف الى هؤلاء الأساتذة بعض الأدباء الذين كانت أعمالهم الابداعية مستمدة من الوجودية ومتأثرة بها الى مدى بعيد ، وعلى رأس أولئك نذكر الأستاذ محمود المسعدي ونجيب محفوظ في بعض أعماله الابداعية · والاثنان الأخيران قد نالا في عام 1984 م جوائز تقديرية من منظمة العلوم والثقافة في جامعة الدول العربية · ولئن ألف نجيب محفوظ كثيرا من قصصه وروايات في رؤية غير متفلسفة ،فان المسعدي لم يكتب الا في صميم الرؤية الوجودية · وهذا يحمل على الاعتقاد أن الجوائز اسندت اليهما تقديرا لأعمالهم الابداعية ذات الطابع الفلسفي بصفة عامة وذات رؤية وجودية بصفة أخص ·

2 — زمرة المعارضين لهذه الفلسفة والرافضين لها انطلاقا من موقف عقائدي ربما متطرف ، فهم ان فكروا في الوجودية وتحدثوا عنها ، بدت لهم في زي ملحد مقيت ، واباحية مفضوحة ، وثورة على الدين والأخلاق والتقاليد · وهذا الموقف في ذاته ، بنصرف النظر عن سلبيات الوجودية ، مرفوض ويجب أن يكون مدعاة لاثارة سخطهم وبالتالي فهو معرض للنقد والانتقاد ·

3 — أما الزمرة الثالثة والأخيرة فهي تجسد مواقف متحررة ويمثلها مفكرون متحررون وموضوعيون ، ومن بين أولئك نذكر عباس محمود العقاد الذي كان ولعا بالبحث والدراسة في مختلف الثقافات ، وقد تناول الوجودية بالبحث في مقالين أحداهما خصصه للجانب السليم للوجودية ، والثاني للجانب المريض منها ·

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويفهم الوجودية على أنها ((فلسفة حياة — وليست مجرد بدعة في الكتابة والتصوير. فهي شديدة المساس بالأخلاق والقيم الانسانية على اختلافها ، وهي قابلة — ومن ثم — لأن يفسرها بعضهم تفسيرا يهدم كل ما بناه النوع الانساني في تاريخه الطويل من المأثورات الصالحة والمثل العليا فقد سميت حقا من جراء هذه التفسيرات بفلسفة العدم)) (1)

وما يهم في هذا المقال هو الناحية الايجابية في نظر العقاد وفي نظر كل مفكر . ((الا أنهم جميعا يثورون على طغيان الجماعة ويقدسون ضمير الفرد في مسائل الاعتقاد والتفكير ، سواء تمثل هذا الطغيان في صورة السلطة الدينية أو السلطة الفكرية أو أية سلطة من السلطات تحاول أن تطبع الضمائر بطابع واحد لا محل فيه لحرية التصرف وتفاوت الآحد في الحس والوجدان ، فاذا تكلم كيركجرد مثلا عن حرية الفرد فهو يعني حريته في وجه السلطة التي يفرضها عليه رجال الدين كما يعني حريته في وجه السلطة التي يفرضها عليه دعاة ((التمذهب)) بالمذاهب الفلسفية)) (2). ولا ((شك عندنا في سلامة النشأة التي نشأت منها ((الوجودية)) بهذا المعنى كائنا ما كان حظها من الصواب في تعريفات المنطق والفلسفة . فهي ولا شك نتيجة طبيعية للأحوال التاريخية التي نشأت فيها . وتلك الأحوال هي التي اقترنت بظهور الديمقراطية الحديثة ، وأوشكت أن تمحو الفرد في غمار الجماهير... وتضاعف الخطر على وجود الفرد بعد ظهور الشيوعية والفاشية والنازية وما اليها من المذاهب التي تلغي حق الفرد في جانب حق الجماعة أو حق الدولة ،فوجب التوازن بين هذه الأحوال وبين القيم الانسانية التي تتعلق بالحرية الفردية والكرامة الشخصية المستقلة ، وكانت الوجودية في نشأتها الأولى هي النتيجة الطبيعية لتلك التي تمخضت عنها أطوار التاريخ)) (3).

---

1 — عباس محمود العقاد . بين الكتب والناس . ط 1 . بيروت . ص 16 .
2 — المصدر نفسه . ص . 17 .
3 — المصدر نفسه . ص 21 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخلص العقاد الى الجانب السلبي من الوجودية ويراه في النتائج والتطبيق وليس في أصل المبدأ . ويحصر هذه السلبيات في الخلط بين وجود الفرد وغاية الوجود كله ، وفي فكرة عبث الوجود ، وانكارهم الطبيعة البشرية العامة . ويرى أن هذه السلبيات تخص في الغالب مذهب سارتر وأصحابه من فلاسفة فرنسيين ،((لكن ((الوجودية)) ظهرت في بلاد كثيرة ولم تنحرف هذا الانحراف في غير البيئة الفرنسية وفي غير المدرسة التي تأتم بجان بول سارتر من تلك البيئة)) .(1)

ويستدرك العقاد أن الوجودية الفرنسية شكلان : وجودية اباحية ووجودية أخلاقية .

ويحصر أسباب اباحية الوجودية في فرنسا بقوله :((أما الأسباب التي تتعلق بفرنسا فهي الولع ((بالزي الموسمي)) — الموضة — الذي يتخذ صورة النحلة الاجتماعية .. وأما الأسباب التي تتعلق بسارتر فهي اختلال تكوينه واتصال نسبه بالصهيونية)) .(2)

ويؤكد العقاد على الروح اليهودية الكامنة في سارتر ، والتي تستخف بالقيم الأخلاقية ، ويورد أسماء يهودية لا معة للتدليل على ذلك مثل ماركس ودوركايم وغيرهما .

ولئن سلمنا للعقاد بالسبب الأول في اباحية الوجودية الفرنسية ، فان السبب الثاني يظل قابلا للنقاش خاصة أن سارتر ليس الوجودي الوحيد في فرنسا يمثل النزعة الاباحية بل هناك عدد أخر من الوجود يين الأباحيين مثله : كامو — سيمون دي بوفوار وغيرهما . وتأكيد ه على الروح الصهيونية في شخصية سارتر يوحي بخلفية

---

1 — المصدر السابق . ص 28 .

2 — المصدر نفسه . ص . 31 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العقاد في هذا التقييم ، وهي خلفية عقائدية : قومية عربية تقابلها قومية صهيونية. وهذه الخلفية تجعل التعليل غير مقنع .

ونذكر موقفا عربيا آخر أكثر تحررا وأعمق انسانية وألصق بالموضوعية هو موقف المفكر محمد مزالي ويجد الباحث هذا الموقف في مقال قصير ولكنه مركز بعنوان: ((جبهة الخير)) في كتاب ((مواقف)) . من تأليف محمد مزالي ، يذكر فيه موقف الفيلسوف الالماني ((كارل ياسبرز)) ويتمثل في تبيان خطر الأسلحة النووية على الانسانية قاطبة ، ودعوته الى عدم استعمالها والكف عن صنعها .

ويذكر أيضا بأحد مواقف سارتر النضالية ، وهو تنديده بالأساليب الوحشية للسلط الاستعمارية بالجزائر .

((شيخان من أكبر شيوخ الوجودية يؤكد ان اليوم مرة أخرى أن الدفاع عن الانسان انما يتجلى في مواقف مشخصة وواضحة ، ويتمثل في تبني قضايا مضبوطة وخدمتها قولا وعملا والتعرض الى جميع العواقب في سبيلها ، ويبرهنان على أن خدمة الانسان واجبة مهما كان لون الانسان ودينه وجنسه أو جنسيته)) (1).

ويبدو أن الكاتب قد أخذ في نفسه موقف بعض الأدباء والمفكرين الناشئين من العرب ازاء الوجودية ، وأنهم يعتبرونها شرا كلها ينبغي مقاومتها ، ((ومع ذلك فقد سمعت في مؤتمر أدباء العرب الذي انعقد بالقاهرة منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر بعض الأدباء الناشئين يؤكدون أن الوجودية شر كلها ويعلنون عن عزمهم على مقاومتها ودرء خطرها على الشباب العربي التائق الى العلا)) (2) وبعد أن يناقش الكاتب بعض تلك المواقف العربية ذات النظرة المتحيزة ، والأفق الضيق ، يخلص الى : ((أن ماذكرناه من مواقف ((ياسبرس)) و((سارتر)) وما نعرفه عن ((موریاك)) وغيره من كبار المفكرين في الدنيا قاطبة يدل على أن كفاح البشر

---

1 ــ محمد مزالي . كتاب : مواقف . ط 2 ، تونس . ص 290 .

2 ــ المصدر نفسه . ص . 291 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أجل غد أسعد وعالم أفضل انما هو في حقيقة الأمر كفاح جميع العناصر الفاضلة المتشجعة المنتمية الى جميع الأديان والمذاهب من أجل المثل العليا .(1)

ويختتم الكاتب مقاله بنظرة انسانية عالية ، متجاوزة لكل الخلفيات والاعتبارات بقوله ((هي جبهة الخير في كل مكان تجند القوى لتقهر الشر في كل مكان وتقرب تلك الساعة التي يتذكر فيها الناس أنهم أخوة .(2).

1 ـ المصدر نفسه . ص : 292 .
2 ـ المصدر نفسه . ص: 292.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصـــــل الثالـــث -

الوجـوديـة فـي روايـــات المسعـــدي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوجودية في روايات المسعدي

منذ القديم تركز الانتباه في أن الانسان هو معيار التقويم ، مقياس كل شيء وأن طبيعته هي سرما يصيبه من قدر . ومنذ القديم اختلف الناس في النظرة الى الانسان ، فلئن اعتبر لدى فئة أداة للقوة الالهية الكامنة في الخلق ، وتبعا لذلك قضي أن تكون أعماله كلها في شكل طقوس وعبادة ونحوهما ، فان فئة أخرى نظرت الى الانسان في ذاته وصراعاته ونزعاته . ان هذا الفارق في النظرة الى الانسان لا يمنع من اعتبارهما أساسا لنشأة الفن . فالفن كانت نشأته أساسا عبادة أو تحد للموت .

ولقد جد الانسان عبر العصور لإرضاء غريزة متأصلة فيه ، تحثه دوما على أن يكافح ما أوتي من قوة ومهارة رحى الزمن الطاحنة ، التي لا تتوقف ولا تتوانى لحظة واحدة ، وأن يقاوم مفعولها ويحد من أثرها عليه ، وأن يقاوم كذلك تلك التغيرات المستمرة التي لا يفلت من أثرها السلبي أي مخلوق على وجه المعمورة ، مادام على قيد الحياة ، وحتى بعد موته . وذلك هو أصل الفن . فالفنون في أصلها وجوهرها ثورة ضد انعدام الذات أو الشخصية ضد الموت ، ضد الفناء ومن ثم أصبح الفن وسيلة معرفية كالعلم ، وطريقة من طرائق أخرى مؤدية الى الكشف عن الحقيقة وأدراكها ، وفي هذا السياق يندرج أدب المسعدي ، ذلك النوع من الادب الجاد ، المعبر والمأساوي في ان واحد وحين أشرنا الى أدب المسعدي فلاشك أننا نقصد هذا النوع الذي يتأمل الام الانسان ويتأثر بها ، ويتحسر على ما أصابه ، ذلك هو المعنى المأساوي للادب بصفة عامة ولادب المسعدي بصفة خاصة : (الادب مأساة أو لا يكون) ، كما يقول المسعدي .

وهنا تجدر الاشارة بادئ ذي بدء الى الشكل الفني الذي يعبر به

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاتب عن أفكاره ومشاعره ،أن المسعدي أديب متفلسف، وأدبه فلسفة . وهو لئن اتفق مع الفلاسفة في كثير من الافكار والاراء فانه يختلف عنهم في المنهج ذلك أن الفيلسوف يقوم ببسط نظريته بسطا منهجيا مدعما بالادلة والحجج فهو يقوم بمعالجة جملة من الاراء والمسائل على أساس التصورات العقلية وفق بناء النسق الاستنباطي الذي يهبط فيه الاستدلال من المبدأ الى النتائج . أما المسعدي فهو ينتمي الى فئة تتجه بأهتماماتها نحو الحياة الانسانية المتعينة ،المتجسدة في أفراد الناس جاعلين مجرى التجربة الداخلية أساس مدار بحثهم ،ولهذا فان مجرى أو شكل تجربة المسعدي الوجودية هي القصة ، (وكل شيء قصة) (1)

والتعريج الخاطف ،أو الايحاء الشعري . وجملة هذه الطرق تحدد موقفه من العالم ،وتوضح نظريته المتكاملة التي قوامها أعمال ابداعية قليلة ومقالات نظرية محدودة بدونها لا يمكن ولا يتنسى للباحث أن يبين جوانب نظرية الكاتب في شيء من الدقة والوضوح . فما هي تجربة الكاتب الوجودية ؟

ينطلق المؤلف في تجربته الوجودية من تصوره الخاص لمفهوم الادب وطبيعته . وهذا التصور منصب على قضايا الانسان الفرد . فالادب عنده هو ((العبارة الشاملة عن الانسان)) (2) . ويعتبر هذا التصور لمفهوم الادب وطبيعته شيئا جديدا لم يعرفه أدبنا العربي الا في نهضته الحديثة .

وقد اكتسب الأدب جدته هذه لدى المسعدي من الرؤية الوجودية لما يسميه بالشؤون الجوهرية ،ومن ثم فلم يعد الأدب بنظره يتجه الى

---

1) تأصيل الكيان . المسعدي . ط 1 ،تونس بدون ص : 64 .
2) المصدر السابق . ص : 64 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدح ،أو الهجاء ،ولم يعد ينصرف الى التسلية والمتعة العاجلة . بل أصبح سبيل أو وسيلة للتربية والتكوين كي يحقق الانسان انسانيته على أجمل صورة وأبدع تكوين ،وأحسن تقويم . ولهذا ينحصر معنى الأدب عنده في أنه : ((العبارة الجامعة المعبرة عن جماع انسانية الانسان ،بفكره وعقله وعاطفته ،واحساسه ، وخياله ،وتصوراته ،أي عن كيانه ،وعن رؤيته بصفة عامة ،رؤيته الفكرية ، والحسية)) (1) .

وليس الأدب رسالة تربوية وتثقيفية للفرد فحسب ،انما هو وظيفة تربوية حضارية للمجموعة البشرية كذلك، فكل أمة ينبغي أن يكون لها أدب تفرزه من روحها وصميمها لتعبر به عن وجودها المتميز وكيانها الخاص وذاتيتها الأصيلة ،فاذا لم يكن لها أدب من هذا النوع فهي في عداد الاموات كما يقول السمدي : ((ان أمة/ميتة من قبل أن تولد)) . وذلك لأن وظيفة الأدب ـ الأدب المتفلسف والملتزم على الأقل ـ تمحيص لمعنى الحياة ولمعنى الوجود البشري ،ولماهية المنزلة البشرية حين تفضي الي خلق الصفات المميزة للذات أو خلق الشخصية والى اعطاء الذات قدرة السمو فوق غيرها ، والى اكساب الذات البشرية طاقة الصيرورة المتواصلة والتحول الدائم والتجاوز المستمر)) (2) .

ان هذا التصور لمعنى الأدب وطبيعته ووظيفته يندرج في جنس الآداب ذات الطابع الوجودي التي تركز على موقف المفكر ازاء العالم . وازاء وجوده هو كذات غير معطاة ،ومكانته ، والتي تؤكد على التحول الفعال للوجودي والتجاوز المستمر لذاته .

---

1) 2) تأصيلا لكيان . السمدي . ط 1 ، تونس . ص : 64 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان المسعدي مصر على التمسك بانه وجودي . ولما كان المسعدي وجوديا ، فقد أهتم - شأنه شأن الوجوديين المحدثين - بالتأليف والكتابة ،لأن الكاتب حين يكتب انما يفعل ذلك ليحيا وجوده ويؤكده لانه كما يقول ((سارتر)) ((أنه يوجد دائما شيء يعمل)) . وكان أول شكل فني اختاره هو الرواية ((القصة)) لانه من المعروف أن الرواية الوجودية لها جاذبية خاصة باعتبار أنها تسمح للكاتب أن يثير التدفق الأصيل للوجود . والمسعدي يمضي الى أن كل شيء عنده قصة .

ويبدو أن المسعدي وصل الى أعمق معرفة يمكن أن تكون لدى الانسان عن نفسه ،هي معرفته حدود حريته ،وقدرته على مواجهة العذاب والموت ، ((أنا الانسان ،مادام الجد ،مادام الجهد ،ما أشتد العزم ،وليد النفس وليد النار ،لا أبالي . سواء عندي مآلي الى النعيم ،الى الجحيم ، الى العذاب ،الى الثواب لا أبالي أنا الانسان)) . و ((قلت : وما أكمل العقل ؟ قال : معرفة الانسان لمقدرته)) (1) . ولئن كان التعذيب قديما فديه وتضحية ،فانه صار في عصرنا وسيلة معرفية وطريقة من طرائق الادراك المختلفة .

وتشكلت رؤية الكاتب للحياة ،وتعمقت هذه الرؤية الى مستوى رومانسي بطولي يعبر عنها الكاتب ويرددها كثيرا في عبارة قصيرة منحوتة نحتناها ، تليق أن تتخذ اشارة عاليه لفلسفته ،وتلك العبارة هي : ((نحت كيان)) أو ((تأصيلا لكيان)) (2) . وجعلها عنوانا لأحد كتبه التي تحتوي جملة من المقالات ،التي تبين معالم نظريته .

1- المسعدي . السد . ص : 24

2- تأصيلا لكيان . من المقدمة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكاتب يؤمن أن العالم يمكن أن يتغير الى الافضل لكن مثل هـذا التغيير يقتضي جهدا قويا وكفاحا مريرا ، وارادة لا تقهر . وذلك ما تجسمه أحداث رواية (السد) ،هذه الرواية التي كانت مبعث شهرة المؤلـف واذاعة صيته الى خارج حدود وطنه ،بعد نشرها كاملة قبيل الاستقلال، (1955) وأثير حولها نقاش أدبي مثمر وتعليقات مفيدة ودراسات عديدة.

والآن يتساءل المرء عن مدي تجسيم أثار الكاتب الادبية للنظريـة الوجودية ؟ يبدو لي أنه من المفيد ،قبل محاولة الاجابة عن هذا التساؤل أن نقدم ملخصا مجملا لمحتوى كل عمل من أعمال المؤلف الابداعية .

- السـد .

الواقع أن عالم مسرحية ((السد)) عالم غريب ،غرابة في المكان غرابة في الزمان ،وغرابة في نفوس الرواية . تبدأ الرواية كأنها رحلة خياليـة رمزية نحو الطبيعة . الزمان آخر النهار ((اخر عشي)) ،والمكان سفح جبل أخشب غليظ حزن ،نباته كالابر ،وأرضه ظمأى ،وغباره كثير ،وسماؤه صفراء .

يحل الزوجان (غيلان) و (ميمونة) بهذا المكان الصلب الخشـن حيث يقيم قوم خانعون جامدون قنعوا بحياة القحط والظمأ واليبس ،وقد اسلموا أمرهم الى الاهة تريدهم على الطاعة والعبادة والتطهر والنور والنار، وتشيع فيهم على لسان نبيها وهو اتفه المتعددة ان الماء أثم وسيئـة. فلم يخطر لهم ببال أن يقيموا سدا يحبس ماء العين البديعة التي تنفجر من جنب الجبل ،وتفور مياهها وحياتها في الهاوية بمنقطع الوادي . أراد غيلان أن يبني سدا يحبس ماء العين ومياه المطر والجبل ويحيي الارض ويخصبها ويكثر الزرع والثمر والخير والجمال متحديا بذلك الربه ونبيهـا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهواتفه والقوم ،الذين ركنوا الى الخنوع والجمود . ((هذه الارض المتجعدة المغبارة كالعجوز الفاجرة لاحبلنها ماء ،فاملأن بطنها فأخرجن حياة)) (1) .

ويعزم غيلان على انشاء سده ،وجعل الارض الجدبة خصبة ، ويحمل القوم على أن يغيروا أوضاعهم السيئة ،ويغريهم على الثورة ،ويدعوهم الى أن الماء ليس اثما وسيئة بل ثمرا وخيرا وحياة . وقد تصدت له الهواتف محذرة اياه من مغبة هذا التحدي ،وأوعزت اليه أن يرغب عن مشروعه حتى لا يثير سخط الربة . وتلت عليه توراة الالهة ((صاهباء)) المنذرة بالخراب والهلاك وينضم الى الهواتف حجرات ثلاث حكمت هي الاخرى على زيف الانسان وغروره وعناده ،ورأت أن الحياة والحكمة تقتضيان من الانسان أن يستسلم ،ولا يماند الربة أو الالهة . وأوحى النبي الى ميمونة زوجة غيلان رؤية مروعة كلها وعد ووعيد وانذار بالويل والثبور ،فحاولت بدورها صدّ زوجها عن عزمه، لكنه كان ثابتا صامدا ساخرا من الجميع ،متيقنا أن الايمان الصحيح هو ((الكفر بالنواميس والمراقيل وانكار العجز والاستسلام ونفي العدم)) (2) . وانه لا ايمان الا بالفعل والخلق والجهاد .

وأشعر نبيّ صاهباء غيلان بعجزه حين عطل نطقه ،وذلك عندما أثارت ميمونة غضبه برؤاها المفزعة ،فأراد أن يصيح في وجه الهواتف قصد اسكاتها، فحجز عن التصويت والنطق وحين استعاد قدرته على النطق احتدم غيظا وقال متحديا : ((ليس في الحدود والمراقيل حد واحد يعجز عن كسره العزم)) (3) .

---

1) مسرحية السد . للمسعدي . ط 2 ،تونس . ص : 37 .
2) المصدر نفسه .
3) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد واجهت غيلان في انجاز مشروعه مثبطات جمة منها سرقة الاتـــه وأدوات عمله وتمرد عماله خوفا من لعنة صاهباء ،وذهاب الطاعون بعـــدد كبير من عماله ،وانهيار جزء هام من البناء ،لكن أشدها على نفسه وطـــأة هو تثبيط ميمونة لعزائمه .

ولكن الطبيعة تهيج وتثور ،فالسماء تتلبد بالسحب ويدلهم الجـــو وتتعالى أصوات الهول والهلاك ،وتعصف الرياح ، وتهطل المطر الاعصار ويتحرك الجبل وينفجر ،وتمضي العاصفة بالسد ((يجتمع الماء والريـــح والبرق والجبل والرعد والظلمة والغيظ والنقمة ،فاذا السماء بسحابهـــا الأسود الثقيل وحل في فحم ،واذا الأرض والماء والريح عجين والرعـــد والبرق)) (1) . وفي حين يحل الدمار بسده نراه يصعد ومياري ربة الخيال والامل . وهكذا تذهب جهود غيلان سدى ،ويصيبه الفشل في الصميم وتصدق رؤية ميمونة وآيات انجيل صاهباء ونذير الهواتف ،ويظهر زيف غيلان وخياله وعجزهما عن مواجهة القوى الطبيعية والغيبية ،وتصدق كذلك تنبؤ الحجازه الناطقة ((يريدون أن يقهروا الالهة ويقتلوا العجز ولكنهم لن يجدوا الى خلق العاصفة وجها ولا الرعد والزلازل والبرق . لن يستطيعوا الى الخلق سبيلا)) (2) . ورغم تضافر القوى الغاشمة والمدمرة على جهود غيلان واحباط مشروعه ،ودعوته الى الاسلام والكف عن العناد الا أنه يسخر من ذلك كله ولا يقبل غير ايمانه بالعمل والخلق والانشاء كيفما كان الحـــال ومهما كانت العواقب ،لا يرده عن ذلك راد مهما عظم شأنه ،اذن فلسفـــة هذه القصة هو الانشاء والاحياء والتعمير في أصرار وتحد لكل العراقيل ،تلك هي روح الثورة الوجودية التي شعارها :" لا ايمان الا بالفعل والخلق ".

---

1) السد ، للمسعدي ، ط 2 / تونس ص : 37 .
2) المصدر السابق ، ص : 35 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مولد النسيان .

الواقع أن هذا الاثر الادبي ((مولد النسيان)) رغم أنه نشر في السبعينات لكنه يعود الى نفس الفترة التي ألف فيها السد وحدث أبو هريرة قال ، وهي فترة الاربعينات . ويتناول السعدي في هذه القصة قضية جديدة لم يكن لادبنا العربي عهد بها ، وهي قضية البعد الزماني في الثقافة والادب. ويطل هذه القصة ((مدين)) وهو من طينة غيلان وعجينته ، صلب الارادة ، ثابت الايمان . ولئن كانت فلسفة غيلان تتمثل في أنه لا ايمان الا بالفعل والخلق فان وجهة نظر مدين تتجسد في السعي الى الخلود لا الى الخلق . حل وزوجته ((ليلى)) بقوم راضين بوضعهم مسلمين أمرهم الى ساحرة ، تتولى علاج مرضاهم بالسحر ، وتؤيسهم من الشفاء اذا رأت في وجوههم علائم الموت ، ولم يفكر أحد منهم في القضاء على الموت الناتج عن انتشار الاوبئة ويرغبوا في الخلود اذ كانوا يعتبرونه ((من نقمة الالهة واليم والشقاء)) (1) . فجاء مدين وهو طبيب ، وأقام فيهم مارستانا ورغبهم في مقاومة الموت والاعراض عن التداوي بالسحر والاوهام ، ويظهر صدق عزيمته في كلام زوجته . التي كانت تشاركه في البداية ارادته : ((لقد كانت في نفسه حين جئنا هذا البلد شعلة الانبياء ، يريد محق الامراض وأحياء الموتى وأقمنا المارستان ونشرنا على الناس الدواء وقلنا : اسلامكم للعلة ضعف أيها الجبناء)) . (2)

وكان مدين يريد أن يمحق الاوبئة والامراض ويحقق الخلود ، وكان يرى في ذلك ضربا من الجهاد المقدس : ((فسرنا حتى نزلنا هذه البلاد وقلت:

---

1) مولد النسيان ، ص : 15 .

2) المصدر السابق . ص: 35 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذي بلاد الموت وهذا يوم الجهاد وأقسمت لتصلن الى تركيب دواء يجعل الحي كالجماد بل كالرخام لا يخشى عليه نفاد)) (1)

ولما كان الكاتب يؤمن بالاهمية المطلقة للجسد ،فهو اذن حريص كل الحرص على تخليده ولواقتضى الامر أن يحنطه مثل المومياء لدى الفراعنة وكأن المؤلف يريد أن يحيي هذا الحلم الانساني القديم المتجدد .

ولئن استطاع الانسان أن يكتشف عقارا يحنط به الجسم ويحفظه من التعفن والتلاشي فان الامر ليس سهلا خاصة اذا تعلق هذا الامر بخلود الروح ،والحركة ،والسكون ،والذكرى ، وهي من مكونات الزمن ، ويظهر أن مدين لا يؤمن بأن العلم يمكن أن يصل يوما ما الى تركيب دواء يحقق خلود الجسم والروح معا وينفي العدم . لذلك ترك مارستانه وتخلى عن مرضاه الذين طالما أرادهم على الكفر بقضاء رنجهاد الساحرة(*) . ((لا يا ليلى . انا لا نزال في الليل ... مادمنا نرقع ... مادام الطب والاطباء يرقصون الحياة)) (2) . ويبدو أنه اقتنع بقلة جدوى الطب والاطباء ولذلك انصرف كلية الى الساحرة وطفق يتعلم فنها . وينزل هذا التحول كلية من الايمان بنجاعة العلم الى السحر وجدواه ،كالصاعقة في نفس ليلى فتسأله عن سر هذا التحول (ماكره اليك الدواء ؟ وما ذهب بك عني ؟ من عالم الوجود الراضي الى الرفض والنفي) . وتبذل ليلى كل ما في وسعها كي يعرض زوجها عما يزمع القيام به ، ((أو لهذا أسلمت ؟ أله كفرت بنفسك وجحدت تطبيبك ، وتناسيت أنك صاحب المارستان طبيبه ... واستغشت ساحرة ؟ أو داخلك الخوف ؟ أم جاءت خشية الموت يا مدين(3))) . وقد أشفقت

---

1) مولد النسيان . ص : 62 .
2، 3) المصدر السابق .ص: 41 .
*) لسبب بسيط هو موت أحد المرضى في مارستانه ،فكان هذا الحدث يمثل خيبة أمل في ما علق على العلم من آمال فصار هذا العلم بنظره عملية ترقيع الحياة بينما يريدها هو كاملة لا نقص فيها ولا ترقيع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى
ليلى نفسها / القوم أن ينقلبوا الى أوضاعهم السيئة ، وتعود اليهم رنجهـــاد وتحملهم على سحرها وأوهامها ، الا أن مدين مصر كل الاصرار على اتمـــام التجربة بكل ابعادها وقد رأى فيها وجها جديدا من التداوي ، والعـــلاج أنه التداوي من الزمن ، ولا يكون ذلك الا بالتطهر والسكون ((علمتني - . . أن أطهر من الزمان دوائي)) (1) . ومن ثمة صارت الساحرة بمثابة القطـــب عند المتصوفة ، وينبغي على مدين أن يلازم هذا الشيخ الى أن يبلغ مبتغاه وهكذا تبدأ قصة داخل قصة .

وبعد التجربة تقص الساحرة على مدين قصة الخلق ، كيف خلق سلهوى اله النسيان الكون وبينت له علاقة الانسان بالارض ، وعلاقة الروح / وذكـــرت بالجسد
له ان الاله خلق العالمين في ست ليال وجعل الكون نورا ونارا لكنـــه جعل الارض قذرة متعفنة . ثم خلق الانسان من نور وقال له : ((كن طهارة وعظمة وجمالا)) (2) . وقال له كذلك : أنت أملي من خلقي وسري في أكواني ، وأنت الواحد الاوحد والجمال والسلوى ، وليس سواك معنى)) (3) .

فغارت منه الارض وأرادت تحطيمه وشكت أمرها الى سلهوى وتحدتـــه أن يقدر على مزجها بالطهارة والنور والجمال كالانسان . ففعل وكســـا المادة حسنا وطهارة وملأ النور طينا . ولما كان الانسان من نور فقد أثقله الطين فهبط الارض ((وذهب عن الانسان الجمال ، وجاءه القبح مع الطين والتخمر والموت)) . (4)

وجعل سلهوى التناسل قهرا للموت . وعندما توفي أول انسان من بني

---

1) المصـــدر السابـــق . ص : 45 .
2) المصـــدر السابـــق . ص: 86 - 87 .
3) المصـــدر السابـــق . ص : 89 .
4) المصـــدر السابـــق . ص : 90 - 91 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آدام تعفن جسمه وداد . ((وأطلق الموت الصورة من ثقل الجسد. فهمت الروح النور أن ترتفع فأهوت ، وتاقت الى السماء فاذا هي على الارض واقعة. وبقيت فيها/وجهها حيرى وصحبها الشوق والذكرى ، ووجدت حسرة لوعة على ما ضاع من جسد وحاجة الى مادة سند ، وكان اول العذاب الابد... وكذلك زنت المادة بالروح فدنستها ، وألفت الصورة دنس المادة فأقعدتها . وبقيت بعد الموت بين الاكوان تعوي .. وهذا هو يامدين عالم الموتى [1] فامتزاج الروح بالمادة هو الذي خلق الحنين الدائم والذكرى المتواصلة فثقل الجسد . الطين منع الروح من العلو ، فتعذر النسيان وتعذر الخلود . ولابد من تركيب عقار يحفظ الجسم من التعفن وينتفي فعل الزمان والذكرى والحركة ويتم الخلود والسكون والجمود . ويقوم البطل مدين برحلة مصيرية مع الساحرة الى عالم الاموات فيتعرف أثناء رحلته الخيالية على حقيقة العناصر وسر الخلق ، وأثر الزمان في الحياة .

وتوضح هذه الرحلة المقاصد التي يسعى اليها مدين ، وعلى رأسها محاولته القضاء على الزمان وبذلك يحقق الخلود لأن الزمان هو محرك الحياة والحركة عذاب ((علمت أن الأموات تصارع الزمان صراعا)) .[2] وقلت : الفعل من الحركة وليس مثلها عذابا وليس كالزمان محرك . ثم قلت: أليس أن في الوجود اعتدالا ؟ أليس الحي والكون كله توقا الى اعتدال السكون واجب الوجود ؟ فان بلغه الحي كان الاسلام الجمود ، وكان الشفاء والابد الخلود))[3] . وفي نهاية الرحلة المصيرية يكون مدين قد تعلم الدواء ، دواء الخلود ، وتجاوز الحدود ، ونيل المطلوب ((أما أنا فقد طلقت ياليلى

---

1) المصدر السابق . ص : 64 . ص 91 .

2) المصدر السابق . ص : 102 .

3) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأهتديت الى سبيل المطالب المحض والحياة الابد ، وباح لي غاب رنجهاد بسره)) .(1) وتمثل تجربة مدين طالب المستحيل وراغامه على الامكان ((حديث المستحيل يرغم على الامكان)) . ويتناول عقاره الذي ركبه فقام وقال : ((هذا الابد ياليلى هذا النسيان . هذا الخلود)) و ((قال : أني أجدني وضاحا وأجد بي نورا .

وقد اطهرتني السماء ماء صفاء ،وطهرتني فأنا نظيف كنصح نظيف . وقد عادت لي عظمتي وطهارتي وجمالي))(2) . وهكذا عاد الى الصورة الاولى التي خلقه عليها سلهوى قبل أن يدنسها الطين والمادة ويهبطه الى الارض، وتخلص من فعل الزمان وذكرى الاجساد وأمكن له الخلود الذي ينشده ((أنا الحق)) ((أنا الوجود أنا الخلود)) ((أنا الحلول وعظمت وشربت السماء وحلت في الاكون جميعا))(3) وهكذا يعرض المؤلف وفق فلسفة الادماج والحلول الى قضية خطرة في وجود الانسان ،وفي الحضارة وهي مشكلة البعد الزماني وأثره في الصيرورة والديمومة .

وأدرك المؤلف أن حضارتنا العربية الاسلامية لا تكاد تدمج عنصر الزمان في مقوماتها الحضارية الاساسية . فالماضي في اللغة العربية حدث مضى وانقطع في حين أن بعد الماضي في الحضارة الغربية الحديثة لم ينقطع ويظل قائما في مكانه لكنه غير مشعور به . فلم يعد التصور الذي يسلب الماضي وجوده الفعلي مقبولا حتى لدى الشعور الشعبي . وقد أخذت فلسفة ((برغسون)) بهذه الفكرة : ((فالحدث اذا صار ماضيا لا يصير بهذا موجود ،أنه يكف عن الفعل ،هذا كل ما في الامر ،لكنه يظل في مكانه ، وفي

---

1) المصدر السابق . ص : 106 .
2) المصدر السابق . ص: 108 .
3) المصدر السابق . ص : 110 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تاريخه الى الأبد - كوجود غير مشعور به ، أولا يرى." وبهذ نكون قد أعدنا للماضي الوجود ، وهذا حسن ، بل نؤكد أن المدة هي كثرة من التداخل وأن الماضي ينتظم باستمرار مع الحاضر لكننا بهذا لم نفسر هذا الانتظام وهذا التداخل ولم نفسر أن الماضي يمكن أن ((يولد من جديد)) ، وأن يلاحقنا ، وبالجملة أن يوجد من أجلنا " " ان ماضي لا يظهر أبدا في عزلة "ماضياته " ، انه ماض لهذا الحاضر "(1)

ان مثل هذا التصور للماضي بل للزمان الوجودي الذي يعادل ((الانانة)) لم يكن الى عهد قريب من مشمولات التصور الفلسفي العربي الاسلامي . وقد اجتهد المسعدي أن يدمج هذا العنصر الجديد على حضارتنا وثقافتنا دمجا في بناء ثقافة وحضارة عربية جديدة ومتجددة وذلك في رواية مولد النسيان الميتافيزقية التي تعالج اشكالات ما ورائية محضة الا أنها تنزل في صميم التصور الوجودي الحديث وتمثل أحد دعائمه الجوهرية "" هذه الأنانة هذه علاقة انطولوجية تربط الماضي بالحاضر"(2)

حدث أبو هريرة قال :

لئن جسدت مؤلفات المسعدي القليلة بحق الارادة الحية والسعي الدائم والجاد نحو مقاصد نبيلة ، بعيدة المنال ، فان كل أثر منها ينفرد بقضايا معينة . وتربط هذه الاعمال الابداعية كلها وشائج قربى تصيرها في النهاية الى اتجاه واحد ، أو فلسفة واحدة هي الفلسفة الوجودية التي يمثل أرضيتها ، في الفكر المسعدي - قصة حدث أبو هريرة قال ، فما هي هذه الخلفية النظرية في مؤلفات المسعدي وما هي مراحلها . الواقع أن هذه الخلفية النظرية وأهم مراحلها قد تناولها الدارسون بالبحث وذكرها المؤلف

---

1) سارتر الوجود والعدم . ترجمة بدوي عبد الرحمن . ص : 247

2) المصدر نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه في أحد محاضراته حول أدبه بصفة خاصة . ولهذا فقد فاتني تحليلها ولكن سألخص فقط هذه المراحل بايجاز شديد مبينا بعض تلك المراحل التي أهملت أو لم يتفطن اليها الدارسون .

ان بطل قصة حدث أبو هريرة قال شخصية غريبة الأطوار وطريفة الافكار في آن واحد . غريب لانه يجمع في ذاته التليد والطريف معا ويتطلع الى معاصرة الاجيال القادمة . أما طرافة أرائه فتكمن في تصوره لجملة من الفلسفات وتجسيدها في تجارب حياتية عاشها ويهدف الى أن يحياها الناس مثله في شكل فني أصيل ، يقول عنه المؤلف نفسه : "هو قصة التجربة الوجودية أو مغامرة الكيان الانساني قصة المسيرة الطويلة التي هي مسيرة الحي في سبيل الاضطلاع بمسؤولية الوجود الانساني "(1)

اذن أبو هريرة رمز الانسان في كل مكان وزمان الذي يبحث دوما عن مصيره ، ودوره في الوجود ، ويتساءل بلهفة عن حقيقة كيانه وكانت اشارته في الوجود البيت التالي :

طلبت المستقر بكل أرض + فلم أرلي بأرض مستقرا .

وهو يشبه في هذا الشعار الى حد كبير بطل الفيلسوف الالماني نيتشه " زارا الذي يقول : " ما أنا الا رحالة ومتسلق مرتفعات ، وما تستهويني منبسطات الارض ولا يستقر بي مقام ".(2) ويقول عنه أحد الباحثين التونسيين " أنه ذلكم المزيج الشجي من فوست وأبي العتاهية ، الذي جمع في نفسه الملتهبة جموح نيتشه وعبثية كامو الى جانب .

---

1) محمود المسعدي . حدث أبو هريرة قال . ص : 15 .
2) نيتشه : هكذا تكلم زارا دشت . ص : 178 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شطحات الصوفيين وتمردهم "[1]. ويصفه الاستاذ توفيق بكار قائلا "يمتزج فيه الصوفي بالمغامر يهيم باللانهاية كعشاق الحق قد يماوله وجدهم ، جرئي يحب المجازفة كهواة المخاطر من هذا المصر قرر أن يضطلع بمصيره في كامل المسؤولية"[2]

ولئن كان أبو هريرة كذلك في نظر معظم من درسوه ، فما هي مراحل مغامرته الوجودية .

تتمثل هذه المراحل الحياتية في مجالات الوجود التالية :

مرحلة الحس :

تمتد هذه المرحلة عبر الاحاديث الستة الأولى من الكتاب مثلما يذهب الى ذلك المؤلف نفسه ، وكما يتجلى ذلك من محتوياتها وكل حديث منها هو عبارة عن قصة قصيرة ترتبط في ما بينها باشارات وتلميحات خاطفة أو بذكر جملة قصيرة جدا مثل : رحمه الله . أو رحم الله أبو هريرة .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن هذه المرحلة، مرحلة الحس تتكون في الحقيقة من مرحلتين متداخلتين هما مرحلة الحس ومرحلة الاحساس.

ويمثل الحديث الأول - حديث البعث الأول - التحول الوجودي الفعال . انصرف أبو هريرة وصاحبه نحو الرمال في الصحراء العربية عند مطلع الفجر ، على نجيبتين . وأثناء سيرهما شاهد أبو هريرة جارية عارية ترقص في رشاقة ولطف ونعومة مغرية وقد صار الانسجام أدق وأروع حين تدخل الفتى العاري بمزماره يراقص الفتاة الجميلة ، فاستأنس أبو هريرة بهذه اللوحة الفنية الرائعة وتعلق

---

1) جوليات الجامعة التونسية . ع 12 /1975 .
2) د. توفيق بكار . مقدمة حدث أبو هريرة قال . ص : 17 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالراقصين تعلقا عاطفا ومشاركا وعبر عن ذلك بقوله :" وعدت لاستماعهما والنظر اليهما خلسة أياما ، حتى نشألي منه في النفس كالشوق الى الجنة وكرهت حياتي بين الاموات "(١). ويتضح من عبارة المؤلف نفسه أن هذا التحول الوجودي رغم أنه حصل صدفة - قد نشأ على أساس فني وجودي بحت : المشاهدة فالاعجاب فالتحول. واذا تأملنا عناصر هذه اللوحة الفنية لوجدناها : أولا : جسد المرأة الراقصة العارية وما يحتويه من مفاتن أنثوية . وكانت المرأة تجسد النظرة الجمالية الحسية في الأدب العربي حتى وقت متأخر .

ثانيا : عناصر فنية أخرى كالنغم والرقص وما اليهما من ضروب الطرب زيادة على الطعام الشهي والشرب اللذيذ . وهذه العناصر الجمالية تعتمد الحس مبدأ وغاية في ذاته ، مبدأ اللذة الحسية الصرفة كفلسفة قائمة بذاتها في الوجود . وهذا ما يصرح به المؤلف نفسه :" ثم هو يكتشف بواسطة صديق له وجها لم يكن يعرفه من الحياة هو وجه الجمال "( ) . وهذا ما يؤكده الاستاذ توفيق بكار في مقدمته لقصة " حدث أبو هريرة قال" بقوله : " ويبدأ أبو هريرة رحلته وهو في عنفوان الشباب بالغوص في أعماق الحس وقد تفتق على " متع الدنيا " الطعام وطيبه والخمر وسكرته ولذة الهوى

---

1) محمود المسعدي . حدث أبو هريرة قال . ص : 17

2) محمود المسعدي . تأصيلا لكيان . ص : 69

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و . . . نشوة السقم ،فحتى " العلة " صارت ،في ما عانى من " محييات الحياة " وحال البلوغ الى النصف الآخر من " متاع الدنيا . . ."(1)

ويذهب المؤلف الى أن ما جربه أبو هريرة من " متع الدنيا " يمثل تطورا طبيعيا وواقعيا في حياة البشر" ثم هو بعد ذلك يتطور بأطوار الحياة ،فيمر أولا بتطور التهاب الشهوة الجسدية . . . والمتعة الحسية والجسدية هي من عناصر الكيان الانساني ،تلك، حقيقة لا تنكر "(2).

ويفلسف الكاتب تجربة الحس ويجعلها تمر بطورين أو مستويين : حيواني وانساني "لها أبعادها الجسدية أو الحسية ،ولها أبعادها الروحية أو المعنوية "(3).

ويذهب الاستاذ توفيق بكار الى أن فلسفة المتعة الجسدية في قصة المسعدي فريدة من نوعها في الادب العربي الحديث :" فهذه القصة هي فيما أعرف أول نص أدبي يطرح بمثل هذه القوة وهذا العمق الفلسفي قضية الجسد في المجتمع العربي الحديث "(4) واذا عدنا الى أخر أحاديث مرحلة الحس ،وهو حديث الوضع نجد أن الكاتب يجسد فلسفة قد وعيها من قبل وقد اختار شعاراتها بدقة ،وشعار حديث الوضع الذي يمثل المرحلة الانتقالية من مراحل فلسفة الحياة هو قول أبي حيان التوحيدي :". . . لانه قد صح أن شأن الحس أن يورث الملال " و" الكلال ويحمل على الضجر والانقطاع"(5) ولابد من التركيز هنا على الالفاظ الاتية : الملال ،الكلال الضجر والانقطاع فهو مفاتيح المرحلة الانتقالية مضافا اليها لهجة التهكم والسخرية ، حيث

1) محمد المسعدي . أبو هريرة قال . ص : 22 .
2) محمود المسعدي . تأصيلا لكيان . ص : 69 .
3) المصدر نفسه . ص : 70 .
4) د . توفيق بكار . مقدمة ،حدث ابو هريرة قال ،ص : 23 .
5) المصدر نفسه . ص : 63 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان أبا هريرة بدأ يتهكم من تلك المرحلة الجمالية ومتع الدنيا ولذة الجسد ونشوة الخمر رغم أن " ريحانة " أخذت تغريه وتزين له الحياة . " وكنت كلما دخل البيت وجد العنبر والمسك والعود قد نشرت فيه ، وألوان الطعام قد صففت ودعت بالافواه ، وأطايب النبيذ والريحان قد تضوع وفاح"(1) . ولكن ذلك الاغراء الانثوي وما ينطوي عليه من رغبة صادقة في التمتع بفرحة الحياة وملذاتها باعتبار أن ذلك يمثل غاية الحياة في نظرها . الا أن أبا هريرة عقد العزم أن يتجاوز مرحلة اللذة المطلقة الى مرحلة التهكم والانقطاع لانه صار ينظر الى المرحلة الجمالية نظرة الاشمئزاز والقرف والاحتقار فيقول : " والله كرهت طعام الانسان وحببت اليّ الانعام في مراعيها ترعى"(2)

وهكذا يدخل أبو هريرة في طور الضياع فتصر ريحانة على أن تعيده الى فرحة الحياة السابقة ، ويدرك أبو هريرة مقاصد ريحانة من جهدها ، الرامي الى أن تثبت معها أبا هريرة في مرحلة الحس ، ولا يتجاوزانها أبدا ، لذلك يضاجر أبو هريرة الى أن يضارحها بكراهيته لما يدوم ويستقر :

مضى دهر به كنا ... وجد ناجدة العمر
وشاخ النور ريحان ... وقرت خلجة الفجر
فينتاب سناعيني ... ظلام كمعى الدهر

ويتضح من معنى هذه الابيات أن أبا هريرة كان يعيش مرحلة الحس كتجربة ضرورية اقتضاها تطور شخصيته ، ولم يحياها كغاية لذاتها . لذلك يضع دنيا المتعة واللذة العارمة غير آسف عليها بقدر تأسفه على وضع ريحانة فصار بعدها أعجز الناس عن الحب .

---

1) المصدر السابق . ص : 64 .
2) المصدر نفسه . ص : 66 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يبدو جليا ان حديث الوضع الاول والثاني يجسدان مرحلة انتقالية في فلسفة أبي هريرة الحياتية ، وهي مرحلة التهكم التي تعقب المرحلة الحسية أو الجمالية ، وتمهد لمرحلة رئيسية ثانية هي تجربة الجماعة .

تجربة الجماعة (الحيرة في الناس) :

رأينا في ما تقدم أن أبا هريرة عاش تجربة خصبة في حياته الاولى وكان يحيا خلالها من أجل غرض أو حد هو مبدأ التلذذ في الوجود بكل ما في الكون من ضروب اللذة ، وكان يفرط في تقصي أبعادها ويغوص في صميمها ماعدا اللذة الجسدية فانه كان ينوعها . ودامت تلك المرحلة ثلاثة أعوام اقتنع في نهايتها أن مرحلة الحس وحدها لا تكفي لنمو شخصيته وتطورها وبدأ ينظر اليها باستخفاف وسخرية ثم دخل في مرحلة انتقالية قصيرة يدعوها المؤلف بفترة الضياع وأدعوها أنا بالمرحلة التهكمية المعروفة في فلسفة الحياة . ولابد من التذكير هنا أن الانتقال من مرحلة الى أخرى لا يتم الا عن طريق الوثبة أو القذف . ومن خلال الاحاديث السبعة التي تشكل اطار تجربة الجماعة يتبين للقارئ المتمعن أن أبا هريرة قذف في قلبه شيء ما حمله على أن يخوض تجربة ذهنية مجردة سماها المؤلف " الحيرة في الناس " . ويبدو لي أن هذا القذف قد وقع في مستويين مختلفين . لقد حدث القذف الاول في هذه التجربة عندما كان أبو هريرة يطلب الوحشة بواد الجن والاعاصير في عمق الصحراء العربية ، وكان يحسب أنه سيعاشر بعزلة تامة تقصيه من عالم الانسان بقدر ما تدنيه من عالم الجن . فاذا بالاعاصير تثور وتشتد وتجرف أتربة الواد ورماله وتكشف له عن بعض رسوم الانسان البالية " جمجمة بالية " ، ويؤثر هذا الرسم البالي في نفس أبي هريرة ويجزعها الى حد أنه لايتمالك عن اخفائه وكتمانه : " فذهب ذلك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بوحشتي ونزع فرحي وقلت : ما طالب الوحشة طالب الا استيقظ له رسم دارس "(1) . ويبوح أبو هريرة نفسه أنه غاص في الواد ليمحو قصته الجماعية: "وكنت خرجت لامحو قصتي فاذا هي فيّ من قبل آدم لا تمحى "(2) . وهكذا تفرض تجربة الجماعة نفسها على أبي هريرة وتقذفه في صميمها رغم انفه . ويقبل أبو هريرة على خوض تجربة الجماعة وهو مكره ، وهنا أنا مضطر أن لا أشاطر الماجري الحفناوي رأيه القائل : "قضى أبو هريرة سنتين في تجربة الجماعة ، ثم خرج منها على عكس ما دخلها . دخلها مؤمنا بالانسان فخرج منها كافرا به "(3) . اذن أقول ان أبا هريرة لم يكن مؤمنا بالجماعة قبل أن يجرب بها ويعيش قضاياها ، فقد رمى في هذه المرحلة وهو أشد كفرا بالانسان وخرج منها وهو كافر بها ، غير أن كفره بالجماعة في نهاية المرحلة يتضمن عنصرا جديدا لم يكن يشعر به البطل في بداية هذه التجربة وهذا العنصر هو عاطفة الشفقة على الناس والرحمة بهم ولا يعثر القارئ على ذلك الا في نهاية التجربة حيث عزم البطل على الانطلاق من هذه المرحلة الى أخرى جديدة فيقول : " ارحمهم يا كهلان ولا تؤمن بهم . السلام عليك يا حبيبي "(4) .

وجملة القول ان أبا هريرة دخل التجربة مرغما وكارها مشاركا وعاطفا نافرا وخرج منها كذلك نافرا عاطفا .

ولعل كراهية البطل للجماعة/ تعود الى أصول تاريخية بحتة يدل عليها مضمون الحوار . وأصول هذه النفرة من الانسان مرتبطة ارتباطا وثيقا بالخطيئة الاولى لآدم وحواء والتي أورثاها الى نسلهما أبد الدهر . ويرفض

---

1) محمود المسعدي . حدث أبو هريرة قال . ص 97 .
2) محمود المصدر نفسه .
3) الحفناوي الماجري . المسعدي من الثورة الى الهزيمة في احدث أبوهريرة قال . ص : 65 .
4) المسعدي . حدث أبو هريرة قال . ص : 121 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو هريرة هذا العبء الثقيل والارث المهين ويتمرد عليه مثلما تمرد ابليس على آدم وعصاريه الذي أمره بالسجود لآدم ، ويبدو كأن أبا هريرة من معدن غير معدن آدم الذي يتمثل في معدن الطين ، وعسى ألا أكون مبالغا اذا قلت ان معدن أبي هريرة هو من جنس غير طيني هو معدن نوراني كمعدن ابليس تماما . وكما تمرد ابليس وعصا ربه معللا عصيانه بالرجوع الى هذا المعدن ومقارنته بمعدن آدم (التراب) . فابليس من نار وآدم من تراب ، والنار في نظر ابليس أسمى من الطين اذن فلا يجوز حسب هذا المنطق أن يحب الاسمى الاحقر ويحترمه . وقد بقيت تلك العداوة التاريخية والاحتقار الذي لا احتقار بعده قائمة بين الجنسين ونسلهما على وجه الدهر .

ومما يؤكد لي صحة ذلك أن أبا هريرة يمقت مقتا كبيرا جانب الطين فيه بينما يشغف بشقه الآخر وهو " الروح والنور " ولا أدل على ما أقول من هذا الولع الغريب بألفاظ النار والنور وما اشتق منهما . ولعل ما يزيد قناعة بما ذهبت اليه هذا الانسجام المنقطع النظير بين أبي هريرة وريحانة ، وكانت من قوم أساف ونائلة ، أكثر من انسجام أبي هريرة ووئامه مع أي أمرأة أخرى . ولو أردت أن أدعم هذه الفرضية بالنصوص لما أعوزتني ولئن كان المجال لا يسمح بالستقراء النصوص المتعلقة بذلك فانني أورد نصا واحدا مرجئا بقية النصوص الى بحث أوسع من هذا . يقول مدين وهو يتحدث عن نفسه : " اني أجدني وضاحا ، وأجد بي نورا . وقد اطهرتني السماء ماء صفاء (*) وظهرتني فأنا نظيف كنصح نظيف . وقد عادت لي عظمتي وطهارتي وجمالي "(1) . وان هذه العظمة والطهارة والجمال ليست من مكونات عالم المادة الذي نعيش فيه بل هي من مقومات عالم أخر هو عالم الروح . عالم

---

1) محمود المسعدي . مولد النسيان . ص : 108 .

*) " وقام سلهوى فخلق الانسان . وارسله صورة من نور لافخارا طصلا وجمالا ... ياسلهوى هذا يوم حسابك وحسابي . خلقتني فجعلتني مادة طينا وخلقته فجعلته صورة نورا ." ص : 87

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الامـــوات .

أما المستوى الثاني للوثبة في تجربة الجماعة فيتمثل في رؤيـة رآهـا أبو هريرة وهو نائم في واد الجن والاعاصير . رأى بلد اغريبا وأهلـــه كالنمل والغيلة وكان من بينهم جماعة تنشد شعرا تمجد فيها الروح والعمل وتحقر العقل والعدم . ورأى من يرتل على طريقة حمزة وهناك من يتكلـم رطانة وعجمة ولما استيقظ من نومه أقبل على الجماعة .

عاد اذن أبو هريرة من عزلته بواد الجن الى معاشرة الجماعة وهو مكره على ذلك ، ويتجلى من الآن أنه من الصعب على أبي هريرة أن يتخلى عمـــا ارتسم من قبل في ذهنه من انطباعات ضد الجماعة . ومادام أبو هريـــرة قد قرر أن يعاشر الناس رغم انفه فكيف اذن السبيل الى ذلك ؟

ومن خلال النصوص الواردة في تجربة الجماعة يتبين أن أباهريرة قـد رسم لنفسه خطة معينة تقوم على مفهوم وجودي محض يهدف الى تبيان مكانة الانسان وفرض ذاته في هذا الكون . اذ لا قيمة في الكون الا للانسان ولا قيمة للانسان الا في فعله ولا سبيل للخلودالاّبالجهد والجهاد .

وبعد أن رسم الخطة وقرر أن يخوض التجربة الجماعية أقبل على احياء العرب يمكث بالحي منها زمنا ثم يغادره الى آخر حتى عاشر ثلاثة أحيـــاء منها على فترات متباينة واتضح له في خاتمة المطاف بشاعة صورة الجماعـة فقد كانت تلك الاحياء تعاني من أوضاع سيئة للغاية وفي كل مجالات الحياة الساسية والاقتصادية والاخلاقية والدينية وحتى البيئة الطبيعية القاسيـــة . وقد بذل أبو هريرة جهدا لتغيير هذه الحالة المتدهورة وينهض بالهمم التي

---

1) المسعدي ، حدث أبو هريرة قال . ص : 120 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفت الاتكال والرضوخ والقناعة ،أنهم بصفة مجملة عبيد الوظيف والمال . ومر في سعيه الهادف الى تحسين حالة الاحياء بطورين نظري ثم عملي ووصل في نهاية المرحلة الى الانطواء من جديد وهجر هذه الاحياء ومن ثم صار لا يرى في الناس سوى العجز . وأنهم ليسوا سوى جثث بلا حياة :" دعوني أيتها الاجساد ليس لها روح غير ما سلبن من روحي "(1). وهكذا تصبح الجماعة نساء ورجالا عند أبي هريرة سواسية جثث موتى ، بلا حياة وما الحياة الا هو ،اجساد بلا روح وما الروح الا أبا هريرة .

المرحلة الفكهة :

رأينا في ما تقدم تجربة أبي هريرة الجماعية ،وهي تجربة ذهنية محضة ،وقد أنطلق أبو هريرة من فكرة قلقة هي :" كراهية تشاركية ،وتشارك كاره " ،وأخذ يعاشر الاحياء بشعور نافر عاطف . وبسبب هذا التوتر في الاحساس كانت نتيجة التجربة سلبية . انتقل بعدها الى تجربة أخرى هي المرحلة الفكهة .

فما هي هذه المرحلة ؟ وما هي دلالتها ؟

تعتبر المرحلة الفكهة مرحلة انتقالية بين مرحلتين رئيسيتين في مجالات الوجود بين المرحلة الجماعية والمرحلة الدينية . وفيها يحاول أبو هريرة كما يتضح ذلك من "حديث العمى " أن يقهر بالفكاهة متاعب الحياة التي عاناها في تجربة الجماعة وغيرها . وقد عهدنا أبا هريرة جادا حتى في لحظات الصحو بينما يبدو في هذه المرحلة أكثر بشاشة وسخرية ،وصارت الابتسامة تعلو شفتيه حين يسأل :" فسألناه في رحلته فابتسم وقال "(1).

---

1) المصدر السابق . ص : 127 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكنا عهدنا أن أبا هريرة يكيل لكلمات الاحتقار الشديد الى كل من يخاطبه ولوكان الخطاب يهدف الى تقديم العون اليه هو نفسه مثلما وقع ذلك في حديث الجماعة والوحشة ،عندما أشفق الناس عليه وخافوا مما ظهر لهم من بؤسه ويأسه فسأله أحدهم قائلا :" يا أبا هريرة من أين عليك كل هذا ؟ لقد امتلأت ظوينا شفقة عليك ورحمة . فيصيح فينا ويلوي : اليكم عني يا أبناء النكر يا بني الانسان ،ان شفقتكم لعنة "(1). وواضح من كلامه أنه كان مشحونا بمشاعر الكراهية للبشر وينكر متعاليا حتى شفقتهم ويعدها من قبيل اللعنة بينما نراه الآن شخصا آخر ،شخص ساخر فكه ،وهولا يسخر هنا من الجماعة ولكنه يسخر من نفسه ومن عناء الدنيا فيقول ساخرا :" لوكنتم عشتم في مستقبل الدهر لقرأتم ما سيكتبه أبن بطوطة من خرافات الصبيان "(2).

ونضيف الى هذه المرحلة الانتقالية حديث الحمل الذي يصور فيه المؤلف حالة الاستعداد لخوض تجربة من نوع آخر . وكلمة الحمل ذاتها معبرة عن معنى الحمل الذي يسبق الولادة . فما هي هذه الولادة أو التجربة الجديدة ؟ وكيف كانت نهايتها ؟ .

المرحلة الدينية (الحيرة في الله) :

يختار المؤلف شعارا لفلسفة هذه التجربة يتمثل في قولة الامام الغزالي التالية : " فقد عرفت أن سعادة النفس وكمالها تنتقش بحقائق الامور الالهية وتتحد بها حتى كأنها هي ..."(3).

---

1) المصدر السابق . ص : 124 .
2) المصدر نفسه . ص : 127 .
3) المصدر نفسه . ص : 133 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرر أبو هريرة أن يخوض تجربة دينية فالتجأ بدير يعتصم فيه وكلفت بترويضه على التصوف راهبة تدعى " ظلمة " التي تؤمن بمذهب الفناء في الروح على الحساب الجسد . دخل أبو هريرة الدير حائرا باحثا عن اجابة مقنعة لما يحير باله من مسائل ما ورائية بحتة : " أيهما أصدق وجودا ، الله أم الشيطان ؟ أريد أن أعرف أنا خالق الله أم /خالقي ؟"(1). ولعل حيرته تتركز حول متى وهل يستطيع الانسان أن يتغلب على الزمان ويكسره وتنتفي الحدود . وهكذا فانه يعبر بوضوح عن انشغاله العميق ازاء الزمن والموت ." ليس من شأن الانسان الفناء والصبر "(2).

وقد أنكرت ظلمة في البداية حيرته ولكنها شعرت بانجذاب نحوه . أخذ أبو هريرة يروض نفسه على طريقة أهل الدير بتعذيب الجسد حتى يفقد الالم ، والصوم عدة أيام والتأمل ، ثم خرج من عزلته التي فرضها على نفسه في محرابه ، الى مقبرة الدير في غيبوبة وذهول . وهناك أقبلت عليه ظلمة وقد استولى أبو هريرة الحائر الذاهل على مفتاح قلبها ." وقد غلبت غلبة لم يكن لي بعدها شدة ولا عزم ."(3) ويخلوان ببعضهما في الدير نفسه ولا ثالث لهما الا الشيطان . وبعد هذا اللقاء يعترفان لبعضهما أن اللذة لا تقهر في أنفسهما رغم التدين " والآن علمت وعلمت أن اللذة لا تقهر في أنفسهما رغم التدين " والآن علمت أن اللذة لا تغلب "(4). ويخرجان من الدير وقد انتصرت في اعماقهما اللذة على الدين وهكذا يهوم أبو هيرة الدين وينتصر للجسد قائلا لظلمة : "ان الالهة لا تقوم اذ هوت " وتجيبه ظلمة مؤكدة كفره : "لقد هوى ربي " ، ويستعرض أبو هريرة معها

---

1) المصدر السابق . ص : 136 .
2) المصدر نفسه . ص : 104 .
3) المصدر نفسه . ص : 138 .
4) المصدر نفسه . ص : 144 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاديان والمذاهب المختلفة ويكشف عن حقيقتها جميعا فهي وان اختلفت وتعددت ،فانها تلتقي كلها في كونها أوهام من صنع البشر .

وبعد هذا يدخل مرحلة ضياع زمنا ما ثم سرعان ما يتعرف على أبي رغال الذي يحدثه عن قصته مع قومه وبعلمه أشياء ،كثيرة مما جعل السبيل واضحة أمام أبي هريرة وتجلى له الحق تجليا لم يبق له الا أن يطلب الولادة الجديدة في حديث البعث الاخير أو ما يسميه "بالحب والشوق" وهذه الولادة والطمأنينة لا تتحقق داخل حدود عالمنا وانما تتم خارجه عن طريق العبور الغامض والالتحاق بالمطلق والاتحاد به .

خواتم أبطال المسعدي .

الواقع أن المهتمين بنهايات أبطال المسعدي يجمعون على أن تلك الخواتم متشابهة أو هي واحدة ،ولكنهم يختلفون في تقييم دلالة هذه الخواتم فبعضهم يرى أنها يائسة متشائمة وانهزامية . وبعضهم يذهب الى أنها متفائلة . والفريقان لا يقدمان تعليلات مقنعة .

والحقيقة أنه يجب أن ننظر الى هذه النهايات في نطاق الرؤية الوجودية ،وهي رؤية متفائلة حتى في حالة الهزيمة وهذا ما يؤكده سارتر: أن الوجودية فلسفة تفاؤل وعمل ،لا يمكن مطلقا اتهامها باليأس ،الا عن نية سيئة .

ومن ناحية أخرى فان الهزيمة التي يقيم بعضهم على ضوئها أحكامهم هدم ولكنه هدم بناء لأن البطل الوجودي يهدم ليبني . ومن هنا فان اليأس الوجودي انما هو العبور عبر الليل المظلم نحو الامل والابدية لأن صور الامل تبدو في الجانب الاخر من الحياة . والوجودي الذي لا يأمل في شيء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحتفظ دوما بالأمل كاحتياطي من النعمة لا يمسه أبدا وما أعذب بالنسبة اليه انما هو ان يصل الى مكان ما ، ولو أوشك على اليأس ، لانه يؤمن أن البشر احرار ، والحياة الانسانية تبدأ في الجانب الآخر من اليأس . ونجد هذا المعنى معبرا عنه بدقة ووضوح فيقول أبو هريرة لأبي المدائن : انهما خرجا من الظلمة الى النور . فيعجب أبو المدائن لأن الليل كان يقترب ، فها قد بدأت شواطئ الازل ثم يسمع أبو هريرة الهاتف فيرد عليه بقوله : " ياحق لبيك ... أنا الآن اليك "(1) . وهكذا نستطيع أن نستنتج من تلك النهايات وفي نطاق الرؤية الوجودية نتيجتين معتبرتين : أولاهما أن هذه الخواتم لا تدل على اليأس بل على التفاؤل المتجه صوب الابدية . وان يأسهم هو عبور نحو الأمل والابدية . وثانيتهما : أن تلك الخواتم تمثل الحرية المطلقة التي ينعم بها أبطال المسعدي الوجوديين . فهم ينتحرون ليعبروا عن تلك الحرية ويجسدوها في مطلب الخلاص في الفناء وأن المأساة لا تكون مأساة حقيقية الا اذا أفضت الى الانتحار والمسعدي يعرف ذلك معرفة جيدة "لا أنب مأساة أو لايكون معنى الوجودية عند المسعدي .

الواضح أن الباحث لا يكاد يعثر على تعريف دقيق للوجودية من خلال اعماله الابداعية الا اذا قلنا بأن وجودية المسعدي لا تختلف عن وجوديات الوجوديين الغربيين المحدثين . وعلى هذا الأساس فقط يستطيع الباحث على ضوء ما وعيه من دراسته في أبرز مؤلفات الوجودية الغربية أن يتبين معالم نظرية المسعدي الوجودية ومقاصدها وأبعادها .

والجدير بالملاحظة في هذا السياق أن المسعدي ميال الى التعابير الرحبة والمفاهيم الشمولية :

---

1) المسعدي . تأصيلا لمكيان . ط 1 (تونس) ، ص : 72 - 73 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك أنه يرى أن التيار الوجودي قديم قدم الآداب الاصيلة ((الوجودية قديمة مثل قدم كل أدب صميم)) (1). ويذكر اسماء لكتاب خالدين ويعدهم جميعا من الوجوديين ، ويستخلص من ذلك مفهوما عاما لما يعتبره تفكيرا وجوديا ((أو ما معنى هذا كله ان لم يكن جهدا ممدودا على الدهر يجهده الادباء من مختلف الحضارات ومتباعد العصور حين يقلبون النظر في تصورهم للانسان وحقيقته ومنزلته في الوجود والكون ، وصيرورته ومآله في الحياة وبعد الموت)) (2). ويؤكد المسعدي أن وحدة الشعور والتفكير في قضايا الانسان ، وحدت بين الادباء على وجه الدهر . ((ان أمثال أولئك من الادباء القدماء والمحدثين قد اجتمعوا في صعيد واحد ، واشتركوا في هم واحد وقرب بينهم اتجاه واحد في التفكير والشعور. أن يمحصوا حقيقة المنزلة البشرية)) (3). وللادباء فضل في استيضاح وتبيان مصير الانسان ، وذلك بما يقصونه من سير وجودية وما يصفونه ، ويفلسفونه من أحوال الوجود .

وتقوم نظرية المسعدي على أساس الوعي ، لأن الانسان الواعي يؤسس نشاطه وعلاقاته مع نفسه ، والاخرين ، والكون على أسس من المعرفة اليقينية البينة لذلك ((هو في حاجة - حيوية - الى أن يعرف ما هي ماهيته ، وما هي أغراض نشاطه وطرائقه ، وما هي نهايته وغاياته ، وما هي منزلته ومصيره ، وما هي علاقة ذلك النشاط بتلك المنزلة)) (4).

والمقصود من قوله أن الانسان الواعي يتخذ بحكم ما يتمتع به من وعي ،

---

1) السد : بقلم المسعدي ، ط 1 - تونس ، ص : 258 .
2) المصدر السابق . ص : 261 .
3) المصدر السابق . ص : 261 .
4) المصدر السابق . ص : 262 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقفا بينا من حقيقة الانسان ، ومنزلته ، وعلاقاته بنفسه وبالآخرين ، والموت، ، والعالم . ولاشك أن التموضع أو الموقف يمثل أحد المفاهيم الاساسية في التفكير الوجودي . واتخاذ موقف ازاء القضايا السالفة الذكر يعد أمرا هاما في نظر المسعدي ويعتبره من لزوميات الحياة ومن شروط تحقيقها . ((فالتفكير الوجودي على هذا الوجه يصبح لزوميا للحياة الواعية وشرطا من شروطها التي لا تتحقق بدونها)) (1) . وعندما يؤكد المسعدي على الوجودية كشرط أساسي لتحقيق الحياة الواعية انما يلمح الى واحد من التصورات الوجودية المسلم بها والمتمثلة في ان ((الوجودية هي الحياة ولا شيء سواها)) . وسبق أن لاحظنا أن هذا التعريف للوجودية يعلق دائما في مجال الرد على التصور العام في الفلسفة المثالية ، والتي يأبى أصحابها الا أن يقدموا المفهوم العام والشامل لمذهبهم الفلسفي وفقا لتصور عقلي منطقي . في حين أن الأدب والحياة ما خضعت يوما الى المنطق والا لزال بها من الخرافة والعته . ويشير المسعدي الى هذا المعنى ـ معنى الوجودية هي الحياة ـ في مناسبات كثيرة وفي صيغ متنوعة فيقول : ((((المغامرة الوجودية)) و ((أبو هريرة ومراحل مسيرته الوجودية)) ويعرض حياة هذا البطل بأطوارها الخمس وهي : طور الحس طور الحب وطور الحيرة في الناس ، وطور الحيرة في الله ، وأخير طور العشق والفناء ويلح المسعدي على هذه المراحل الحياتية كتجارب وجودية ومقولات فيقول : ((ومن هنا تنطلق مغامرة أبي هريرة . ثم بعد ذلك يتطور بأطوار الحياة فيمر أولا بطور التهاب الشهوة الجسدية ، الذي تعلمون أنه يمر به جميع البشر قبل أن يتجاوزوه الى غيره من مراحل الكيان البشري والتجربة الوجودية)) .(2)

---

1) المصدر السابق . ص : 262 .
2) المصدر السابق . ص : 69 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد المسعدي على أن كل مرحلة أو طور من أطوار الحياة هو على غاية من الاهمية ،ولا يقل أهمية عن بقية مجالات الوجود الاخرى ((المتعة الحسية والجسدية هي من عناصر الكيان وتلك حقيقة لا تنكر)) (1).
والمسعدي يلح كثيرا على هذا المفهوم ((الوجودية حياة)) حتى ليجعل كل شيء قصة : ((قصة انسان عاش حياته واضطلع بتجربته الوجودية وتقلب بين مغامرته الانسانية من أولها الى آخرها ،بما فيها من نور وظلمات وحيرة واطمئنان ، وبؤس ونعيم ،وشقاء وسعادة ، وحقارة وعظمة)). (2)

ويظهر من تحليل المسعدي لاعماله الادبية ،أنه اتخذ من قصة ((حدث أبو هريرة قال)) الاسس النظرية لفلسفته الوجودية ،ويعتقد أنها تمثل تجربة وجودية مكتملة ((وتقلب بين أطوار مغامرته من أولها الى آخرها)) (3). في حين أنه يعتبر مسرحية السد التي أثارت حولها نقاشا طريفا ومفيدا وأذاعت صيت المؤلف وشهرته الى خارج حدود وطنه، فانه يعتبرها رغم ذلك تجربة وجودية محدودة بالقياس الى قصته ((حدث أبو هريرة قال)) ،ويقول بشأنها : ((فهي لا تروي قصة مغامرة وجودية تتناول جميع أطوار الحياة)) (4). وتجسد مسرحية السد شرطا أساسيا للحياة الواعية المسؤولة ،والمسلمة الوجودية القديمة الحديثة ،والقائلة ((الانسان خالق لافعاله)) . وفي هذا المعنى يقول المسعدي : ((هو يكاد يحصر شرف الانسان ومسؤولياته ووظيفته في أن يكون خالقا منشئا مبدعا طاقة خلق مطلقة)) (5). ويردد المسعدي في كثير من المناسبات معنى

---

1) المصدر السابق . ص : 69 .
2و3) المصدر السابق . ص : 74 - 75 .
4) المصدر السابق . ص : 81 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجهاد والخلق كمفهومين اساسيين من المفاهيم الوجودية . ويكاد يحصر الجهاد في معناه الوجودي ،فهو جهاد ضد المراقيل والصعاب التي تصد الانسان عن طموحه وسموه الى المنزلة المشرفة التي تليق بانسانيته كانسان وأنواع المعوقات التي ينبغي على الوجودي بالذات أن يجاهد ضدها كثيرة ومتنوعة : اجتماعية وطبيعية وغيبية ،تضافرت كلها على خذلان الانسان وتثبيط عزمه ،ولذلك كان الجهاد بمعناه الوجودي أمرا اساسيا في خلق الشخصية وتحديد ذاتها وصفاتها . وعلى هذا المعنى تصبح المغامرة الوجودية أو مسؤولية الكيان جهادا وكفاحا بالاضافة الى انها مسؤولية خلق وانشاء[1] ولا يفرق المسعدي بين فكرة الجهاد والخلق .((مسؤولية مزدوجة لا يتميز فيها معنى الجهاد عن معنى الخلق))[2]. ويعثر الباحث على أفكار وأراء وجودية كثيرة في تلك المحاضرة التي ألقاها المسعدي حول أدبه دون أن يشير الى مكان تلك الافكار .

وجملة الاراء أو الافكار والنظريات الوجودية التي تقدمت لا تتضمن عنصرا يعتبر جوهريا في المفهوم الوجودي الحديث ،وأعني به عنصر الزمن . وأحسب ان المسعدي نفسه يرغب كغيره من الوجوديين عن صوغ تعريف وجودي جامع مانع .

ويفضل أن يتناول ذلك بصورة تتلاءم والمنهج الوجودي المتبع الى ما قبل ((سارتر ويا سبرز)) . والمتمثل في عدم صياغة التصور الوجودي في مفهوم شامل عام ،أو في تعريف جامع مانع كما هو الشأن في التصور الفلسفي المثالي . ويورد في محاضرته حول أدبه تعريفات لجوانب من التفكير الوجودي فهو مثلا حين يتحدث عن العنصر

1و2) المصدر السابق . ص : 76 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزمني في التجربة الوجودية يدبج عبارة مركزة بقوة تصلح لأن تكون اشارة لهذا التيار ، ((الكيان البشري صيرورة وديمومة زمنية))(1) . ويؤكد المسعدي على البعد الزمني والتحول الفعال المستمر في الكيان البشري . ويرى أن البعد الزمني يعتبر مشكلة مزمنة في ثقافتنا العربية اذ أننا لم نهتد في الماضي الى ادماج هذا البعد في تصورنا العربي للحياة .

ويخال المسعدي نفسه فاتحا ومجددا في هذا النقطة بالذات ، ((لم نستطع الى الآن أن نتخلص من تصور ورثناه عن القرون الوسطى ، هو تصورنا للكيان الانساني وللحياة البشرية مجردين عن كل تطور زمني وعن كل تدرج تاريخي))(2) . ويلح على ضرورة ادماج هذا البعد الهام في الحياة وقد تناول هذه القضية تناولا جديا وأفرد لها عملا أدبيا رائعا لا يقل جدية وروعة عن سائر أعماله الاخرى .

ان نظرية المسعدي الوجودية لا يستطيع القارئ أن يعثر عليها كتصور شامل يصلح أن يتخذ تعريفا أو مفهوما لفلسفته . ولكن باستقراء اعماله الابداعية ومقالاته وافتتاحياته في مجلة المباحث ، ومحاضراته يمكن للقارئ أن يجمع هذا كله ويخرج منه بتصور عام يعتبر شارة وجودية شاملة .

الوجودية والالتزام عند المسعدي .

تعرضنا في ما تقدم الى بعض المفاهيم الوجودية المسعدية . ونريد الآن أن نستعرض أفكارا وجودية أخرى لا نراها جديدة بالنسبة لما سبق غير ان جدتها - ان كان لها شيء من الجدة - تقبع في فكرة التوحيد

1و2) المصدر السابق ، ص : 82 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين الوجودية والالتزام ،وابراز صلة متينة تربط - بين معنى الالتزام ،وبين التصور الوجودي . ونرجح أن علة هذا الربط بين المعنيين عائدة في الأصل الى مفهوم المسعدي للالتزام . وهو مفهوم رحب أذ أن الكاتب لا يكاد يفرق بين قضية الالتزام والفلسفة الوجودية كما لا يفرق بين القدماء والمحدثين في ما يخص قضية الالتزام .((فأولئك وهؤلاء يجهدون أن يمحصوا حقيقة المنزلة البشرية وأن يستوضحوا مصير الانسان ،وأن يقصوا المغامرة الوجودية، فأين الفرق الفاصل بين الالتزام والوجودية بعد هذا)).(1) وواضح أن المسعدي في هذا القول يدمج بين قضيتين ولا يرى فرقا يفصل بينهما أو يميز أحداهما عن الاخرى والمسعدي لا يقرن فحسب بين الالتزام وبين النظرية الوجودية بل نراه يعمد الى ربطهما معا بعنصر شالث هو ما يسميه بالادب الملتزم .

ويقول في هذا الصدد :((فان كان التفكير الفلسفي الوجودي يوضح الفكرة والأدب الالتزامي يعبر عن السلوك والمواقف ، فان هذا وذلك كليهما واقع في نطاق مشكلة الوجود ومصير الانسان ومنزلته من الكون . وسلوكه في الحياة ومآله بعد الحياة))(2). بيد أن هذه النظرة الرحبة والشمولية التي تهدف الى التوفيق بين التفكير الوجودي وبين الأدب الملتزم توفيقا مطلقا كما هو الشأن عند المسعدي قد ينجر عنه شيء من الخلط وعدم الدقة . وهذا ما أشار اليه أحد النقاد ((ان الربط بين التفكير الوجودي وبين الأدب الملتزم بهذه الطريقة ربط غير دقيق ، ولا أدل على ذلك من أن المسعدي لا يحدد ما يقصد بسلوك الانسان وموقفه ومصيره ومنزلته في الكون ،

---

1) المصدر السابق . ص: 263 . (السد ط/ تونس 1972 ص: 262، 263)

2) المصدر السابق . ص: 262 ، 263 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أنه يعتبر مآل الانسان بعد الحياة من القضايا التي يعبر عنها الأدب الملتزم))(1). ويمضي الناقد الى أبعد من ذلك ، يذهب الى عدم التصديق بهذا المفهوم الرحب للالتزام ،وعدم الموافقة عليه ،مقيما حجته على الفرق بين نظرة الغربيين للالتزام وبين نظرة الواقعيين الاشتراكيين ، ((ان الفرق كبير بين الوجودية - الالتزام - كما يحدده السعدي ،وبين الالتزام كما يفهمه نقاد الواقعية الاشتراكية))(2). ويشير الدكتور مصايف الى أن مفهوم الالتزام لدى النقاد التونسيين ومنهم السعدي وينعته بالجدة والسعة، مؤاخذا عليهم وقوعهم في الخلط بين الالتزام والصدق في التعبير ((ولو وقفوا عند هذا الحد لكان كلامهم يقوم على أساس من المنطق ،ولكنهم عادوا فخلطوا بين الالتزام وبين الصدق في التعبير مما جعل نظرتهم السابقة تفقد شيئا من قيمتها))(3). والواقع أن السعدي يبدو أنه غير مقتنع بفكرة التقنين والتخوم في الأدب . وبعبارة أخرى أنه يقسم الأدب بصفة عامة الى نوعين لا ثالث لهما : أدب ملهاة ،وأدب مأساة . وهو من انصار النوع الثاني ((الأدب مأساة أولا يكون)) . ويرى ان الالتزام صفة ملازمة لكل أدب أصيل سواء أكان قديما أم حديثا ،وهو يغالي حين يتحدث عن الالتزام في الآداب القديمة الأصيلة ،وأن الاولين عرفوا هذه القضية بما فيه الكفاية ((فاذا كان الأدب الملتزم هو هذا فان القدماء عرفوه قبل أن يعرفه المحدثون وألفوا فيه ما هو أروع فنا ،وأبعد مدى وأليق بالخلود من الكثير مما ألف المحدثون))(4). واننا لا نرتاح الى هذا الحكم العام ،فهو غير دقيق ،لأن القول بقدم الالتزام من غير توضيح ودقة ما يزال مثار اللجدل النظري بين الأدباء في وطننا العربي . ومثل هذه الاحكام العامة جعلت

---

1) محمد مصايف . النقد الادبي في المغرب العربي ،ط1 الجزائر ،ص، 244 .
2) المصدر السابق . ص : 244 .
3) المصدر السابق . ص : 246 .
4) السعدي . السد ،ط 1 ،ص : 263 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضهم يعتقدون - ومنهم المسعدي ضمنيا - بأن الأديب العربي القديم كان ملتزما لأنه وصف الواقع العربي الذي كان يتمثل في العصر الجاهلي على ألاقل في حروبهم وخلافاتهم . ويرفض بعضهم أن يكون الأدب العربي القديم ملتزما معللين ذلك بأن الأديب لم يكن له موقف واضح قائم على وعي اديولوجي تام باعتبار أن الوعي أساس نظرية الالتزام من ناحية ، و بأن الالتزام لم يكن معروفا من قبل اذ هو حديث النشأة . ((الالتزام مذهب فني حديث نشأ مع انتصار الاشتراكية مذهبا اجتماعيا وسياسيا بعد الحرب العالمية الأولى)) .(1) وليس الدكتور مصايف أول من يرى هذا الرأي بل هناك كثير من النقاد والدارسين في المغرب والمشرق العربيين يؤكدون أن قضية الالتزام من القضايا الفنية الجديدة ،((لقد نشأت فكرة الالتزام اذن في العصور الحديثة نتيجة لاحتكاك الاديب بمشكلات الحياة التي يعيشها وادراكه لخطورة الدور الذي يقوم به ازاء هذه المشكلات))(2) . (ونجد تقاربا كثيرا بين مصايف ومحمد الصالح الجابري) ربما اتفاقا في النظرة الى ان الالتزام من البدع الحديثة .

((ولكن الدعوة الى ما يشبه الالتزام تعد من البدع التي تفوقت الرومانسية نفسها في ذلك الحين)) .(3)

ولئن اعتبر مصايف أن نظرية الالتزام نشأت بنشأة الواقعية الاشتراكية اثر الحرب الكونية الأولى ،فان الدكتور عز الدين اسماعيل يمضي الى أنها ظهرت مع النزعة الرومانسية ((فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة ،هي وليدة عصرنا ولم يعرفها النظر النقدي في العصور

---

1) د . محمد مصايف ،النقد الحديث في المغرب العربي . ص : 249 .
2) د . عزالدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ط.2 . ص : 274 .
3) د . محمد الصالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر ،ط.1 تونس.ص: 262 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الماضية . والمصطلح نفسه - أعني الالتزام - مصطلح جديد في ميدان الأدب، لم يستخدمه القدمون ولم يعرفوه . والواقع أن مفهوم الالتزام قد ارتبط الى حد بعيد بمفهوم الأدب نفسه ، ومدى علاقته بالحياة ، وبالدور الذي يقوم به الأدب في توجيه هذه الحياة . . . وربما كانت أول عبارة في تاريخ النظر النقدي قد أحكمت الربط بين الأدب والحياة هي العبارة المأثورة عن الشاعر والناقد الانجليزي المشهور كولردج التي يقرر فيها أن الأدب نقد للحياة . فاذا قلنا أن الرومانتيكيين قد أحدثوا تحولا خطيرا في ميدان الأدب فان ذلك يرجع الى ادخالهم هذا المعيار الجديد الذي يجعل روعة الأدب وقيمته رهنا بمدى ما يتحقق فيه من نقد للحياة)) .(1) فاذا اختلف النقاد العرب في تحديد النشأه الحقيقية لنظرية الالتزام فان، جلهم يتفقون على انها وليدة عصرنا .

وجملة القول : فان هذه الرؤية المسعدية الشاملة لمفهوم الأدب وربطه بالوجودية والالتزام ، تحمل على الظن بأن الكاتب لا يؤمن بتعدد اشكال التعبير الفني ، ويحد نفسه بجنس أدبي وأحد . كأن الابداع لديه غير متنوع تنوعا كبيرا كما هو معلوم .

الالتزام والحرية عند المسعدي :

لئن كثر الجدل وطال حول قضية الالتزام عند النقاد العرب في جناحي الوطن العربي ، وتركز على كون الالتزام قديما أم حديثا ، وكونه التزام بجوهري الشؤون أم بقضايا الجماعة وبعبارة أخرى التزام بمشكلاتنا الفردية أم الجماعية أم هما على السواء . فان هذا الجدل النظري وان كانت

---

1) د . عزالدين اسماعيل . الشعر العربي المعاصر ط2 . ص: 373 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له فائدته التي لا تنكر في تنوير الاذهان فان الواقع العملي هو المعيار الحقيقي الذي تقاس به الظواهر والافكار . وكذلك تركز الجدل حول الايديولوجية والفن وعلاقة الفن بالايديولوجية في اشكالها المختلفة.

وتمحور الجدل بين الايديولوجية والفن وتطرق الى قضية جوهرية في نظرية الالتزام ،وهي تتمثل في السؤال الاتي : هل ان عملية الابداع الفني عملية فردية ؟ ام هي قوة ابداعية جماعية ؟ ولعل الاجابة على هذا التساؤل هي التي تشكل العلاقة بين الفن والمجتمع ،وبين الفنان والمجتمع ،ومن ثم فان الالتزام بمفهومه الذاتي العام لا يستطيع أن يبرز الا في ظل حرية الفنان أو الاديب ،لأن الالتزام لا يكون الا من الاديب الحر . وفي اطار الحرية والالتزام نسجل موقفين على الاقل لنقادنا في تونس : الموقف الاول هو موقف متأثر بالثقافة الغربية ومتشبع بها وخاصة بروحها المتحررة حرية تكاد تكون مطلقة في عملية الابداع الفني وأبرز من يمثل هذا الموقف المسعدي الذي يؤمن بأن تكون للاديب حرية فنية مطلقة .((فاذا كان الاديب هو هذا ،فان أوجب ما تجب حمايته له هي ((حريته)) ، لانها شرط قدرته وخلقه ولانه لا يستطيع بدونها أن يخدم العنصر الثقافي من القومية العربية الذي هو مهيأ للمشاركة فيه بالطبع)) . وواضح في هذا الحديث أن المسعدي يؤكد على أن حرية الاديب شرط أساسي في عملية الخلق والابداع ،وحافز هام للاديب كي يساهم في اثراء ثقافته القومية العربية ،ولا يقدر على أية حال من الاحوال أن يخدم ثقافته القومية بدون هذه الحرية المطلقة لأن حرية الفنان من أقدس ما تجب حمايته .((وحرية الاديب هذه التي تجب حمايتها . كأقدس ما يحمى من القيم البشرية ،لا تحتمل أي حصر ولا تحديد ،لانها في جوهرها مطلقة أولا تكون)) .(1) وهذه دعوة صريحة الى الحرية المطلقة

1) المسعدي تأصيلا لكيان ، ط 1 (تونس) ، ص : 69 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وغير المنقوصة . ولعلنا بهذا نرفع بعض اللبس الذي يصادفه القارئ في قضية الحرية والالتزام التي تناولها الدكتور مصايف في كتابه ((النقد الحديث في المغرب العربي)) . ومما ورد فيه قوله : ((والغريب في الأمور أن معظم المواقف في قضيتي الالتزام والحرية انما سجلت في المغرب الأقصى حيث يوجد نظام ملكي ، ومعارضة لهذا النظام . أما الجزائر وتونس فكان الكلام حول القضيتين كلاما عاما غير دقيق)) . (1)

ويأبى المسعدي الا أن يكون موقفه من القضية أشد وضوحا وأكثر دقة فيقول : ((فانه لا يكفي أن نهتق الأديب من رق المسؤوليات السياسية أو الدعاية لأوضاع اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية معينة لنضمن له حريته كاملة . بل يجب أن يكون اطلاقنا له في ميدانه الخاص - ميدان الأدب والفكر - اطلاقا كاملا لا قيد فيه ولا تضييق . فلا نحاول حصره في ايديولوجية معينة ، فنحطه على الماركسية مثلا أو على ما يقابلها من مذاهب فكرية غربية أو شرقية)) . (2)

وخلاصة القول ان المسعدي بحكم تشبعه بالثقافة الغربية وروحها المتحررة . وبحكم اتجاهه الفلسفي فانه يؤكد على حرية الأديب المطلقة خاصة في ميدان الأدب والفكر ، وهي دعوة صادقة لأنها نابعة من رؤيته الفنية العميقة ومن اتجاهه الفكري والأدبي والذي من أبرز مميزاته الدعوة الى الحرية المطلقة باعتبارها قيمة القيم .

---

1) المصدر السابق . ص : 59 .

2) د . محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، ط1 الجزائر ، ص : 264 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصـــــــل الرابـــــــع -

مقارنة بين وجودية المسعدي ووجودية الغربيين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من المعلوم أن الدراسات المقارنة لا تهتم الا بالعلاقات التي تقوم بين أدب وطني معين كتب بلغة قومية معينة ، وبين أدب أو آداب غريبة عن تلك اللغة القومية . وتهتم كذلك الدراسات المقارنة بالصلات التي تقوم بين أدباء وكتاب وشعراء يتشابهون في انتاجهم الادبي ولكنهم يتباينون في اللغة والحضارة وينتمون الى أعراق وقوميات قد تفصل بينهم حدود جغرافية وسياسية .(1)

والدراسات المقارنة تعني بتلك التنقلات والرحلات الأدبية والفكرية وهي حركة طبيعية ومتجددة ، من بلد الى آخر رغم الحواجز اللغوية والحدود السياسية ، وتجتاح بلدانا متجاورة أو بعيدة لتجعل من العالم كتلة واحدة ويخضع الأدب لهذه التيارات . والواقع ان رضوخ الأدب لهذه التيارات نعمة وليس نقمة اذ أن الأدب القومي اذا انطوى على نفسه ذبل وأصيب بالوهن وحل فيه السقم والضعف ولذا نراه يرتوي من المناهل الغريبة عنه ويتمثل بعض ما تقدمه له . ومن ثم يصح القول : ان أروع الآثار الأدبية القومية تعتمد دوما على الموارد الأجنبية والغريبة . ولهذا قيل ان اجمل الشعر ما ترجم .ان كل انتاج أدبي ينشد الروعة والكمال لا يبلغ ذلك الا بالأخذ والعطاء والانفتاح ولا يستطيع ان يصل الى مبتغاه بالانكماش والانطواء والتقوقع . وتنطبق هذه الحقيقة على الأدب العربي وعلى كافة آداب الأمم والشعوب فتتجلى عملية التأثير والتأثر كحركة ذات اتجاهين تعمل دائبة ونشيطة وفعالة ومتواصلة .(2)

وللأدب العربي تأثيراته وتأثراته ،فقد أفاد من الآداب القديمة كالهندية

---

1) دراسات في الادب المقارن ، ص : 6 .
2) نفس المصدر ، ص: 8 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والفارسية واليونانية ،عندما خرج العرب من جزيرتهم اثر الدعوة والفتح واختلطوا بشعوب ذات مدنيات مختلفة متقادمة ،ولها عقليات ونزعات متباينة فحصل التأثر الشامل وتوسعت الآفاق وازدهر الأدب أيما ازدهار .

ولا يضر أدبنا العربي أن تأثر بالتيارات القديمة والغريبة عنه . فقد أثر هوميروره فيما بعد في الغرب وأمد الآداب الأوروبية في العصور الوسطى بالشيء الكثير :

ودالت الدول وفترت العزائم العربية وانطوى أدبنا على نفسه وتقوقع فدب فيه السقم والوهن ، وجمد وتحجر وباتت سيمته البارزة الانحطاط . وخرجت الشعوب الأوروبية من بلدانها واختلطت بشعوبنا غازية ومتحدية لنا في عقر دارنا بعلومها المتطورة وآدابها المزدهرة وحضارتها الراقية .

وكان اندهاش شعوبنا واعجابها في آن واحد بما لدى أوروبا كبيرين . وبدأت عملية التأثر متواضعة محتشمة في البداية نتيجة صراع دائم بين الانطوائية والانفتاح ، بين الاخذ والرفض الى أن حصل ما يشبه الاجماع حول تركيبة فلسفية عجيبة مؤداها : ضرورة الأخذ عن الغرب ،أو ضرورة تطعيم الثقافة العربية بالغربية . وهكذا أخذت حركة التأثر تعمل دائبة نشيطة فعالة في سائر المجالات وبدون استثناء وفي كل أقطار الوطن العربي : ((الحوار مع الثقافات الاجنبية عنصر نمو وتطور اللغة والثقافة العربية)) (1)

وفي تونس يجد الباحث أن هناك أزمة حادة . انتابت جيل ما بين الحربين ، الذي تبنى نفر منه ادماج النظرية الوجودية في حضارتنا العربية ،كان هذا الجيل يعاني أزمة ثقافية حادة ،وكان يبحث بلا هوادة عن مخرج من هذه المحنة التي

---

1) فقرة أو عبارة مكتوبة على لافته بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع لوزراء الثقافة العرب بالجزائر ماي 1983 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعذب ضميره ونقض مضجعه . ان ذلك الجيل كان يعيش حقيقة مأساة حضارية ((الآم المنزلة الثقافية)) . ونجد صدى هذه الأزمة في النص التالي :((وما مأساة غيلان في الحقيقة الا مأساة جيل كامل من شباب تونس في أعوام ما قبل الحرب الأخيرة . طغت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية ،وتحصرها فيها ، ولا تطالب لها حلا الا في نطاقها . فتسربت اليه قيمها العاتية وصلفها الرومنطيقي الوهاج . فشوشت دواليب نفسه،واشعلت في قلبه الحيرة ،فقطعته عن أهله ،واستأصلته من أرضه)) (1) .

ولهذا النص قيمة خاصة لأن الذي دبجه ممن عاشوا تلك المأساة ومعاناتها ان المأساة التي كان شباب تونس يعاني منها قبل الحرب الأخيرة نرى لها مثيلا أو شبيها في مأساة الجيل الجديد في فرنسا ابتداء من الثلاثينات .

ما هي المتطلبات الثورية لهذا الجيل في كل من تونس وفرنسا ؟ والا م كان يتطلع هذا الجيل الثائر ؟

الواقع ان الدارس لفترة ما بين الحربين في تونس وفي فرنسا يلاحظ أن هناك تشابها يصل أحيانا الى حد التطابق فيما يتعلق بالقضايا الملحة المطروحة آنئذ والتي تقتضي حلولا عاجلة .

ولعل أبرز تلك المسائل هي : الا زمة الفكرية والثقافية . رفض الماضي رفضا مطلقا لعدم استجابته وملاءمته لمقتضيات العصر الراهن ،الدعوة الملحة الى ثورة مبدعة .

ورغم ان هذه القضايا مطروقة في مظانها بما فيه الكفاية فاننا نرى أن التعرض لها بايجاز لا يخلو من فائدة . فنقول : ارتفعت أصوات جمة في تونس مطالبة

---

(1) المسعدي . السد ، تحليل الشاذلي القليبي . ص : 209 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كذلك ((هذا الجو من اللاواقعية الثقافية الذي غمر الشعور الفرنسي عشية الحرب ... لقد عرف الكتاب الذين هم من أصل بورجوازي اغراء اللامسؤولية فهي أصبحت منذ قرن من الزمن تقليدا متبعا في مهنة الأدب)) (1).

وكنتيجة حتمية لتلك الأزمة الثقافية والوجودية اضطرب الأدباء والمفكرون وسغوا في اعمالهم الأدبية والفكرية . ((ان هذا الارث من اللامسؤولية قد بث الاضطراب في كثير من النفوس . فهي تشكو من ضمير أدبي مثقل ، ولا تعرف أبدا حق المعرفة . هل الكتابة شيء مدهش مضحك)) (2).

ويرجع سارتر أسباب تلك الأزمة الثقافية والحضارية الى نقاط ذكر منها : اللاواقعية الثلقافية أو اغراء اللامسؤولية . وأن الاتجاهات الفكرية الأدبية السابقة عطت على تثبيت هذا الشعور الثقافي اللامسؤول . وأن الازمة الجمالية المتمثلة في أزمة البلاغة ، وأزمة اللغة ، لا تقل حدة في فرنسا عنها في تونس ، أضف الى هذا كله موقف الجيل الجديد من تلك الأزمة الثقافية والوجودية في كل من تونس وفرنسا وهو موقف متماثل ان لم يكن متطابق .

وكما نهل شباب تونس من الثقافات الأجنبية والغربية ودعوا الى الارتواء من مصادرها كذلك نهل الجيل الجديد في فرنسا من ثقافات غربية عنه ولا سيما ثقافة ما وراء نهر الراين ودعوا الى الارتواء منها والتفتح عليها . ولا ننسى ان المسعدي قد تأثر بالثقافتين والبيئتين تأثرا لا يقل أحدهما عن الاخر.
((صحيح أني تأثرت في تكويني الأدبي بالثقافة الفرنسية تأثرا لا يقل عن تأثري بالثقافة العربية الاسلامية)) (3).

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو من أين استوحى المسعدي

---

1) سارتر ، الادب الملتزم (مواقف 1) ص : 5 .
2) المصدر السابق . ص : 7 .
3) المسعدي ، السد ، ص . 21 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اتجاهه الادبي ؟ ومن المفكر أو الاديب الذي أعجب به أكثر من غيره ؟ وهل يستطيع المرء أن يتبين مواطن التأثر في أعماله الابداعية ؟

هذه جملة من الاسئلة أعتقد انها تطرح في معظمها لاول مرة، سأحاول الاجابة عليها متوخيا الحقيقة والصدق ولا شيء سواهما . حقيقة وصدق ما ألفيته متشابها أو مماثلا بين آثار المسعدي الادبية وبين من هم أشد تأثرا بهم.

والواقع ان المسعدي قد تولى بنفسه ذات مرة الاعراب عن فئة من ألمع الكتاب العالميين الذين أعجب بهم ، وتفاعل معهم ، تفاعلا يتفاوت بتفاوت مكانة هؤلاء من نفسه . والمسعدي لم يبح لنا بأكثرهم أعجابا وأشدهم وأقربهم من نفسه . وتبدو هذه النقطة بالذات على شيء من الاهمية بالنسبة للبحث الجاد اذ تزيد في نصب الدارس وتحدد من امكانيات التعمق وتقصي مواطن اللقاء . لا سيما أن جل هؤلاء الكتاب يمتازون بغزارة الانتاج وتنوعه ، وعمق التفكير وتشعبه .

وعلى أية حال ، ومهما تكن الصعوبات فأنا توصلت الى حصر جملة من النقاط التي تبدو لي مماثلة ، وأولها أنه :

أظن أن المسعدي كان أميل الى المفكرين الكبيرين (سورين كركجارد) و (ابسن الذي يعتبر من أكبر المعجبين بكركجارد وبفلسفته الجمالية .

وقد تأكد ((أن مسرحيتي ابسن ((بيرجنت)) و ((براند)) اللتين تقابلان المرحلتين : الجمالية والدينية ، في حياة ((كيركجرد)) على التعاقب وما كان يمكن لهما أن تظهرا دون تأثير الفيلسوف الدينماركي)) (1) . وقد ظل ابسن طوال حياته معجبا اعجابا كبيرا بكيركجرد . وهذه الحقيقة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار في هذا الصدد اذ أن المسعدي قد اعترف ذات مرة أنه معجب

---

1) كيركجرد . سلسلة اعلام الفكر العالمي ، ترجمة ، مجاهد . ص : 171 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بابسن وتأثره به .

ولئن لم يذكر المسعدي الفيلسوف الدينماركي ضمن الذين أنكب على مطالعتهم في عهد التكوين الأدبي فانه ألمح اليه في حديث عام حول الوجودية والوجوديين على وجه الدهر فيقول : ((وهل بقي ما يفصل بين ((بروميتي)) في أصفاده ومأساته الدامية و ((سيزيف)) في مهزلة عبث جهوده القاسية أو بين ((كيركجرد)) في فلسفته و ((هاملت)) في سؤاله المحرق : أن نكون أولا نكون تلك هي القضية))[1] . وعلى أية حال فانه من المرجح أن المسعدي استلهم مصادر مختلفة من بينها الفيلسوف الدينماركي ،ولعله أقواها تأثيرا في أدب المسعدي وخاصة فيما يتعلق بالاطار الخارجي لاعماله الابداعية . ويمكن تتبع تأثير كيركجارد في معظم أعمال المسعدي ولا سيما فيما يتعلق بالنظرة الوجودية الاساسية ،كما يمكن تتبع هذا التأثير فيما يتعلق ببعض النقاط الخاصة الاخرى والتي منها مايلي :

أ ـ التصور الوجودي (لدى الرجلين)

الواقع ان التصور الوجودي لدى المسعدي وكيركجارد يتماثلان الى حد التطابق . فوجودية كيركجارد ليست معنية بالوجود بالمعنى العام للكلمة ،بل هي معنية بصفة خاصة بالوجود الانساني . وفي هذا المعنى تطرح المسألة نفسها ،فالمقصود ((ان يوجد الانسان كانسان ؟)) أو ما هي الطرق التي يمكن للانسان بها ((أن يوجد كانسان ؟)) . وفي نظر كيركجارد فان الوجود الانساني هو أولا وقبل كل شيء وجود في الزمن مقابل الوجود في الابدية . ((ان انسانا يولد ويعيش لفترة معينة من الوقت ثم يموت . وفي ظل أفضل الظروف يعيش ثلاثة أجيال وعقدا من السنين .

---

1) المسعدي . كتاب السد ،ط /2 (تونس) ص : 261 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدون أن يريد فانه (مدعو للوجود) في الديمومة المحدودة للغاية ومع هذا ((ان توجد هو الاهتمام الاكبر للانسان)) (1) . وبايجاز شديد فان الفيلسوف الدينماركي يؤكد على الوجود الانساني ولا يعنيه البتة الوجود الابدي أو العام وقد استلهم (سارتر) هذا المعنى الوجودي وضمنه كل آثاره الادبية .

وكذلك الحال فان المسعدي يلح هو الاخر على الوجود الانساني فيقول : ((انحصر عندي مفهوم مسؤولية الانسان الكائن الواعي لكيانه وهي أن يتساءل ما هو ؟ وما وظيفته في الوجود ؟ وما هي مسؤوليته ؟ وكيف يستطيع أن يصقل ذاتيته وشخصيته بصورة تجعله يحترم نفسه ، ويحترم انسانيته في نفسه)) (2) .

ويستشف من أعمال المسعدي الابداعية وأقواله أن الوجود الذي يقصده في كل ذلك انما يعني الوجود الانساني ، والوجود الانساني وحده في شكله الفردي أو الجماعي . ولا نفهم البتة من تلك الاشارات والاقوال أن وجوديته معنية بالوجود السرمدي الابدي ويقرر هذا كل الذين درسوا أثاره أو حللوها . ((فعالم المسعدي اذن عالم انساني يشيد بقيمة الانسان)) (3) . و ((انك لتلقي نظرة عامة الى الادب العربي كله فلا تجد أثرا واحدا نفذ لصميم الوجود ، أو قل لصميم مأساة الحياة ، نفاذ هذا الاثر الصغير الحجم ... هو من أشد آثار الادب العربي انسانية .(4)

ويشير المسعدي في مقال ناقش فيه اراء طه حسين حول وجوديته ، الى أنه تأثر بتلك الوجودية التي تركز على الوجود الانساني ، وهي وجودية قوامها ايمان الانسان بنفسه الى ابعد حدود الايمان .

1) كيركجارد - سلسلة اعلام الفكر العالمي ترجمة مجاهد ، ص : 100 .
2) محمود المسعدي - كتاب : تأصيل لكيان ط 1 . تونس . ص : 66 .
3) الشاذلي القليبي . مقال حلل مسرحية السد . ص : 207 .
4) مقال حلل فيه محجوب بن ميلاد السد . انظر السد ط 2 تونس . ص : 160-161 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحيث يجعل نفسه مقياسا للخير والشر ،ويحمل الانسان وحده تبعة أعمالـــه ولا يسأل عنها الا امام نفسه ،قبل أن يسأل عنها امام الجماعة وقوانينها ،فيقول: ((فالذي لا شك فيه اذن هو أن المؤثرات الادبية التي كان لها أثر في تكويني تنتسب حقا الى هذه الوجودية التي أشار اليها الدكتور طه حسين ، لكـــن لا في معناها الفلسفي الضيق بل في أوسع معانيها الانسانية)) (1) . على أن الوجوديين المحدثين يتفقون جميعا على أن الوجود لديهم يعني أولا وقبل كل شيء الوجود الانساني . و ((الوجودية فلسفة الواقع الانساني)) .

ب) معـــنى الوجـوديـــــة :

ما معنى فلسفة وجودية ؟ وما معيار هذه النظرية الوجودية ؟

الحقيقة أن الاجابة على هذه التساؤلات وغيرها يعثر عليها الدارس وكأنها واحدة لدى الرجلين ،كيركجارد والسعدي .

ان الوجودية الكيركجردية هي الحياة ولا شيء سواها ((أليست الحقيقة هي أن تعيش من أجل فكرة ؟))(2) و ((ان ما احتاج اليه حقا هو أن أتطابق مع نفسي عما يجب علي أن أفعل لا عما يجب علي أن أعرف الا اذا كانت المعرفة ستكون مقدمة للعمل . وما يهم هو فهم قدري وما يريده (مني) الله أن أفعله أن ما يهم هو اكتشاف حقيقة تكون حقيقية (بالنسبة لي) وأن أجد ((تلك الفكرة التي أعيش وأموت من أجلها)) (3) . والحقيقة التي ينشدها الفيلسوف الدينماركي ويريد أن يعيش ويموت من أجلها ، ليست سوى الحياة لذلك هو يريد أن يعيشها ويحققها ،لا يقبل أن يكون له مجرد رأي عنها . ووجهات النظار الثلاثة في الحياة

---

1) السد . ط 2 تونس . ص : 257 .

2 و 3) كيركجارد - سلسلة اعلام الفكر العالمي ،ترجمة مجاهد ،ص : 10 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي طرق مختلفة ثلاثة للحياة ، انها مراحل مختلفة ثلاث بها يمكن أن تعاش الحياة ولهذا فانه يحددها على أنها مراحل حياة أو ((مجالات الوجود)) . ووجهات النظر الثلاث هي : الجمالية والاخلاقية والدينية . ويؤكد كيركجارد بشدة أن المراحل الثلاث مختلفة اختلافا شاسعا . انها تخص طرقا ثلاثة مختلفة تماما للحياة لها جوانب مختلفة للغاية . ولا يمكن الانتقال من مرحلة الى أخرى الا عن طريق الوثبة (القذف) كنظرة جديدة للحياة عندما تختارها الشخصية بتمامها . ((ان رجل الجمال لا يمكن أن يصبح رجل الاخلاق بدون وثبة تغير من نظرته الكلية للحياة ، ورجل الاخلاق لا يمكن أن يصبح رجل الدين بدون وثبة)) (1) . وهكذا بالرغم من أن المراحل متمايزة بشدة الا أن كيركجارد يذكر ((مرحلتين انتقاليتين)) بين المراحل الثلاث الرئيسية .

وهما التهكمية والفكهة . ان المرحلة التهكمية هي الانتقالية من الجمالية الى المرحلة الاخلاقية . والفكهة هي المرحلة الانتقالية من الحالة الاخلاقية الى الحالة الدينية . ويبدو أن الفيلسوف الدينماركي يعتبر المراحل الثلاث أو الخمس بمثابة مراحل نمو في تطور الشخصية فهناك الطور الجمالي ، والطور التهكمي ، والطور الاخلاقي ، والطور الفكه ، والطور الديني . ونورد المثال الذي ضربه ((فريتيوف برانت)) (2) لهذه المراحل الخمس قصد التوضيح وهو مثال تخيلي : ((شاب يجد مكانته في الحياة . وربما يبدأ كرجل جمالي . وهذا نمطي للشباب . ان هدف الحياة هو بكل بساطة الابتهاج في الوجود . ويؤكد كيركجرد في بعض الفقرات أن الطفل هو ((طفل جمالي)) . وهو دون ارادة منه يتبع رغبته ويبحث عن رغبته . وعاجلا أو آجلا سرعان ما ينتاب الشخص الذي يكرس حياته تماما للذة ألم واليأس . فالشاب الصغير الخيالي يشب غير راض عن حياته ويتبين خواءها . وقد يحدث أن يظل في الدور الجمالي

---

1) كيركجرد - سلسلة اعلام الفكر العالمي ، ترجمة مجاهد ، ص : 39 .
2) أحد الدارسين لكيركجرد وأعماله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لبعض الوقت عندما يكون بين أصدقائه ومعارفه من أصحاب النزعة الجمالية الاخرين . ولكن في أعماق عقله تكون نظرته تجاه نزعته تهكمية .

وهكذا يجد نفسه في المرحلة الانتقالية بين الجمالي والاخلاقي .ولنفترض أنه ((يختار ما هو أخلاقي)) انه يجد الآن هدفا ومعنى للحياة في أن يعيش كعضو في المجتمع ،كرجل الواجب المسؤول عن أفعاله وفق معيار الخير والشر. والآن انه يجد هدف الحياة ومعناها في التطور الأخلاقي للشخصية وفي الحياة الاجتماعية والاسرية . ولكن هل هذا هو الهدف النهائي للحياة؟ ربما في يوم ما سيبدأ في الابتسام بخفة على الانسان الاخلاقي المتحمس الذي يعتبر هذه الحياة الزمانية وواجباتها ومسؤولياتها على أنها الحياة الوحيدة. ثم يصبح معتادا على أسى الحياة . وهو يبدأ يشعر بأن الحياة الاخلاقية ربما يجب النظر اليها ضد أرضية من الأبدية في اطار حياة أخرى سوف تأتي . وهكذا يكتشف في نفسه المرحلة الانتقالية الفكهة التي تبحث عن قهر متاعب الحياة بالفكاهة . وهكذا كما أن المتهكم يتمسك بموقف تهكمي تجاه النزعة الجمالية التي كان يمتنعها حتى (ذلك) الوقت والتي لم ينفصل عنها بعد انفصالا تاما ،فكذلك نجد أن المتهكم يتخذ موقفا فكها تجاه النظرة الاخلاقية للحياة عندما يظن أنها ذروة الأمور . أنه اذن في طريقه الى المرحلة الدينية التي لاتجد المعنى النهائي في الحياة الا ضد أرضية من الابدية))[1] وهكذا فان الشخص يتحول عن طريق (الوثبات) عبر المراحل المدرجة من الجمالية الي الدينية . غير أن كيركجرد لا يرى ضرورة لمثل هذا التطور نفسيا ومنطقيا . اذ أن بعض الناس يظلون جماليين طوال حياتهم ،وآخرون يظلون أخلاقيين وهكذا .))

كما يؤكد الادب الروحي للوجودية على ان الوجودية فلسفة حياة نرى

---

1) المصدر السابق : 40 - 41 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسعدي يحصر هو الاخر معنى الوجودية في الحياة ،ان الحياة عطية خلقية في جوهرها ،ولا تكون صحيحة ونبيلة حتى تكون مغامرة تضطر المرء الى الخلق والتجديد .((فالمأساة التي يصورها غيلان بحياته ونشاطه ليست مأساة ((سيزيف)) بل مأساة الحي تقتضيه الحياة أن يحيا وينشط ويعمل ويجهد دون فتور ولا وهن ولا تخاذل ولا يأس ولا جبن ولا احجام كأنه يعيش أبدا))(2). وحتى مفهوم الأدب عند المسعدي مستمد من فهمه للوجودية على أنها فلسفة حياة فيقول :((لذلك كان الأدب الخصب ، الأدب الثري ، الأدب المربي بالنسبة اليكم ،هو الذي يحدثكم عن أنفسكم ،ويحرك منكم مشاعركم وأفكاركم ،فيكون حديثا منكم اليكم ينسيكم المؤلف ويشغلكم عنه))(2). والانسان يتحدد وجوده وفقا لأعماله وعليه اذن أن ينحت مفهومه أولا ويسيطر عليه بالفكر والوعي الواضح ثانيا . وهذه العملية عملية نحت المفهوم - معرفة الذات والصفات أو الجوهر والعرض - والسيطرة على هذا المفهوم بالفكر النير والوعي البين ،هي التي تمثل جوهر فلسفة المسعدي فيقول عن فلسفته التي ضمنها كتابه حدث أبو هريرة قال :((والكتاب هو قصة التجربة الوجودية أو مغامرة الكيان الانساني ،قصة المسيرة الطويلة التي هي مسيرة الحي في سبيل الاضطلاع بمسؤولية الوجود الانساني))(3) ويشير المسعدي في مناسبات كثيرة الى معنى الوجودية عنده وهو لا يعدو أن يكون فلسفة حياة ((فالسد موضوعه تجربة انسانية لكنها تجربة محصورة الحدود والابعاد . فهي لا تروى قصة مغامرة وجودية تتناول جميع أطوار الحياة كما في ((حدث أبو هريرة قال)).(4)

---

1) محمود المسعدي - مسرحية السد ط 2 . تونس . ص : 265 - 266 .
2) محمود المسعدي - تأصيل الكيان ط 1 . تونس . ص : 66 .
3) المصدر السابق . ص : 68 .
4) المصدر السابق . ص : 75 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يتضح بما فيه الكفاية أن الوجودية في نظر المسعدي هي الحياة كما هو الشأن عند الفيلسوف الدينماركي . لكن ماذا عن اطوار فلسفة الحياة عند المسعدي ؟ يظهر أنه ليس من باب الصدفة أو توارد الممانعي أن يتفق المفكر ان على عدد مجالات الوجود أو مراحل الحياة ، ويتماثلان أو يتطابقان في معنى كل طور من هذه الاطوار . واليك الجدول التالي لبيان التشابه في المراحل والاتفاق والتطابق في مدلولاتها :

الوجودية تساوى فلسفة الحياة

مجالات الوجود أو مراحل الحياة : نمو الشخصية وتطورها :

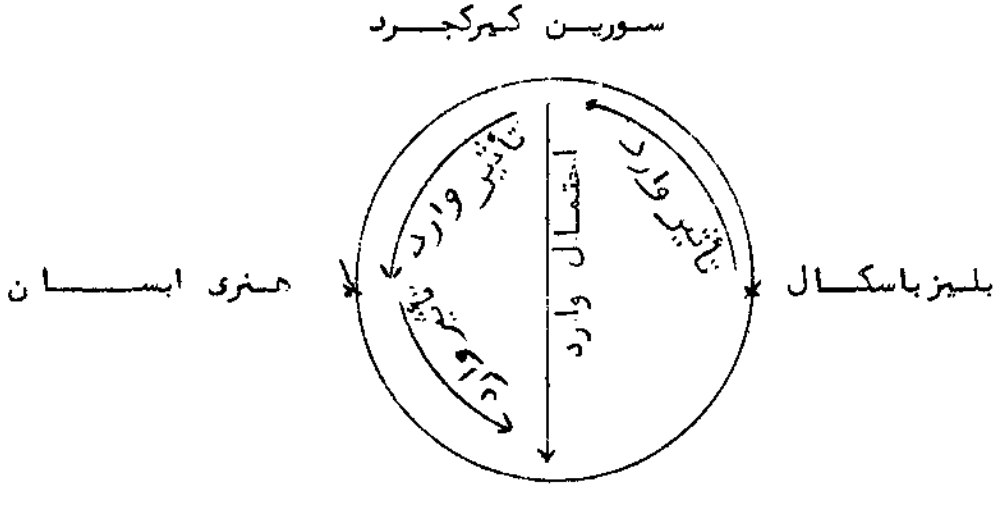

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- 1

أ -	المرحلة الجمالية	المرحلة التهكمية	المرحلة الاخلاقية	المرحلة الفكهة	المرحلة الدينية
ب -	مرحلة الحس والحب	الضياع	مرحلة الحيرة في الناس	الضياع	مرحلة الحيرة في الله والشوق والفناء

أو يمكن أن تختصر هذه المجالات الخمس الى ما يسمى بمراحل الحياة الكبرى .

- 2

أ -	المرحلة الجمالية	المرحلة الاخلاقية	المرحلة الدينية
ب -	مرحلة الحس والحب	مرحلة الحيرة في الناس	مرحلة الحيرة في الله والشوق والفناء
جـ -	الابيقورية	الرواقية	الدينية او المسيحية

ومن الجدول السابق يمكن أن نستنتج مايلي :

1 - تساوي مجالات الوجود الخمس لدى المفكرين وتطابق مدلولات تلك المجالات فلسفيا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 - حصول تشابه في المراحل الكبرى الثلاث واتفاق في الدلالات أيضا .

3 - لا نعلم أن هناك من اتبع هذه المجالات في فلسفة حياته عامة سوى أربعة : أولهم المفكر الفرنسي ((بليز بسكال))[1] . وثانيهم المفكر الدينماركي : ((سورين كيركجرد)) وثالثهم (ابسان) ورابعهم على التعاقب المفكر التونسي : محمود المسعدي .

والملاحظ أن المفكرين الاربعة ينتمون الى الفلسفة الوجودية والى الفكر الوجودي . وبما أن تأثر المسعدي بالمفكر الفرنسي غير وارد فصح لدينا الاعتقاد بأن عملية التأثير والتأثر تنحصر كليه بين المفكرين الدينماركي والنورويجي والمسعدي . ولما كان الفيلسوف الدينماركي يعتبر بلاريب الأ ب الروحي للنظرية الوجودية ، فان تأثيره يسري بصورة ما في كل الوجوديين المحدثين ومن بينهم المسعدي . وخلاصة ذلك أن المسعدي تأثر بصورة من الصور ، وبمباشرة أو غير مباشرة بالفيلسوف الدينماركي ، ولا سيما في الاطر السابقة الذكر .

ج - الوجودية جوهرها الذاتية .

الواقع ان كيركجرد قد اكتشف لنفسه حقيقة عندما كان شابا للغاية وظل طوال حياته متمسكا بها ومدافعا عنها بحرارة ، وهذه الحقيقة تقابل الحقيقة العلمية أو الموضوعية ، وما كان اكتشافه لتلك الحقيقة الا من أجل البحث عن معيار يعرف به حقيقة أو زيف فلسفة وجهات النظر للحياة . ولهذا يطرح المسألة الاساسية في تساؤلاته واجابته التالية : ما هو معيار حقيقة فلسفة للحياة ؟ هل كل فلسفات الحياة متساوية على أساس واحد ؟ أو أنه من العبث أن نبحث حقيقة أوزيف فلسفة للحياة ؟ . فيقول : ((اذا كان يقصد باللحقيقة

---

1) فيلسوف فرنسي كبير عاش في القرن السابع عشر (1622 - 1663م) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(الحقيقة الموضوعية) المكافئة للمفهوم العلمي للحقيقة اذن لن يتمكن الانسان من أن يقول أي شيء في فلسفة الحياة . . . واذا كان الانسان يقصد بالحقيقة (الحقيقة الذاتية) . اذن سيكون هناك معنى في التساؤل عن الحقيقة ،أي اذا كان الشخص المتسائل يعيش (في الحقيقة) بكليته فلسفته في الحياة . فاذا فهمنا الأمر على هذا النحو فان كل فلسفة للحياة يمكن أن تكون (حقيقة بالنسبة للشخص الموجود))(1) . ويصل كيركجرد الى الاستضاءة النهائية التي عبر عنها بدقة : ((الذاتية هي الحقيقة)) في مجال وجهة نظر الانسان للحياة .

وحسب تفكير الفيلسوف الدينماركي فقد أصبح لدينا حقيقتان أو مفهومان مختلفان للغاية عن الحقيقة . فما هو معيار هذين المفهومين في الحقيقة؟ متى يكون الشيء حقيقيا موضوعيا ومتى يكون حقيقيا ذاتيا ؟ ويجيب كيركجرد قائلا : ((من الناحية الموضوعية المسألة مسألة التعريفات+. وهذا يعني أن معيار الحقيقة الموضوعية هو معيار علمي ،معرفي . ومعيار الحقيقة الذاتية هو مقياس انفعالي وارادي (2) ويؤكد كيركجرد على أن الوجودية في جوهرها الذاتية بقوله : ((كل فرد هو بذاته عالم ،له قداسه الذي لا يمكن أن تنفذ اليه يد أجنبية)) . فالذات التي هي وحدة مستقلة الكيان تتصل بالغير عن طريق الفعل وهو ضروري لها بحيث أنه لا يمكن لها الا أن تعمل . وهكذا يتضح لنا أن كيركجرد يعتبر بحق رائدا لفلسفة الحياة. وأبا روحيا للوجودية التي في جوهرها الذاتية .

فهل وجودية المسعدي هي الاخرى فردية في جوهرها ؟

---

1) كيركجرد . سلسلة اعلام الفكر العالمي ترجمة مجاهد . ص : 102- 103 .
2) المصدر السابق . ص : 104 .
+ - الخاصة بالفكر ،ومن الناحية الذاتية المسألة مسألة الباطنية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نعم . ان المسعدي في كل ما كتب وحاور ، وحاضر ، أكد ويؤكد ويلح في التأكيد كلما سنحت له فرصة للتحدث عن فلسفته ، أو أدبه ، أن وجوديته انما هي ظاهرة فردية وحتى الذين تعرضوا لاثاره بالتحليل والتفسير والتعليل هم أيضا متفقون على أن وجودية المسعدي مفرطة في النزعة الفردية . ومن ضمن هؤلاء يقول محجوب بن ميلاد في تحليله المسرحية السد : ((. . هي ((الفردية)) في ضعفها وفي حدودها الضيقة تصطدم اندفاعاتها بعقبات الوجود وتنظر لنفسها وكأنها ((ذرة)) من الرمل ضائعة بين الرمال على الشاطئ المترامي فيتلاشى (مصيرها الفردي) في خضم ((المصير الشامل)) فتنثني انثناء الغصن أمام العاصفة وتعول / الا رامل))(2) . ويمضي الشاذلي القليبي في تحليله المسرحية السد أيضا الى أن هذه الوجودية ترجع الى عناصر فردية وتحصرها فيها . ((ومأساة غيلان في الحقيقة مأساة جيل كامل من شباب تونس في أعوام ما قبل الحرب الاخيرة . طغت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية ، وتحصرها فيها ، ولا تطالب لها حلا الا في نطاقها))(3) .

ويقول المسعدي وهو يتحدث عن مسرحية ((السد)) : ففيلان يعلم ، كما تعلم ميمونة ، أن الذاتية الانسانية ((فردية)) مقتطعة من ((الكل)) وانها بازاء الكون والالهة محدودة الامكانيات مقصورة القدرة)) . ويعرب المسعدي عن فلسفته الذاتية في مقدمة ((حدث أبوهريرة قال)) اعرابا لاغبار عليه : ((فهذه مجموعة من جملة كتابات لي يرجع بعضها الى سن الحداثة ، سن ايمان الانسان بالذات))(4) و ((هذا كتاب كتبه منذ

---

1) المسعدي . مسرحية السد ط 2 . تونس . ص 165
2) المصدر السابق . ص : 209 .
3) المصدر السابق . ص : 267 .
4) المسعدي كتاب تأصيلي لكيان ط 1 تونس المقدمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحقاب ،حين كنت أروم أن أفتح لي مسلكا الى كياني الانساني ،وأقضي حجا الى موطني المفقود : وفاء حنين الى الذات الجوهر الفرد)) (1) .
ويعترف المسعدي في محاضرة له حول أدبه خاصة بأن الفلسفة الوجودية هي لا تعدو أن تكون مغامرة فردية ،و ((ذلك أن القريحة . التي عنها صدرت هذه الكتب الثلاث ،كانت مفعمة باقتضاء جوهري فيه انحصر عندي مفهوم مسؤولية الانسان الكائن الواعي لكيانه ،وهي أن يتساءل ما هو ؟ وما وظيفته في الوجود ؟ وما هي مسؤوليته فيه ؟ وكيف يستطيع أن يصقل ذاتيته وشخصيته بصورة تجعله يحترم نفسه ،ويحترم انسانيته في نفسه ،ويتشرف بمغامرته الوجودية بما هي ظاهرة فردية لمغامرة الانسان في الكون)) (2) . وهكذا يستطيع القارئ أن يدرك ادراكا بينا من خلال النصوص المختلفة التي انتقيناها ،مدى التماثل بين التصور الفلسفي لدى كلا المفكرين : المسعدي وكيركجرد في أن الوجودية ذاتية في جوهرها .

د - بين حديث الحق والباطل والزلزال الأكبر : التحول الفعال .

قد تكون علاقة الربط بين هذين العنوانين اعتباطية الى حد ما ،وقد تكون الصلة بينهما متباينة ،لكن المناسبة التي دعتني الى المقارنة بينهما تبدولي وجيهة . ذلك أن كل تحول في ذهن الاديب أو المفكر ،وانتقاله من موقف الجمود والركود ،والانصياع الكامل الى موقف الرفض لكل ما ألفه الناس والثورة عليه ،ان ذلك لا يحدث أبدا بدون جوافز . فكيف حصل هذا التحول لدى الفيلسوف الدينماركي والمسعدي ؟ ولماذا تتبعنا هذا التحول لكليهما دون سواهما ؟

---

1) المسعدي ،كتاب : حدث أبو هريرة قال . ص 9 .
2) المسعدي . تأصيلا لكيان ط 1 ،تونس ، 66 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأينا في ما تقدم من هذا البحث أن كيركجرد يذهب الى القول بأن هزة مخيفة أثرت فيه على نحو مفاجئ وأصابه القلق والتشوش الذهني العنيف في ريعان الشباب . وقد عبر كيركجرد عن ذلك في يومياته وسمي هذا التحول بـ ((الزلزال الاكبر)) فيقول : ((لقد وقع آنذاك (الزلزال الأكبر) الهزة المخيفة التي أثرت في على نحو فجائي بتفسير جديد لا يخطئ لكل ظاهرة . ثم بدأت أشك في أن سن والدي المتقدمة ليست نعمة الهية ، بل هي بالاحرى لعنة ، ان القدرات العقلية البارزة لأسرتنا لا توجد الا لتعذب الاخرين ، ثم شعرت بصمت الموت يتزايد فيّ عندما رأيت في والدي رجلا تعسا قد يظل حيا بعدنا جميعا ، حجرا على كل آماله)) (1). ويورد الكاتب ((فريتيوف برانت)) تعليقه على النص السابق . . . . : ((وليس هناك الا شك واهن في أن ((الزلزال الاكبر)) و ((القانون الذي لا يخطئ للتفسير)) الذي كان هو العلة له هو الذي لعب دورا أساسيا كما لعب دورا حاسما في بعض المواضيع الحاسمة في بقية حياة كيركجرد خلال فترة الشباب . لقد شعر بأن الموت يتعقبه .

وليس معروفا القلق المخيف الذي انتابه من أي شيء يتكون وان لم تصعب معرفة أرضية القانون الذي لا يخطئ ، الخاص بالتفسير : ((ان الاسرة بكاملها يجب محوها)) (2). ولئن انشغل الباحثون انشغالا كبيرا بمسألة هذه الخطيئة التي يظن كيركجرد أنها تلقي بكاملها على عاتق الاسرة كلها وتفسير السبب الذي من أجله توقع عقوبة عليها لمحوها بالمرة ، فان الذي يهمنا ليس هو الخطيئة انما هو شعوره الحاد بأن الموت يتعقبه ، أنه قد يأتي في أية لحظة . لقد كان للفيلسوف الدينماركي سبعة من الاخوة والاخوات . وما

---

1) كيركجرد . سلسلة أعلام الفكر العالمي ، ترجمة مجاهد ، ص 11 .
2) المصدر السابق . ص : 12 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن بلغ سن الواحدة والعشرين حتى لم يتبق على قيد الحياة الا اثنان سوريسن نفسه وأخوه الاكبر بطرس) . أما بقية أخوته الخمس فقد ماتوا جميعا ، ويرجح أن الثلاثة الاخيرين من أخوته وأمهم ماتوا في ظرف قصير جدا : 1833 م 1834م . ولا شك ان كيركجرد قد تأمل مليا في عدد الوفيات الغريب. ثم وجد قانونه الخاص بالتفسير ،وهو يجب الاطاحة بالاسرة كلها لانه لابد أن هناك خطيئة تحلق فوق الاسرة كلها . أي أن الاسرة وقع عليها سخط الله ولعنته .

ويمكن للباحث أن يتبين من خلال مؤلفات كيركجرد الاخرى أن هذا الاخير كان يعتقد بشدة أنه لا يعيش اكثر من 34 عاما . ((عجيب أنني في الرابعة والثلاثين . ان هذا غير مفهوم بالمرة بالنسبة لي ،لقد كنت على يقين بأنني يجب أن أموت قبل هذا التاريخ أو معه حتى لقد أعتقدت حقا أن تاريخ ميلادي لابد أن هناك خطأ في تسجيله ،وأنني على هذا سوف أموت وأنا في الرابعة والثلاثين))(1) وعلى أية حال فان النقطة الرئيسية عن ((الزلزال الاكبر)) ليست هي ماهية هذه الخطيئة أو الخطايا بل اعتقاد كيركجرد النهائي في الاطاحة بالاسرة ومحوها من الوجود .ان شعور كيركجرد بالموت يتعقبه ، وتوقعه ألا يعيش بعد سن الرابعة والثلاثين ((ان الموت قد يأتي في أية لحظة)) هو علة افتضاحه دينيا والانغماس في مباهج الحياة بينما كانت هناك فسحة من الوقت ، ولذلك قيل انه رمى بنفسه وخاصة خلال عام 1836م في فترة مكثفة من الملذات .((هناك فرح (لا يوصف) يتوهج من خلالنا وهو فرح لا يمكن التعبير عنه بمثل ما لا يمكن التعبير عما انفجر به المسيح دون دافع ظاهر (ابتهجوا مرة أخرى أقول : ابتهجوا)- لا فرح بهذا الصدد أو ذاك ،بل صيحة النفس من صميم القلب (باللسان والفم ومن

---

1) المصدر نفسه ، ص : 13 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعماق القلب)) (1).

اذا كان التحول الوجودي الكيركجردي انحصرت حوافزه في الهزة العنيفة هلعه من أن الموت يصحبه ويترقبه في أية لحظة ،فما سبب التحـــول الوجودي عند المسعدي ؟

الواقع أنه عندما يتصفح الباحث ((حديث الحق والباطل)) من قصة ((حدث أبو هريرة قال)) يتبين الامر جليا في أن المسعدي بل بطله أبو هريرة كان يعاني معاناة شديدة من الموت الذي اختطف منه أخته التي كان يحبها ويشفق عليها ،وكان حادث موت اخته بمثابة الدافع الاساسي فـــي ذلك التحول الفعال ،بل أكثر من ذلك أن المسعدي اعتبره بمثابـــة الفيصل بين الحق والباطل : (حديث الحق والباطل) فيقول بشأنها ((كانت لـي بين السادسة والتاسعة من عمري أخت لم تعش الا ثلاث . وكنت أحبهـــا حب الشياطين للشر . وكانت ذات عاهات لا تدعها علة الا أصابتها أخـــرى . وكانت الى ذلك، بكماء صماء . أسأل في ذلك فيقال : هو القضاء . . وكنت كلما بكت بكاءها عطفت عليها وخففتها ،فهي بكماء حتى عن مطلق البكـاء تريده فتتوجع ولا ينشرح لها . وكنت أرعاها . . وكانت أمي تنكرها وتقـــول : هي من سقط أو عبث الاقدار . فلم تزل كذلك ثلاثا حتى نزلت بها يومـــا علة ذهبت بعينها ثم لم تلبث ان ذهبت بها ،فصحت وبكيت وندبت وطال عويلي . وحسبته الشيطان وقالوا : هو الله ؟))(2) . والواقع والحقيقة ان انسانا يعتبر مجمعا للعلل والعاهات والمصائب ، لا يثير موته فينا الروع والفزع بقدر ما أثارته في ((أبي هريرة)) موت أخته المنهكة بالعاهات . ومع ذلك فان موتها يحرك أعماق أبي هريرة فيتفلسف قائلا لرفقاء الدرب : ((دعوني . .

---

1) المصـــدر نفسـه . ص : 15 .
2) المسعدي : قصة حدث أبو هريرة قال ط 1 . تونس . ص : 83

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نصلي أولا نصلي ونسعد أو نشقى هل ترون فيه من خير أو شر ؟ ثم قال: شر ما في الدنيا أن الحياة عبث . بل لا أدري لعله خير ما فيها)) (1) .وأنه يظهر أن أبا هريرة وقع في نفس الافتضاح الديني الذي وقع فيه قبله الفيلسوف الدينماركي ،وذلك يتمثل في انغماسه في مرحلة جديدة هي مرحلة الرجل الجمالي الذي لا ينشد الا الابتهاج والمتع باعتبار أن اللذة فلسفة حياة وما عداها ترهات باطلة . ((انظروها ترهات لا تقر + وجه حق باطل ليس بير كالحياة)) (2) . والمفارقة الوحيدة التي يمكن تسجيلها هي أن كيركجرد الذي رمى بنفسه في فترة مكثفة من الابتهاج واللذة ابان الشباب . ندم على ذلك فيما بعد عندما دخل في المرحلة الدينية والتي تعتبر في نظره أسمى مراحل التفكير . واعترف بأن ما فعله في شبابه هو من قبيل نزوات الشباب وانحرافاته . في حين أن المسعدي ظل متشبثا بما ذهب اليه ولم يغير الى الآن أية موقف من المواقف التي تبناها بل نراه يدعو اليها في حماس منقطع النظير كأنه قانون كيركجرد الذي لا يخطئ التفسير .

- التثبيت على الأب .

نقصد بذلك أن شعور الابن بأن مصيره مرتبط أيما أرتباط بمصير والده ،وأن التأثير الابوي في الابن أمر طبيعي للغاية خاصة اذا كان في معناه الشامل . ولكن الذي شد انتباهي في هذا الصدد هو مدى التأثير الديني في حياة مفكرين وجوديين : كيركجرد والمسعدي . فان كليهما يقر هذا التثبيت على الأب ،ويؤكده في الحاح . فالفيلسوف الدينماركي رغم اعتقاده في أنه يجب الاطاحة بأسرته كلها ومحوها من الوجود فانه يعترف صراحة أنه مدين بكل شيء لوالده .((انني أدين بكل شيء لوالدي منذ

---

1) المصدر نفسه . ص : 84 .
2) المصدر نفسه . ص : 86 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البداية . وعندما كان يرى - وهو الرجل السوداوي - نظرتي الحزينة كان يقول: ((انظر انك تحب يسوع المسيح كما يجب))(1) . ويذكر كيركجرد أنه منذ صغره والى ما بعد ذلك قد تربى على أن الحقيقة يجب أن يكابدها ويجب التهكم منها والحط من شأنها .

ولقد اعترف الابن في كتاباته بأنه احتفظ بالتربية الابوية وتأثيرها الديني في أعماق قلبه ، وشكل هذا التأثير حياته كلها . ولقد ظل الانطباع السائد لهذا التكوين لحنا ساريا في حياته وقد جعله تعسا للغاية . ((لقد كانت المسألة برمتها مرتبطة ،بالعلاقة مع أبي أكبر شخص أحببته - فماذا كان يعني هذا ؟ انه يعني أنه كان مجرد الشخص الذي يجعل من المرء انسانا تعسا - ولكن من خلال الحب . ولا يكمن خطأه في نقص الحب ولكن في خلطه لانسان عجوز بطفل))(2) . ولكن رغم تلك التعاسة الانسانية فان الابن يظل شاكرا لابيه على الامد الطويل ،معترفا له بالحب الابوي الالهي : ((لقد تعلمت منه ما الذي تعنيه المحبة الابوية . وهكذا أعطيت مفهوم الحب الابوي الالهي ،الشيء الوحيد في الحياة الثابت الذي لا يتزعزع وهو النقطة الارشيدية الحقة)) (3) . ونجد هذا السر العجيب ،وهذا النغم الديني الساري في حياة المؤلفين المتباعدين حضاريا وعرقيا ومكانا وزمانا . يقول المسعدي في اهداء قصة ((حدث أبو هريرة قال)) : ((الى أبي رحمه الله ، الذي رتلت معه صباي على أنغام القرآن وترجيع الحديث ،مما لم أكن أفهمه طفلا ولكني صغت من ايقاعه منذ الصغر لحن حياة - ورباني على أن الوجود الكريم مغامرة طهارة ،جزاؤها طمأنينة النفس الراضية في عالم أسمى وفي أثناء ذلك كله

---

1) كيركجرد . سلسلة أعلام الفكر العالمي ،ص : 7 .
2و3) المصدر السابق ،ص : 8 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علمني بايمانه سبيل ايماني))[1].

وخلاصة القول ان قصة حدث أبو هريرة قال تستلهم رؤيتها الذهنية وأطارها من فلسفة الحياة عند كيركجرد . ويمكننا أن نلاحظ أن التأثير لا يقتصر على ما ذكرت * لئن يسلم المرء بالخلافات العديدة بين النظريات الوجودية وبين الوجوديين أنفسهم فهل يعثر على ملامح مشتركة عند الوجوديين في زماننا ؟ الجواب لا يمكن الابالاثبات ، ذلك أن الوجوديين جميعا يتفقون أولا وبصورة طبيعية فيما يتعلق بالمفهوم الذاتي والعاطفي والارادي (الحقيقة الذاتية ومعيارها) للحقيقة وهذا هو جوهر المشكلة . ثانيا فيما يتعلق بالنظرة للحياة والانسان وهي نظرة كئيبة ، سوداوية لدى كبار الوجوديين كما هو الشأن لدى كيركجرد فان الانسان يعد غريبا في هذا العالم . ان كل شيء يمكن أن يتسبب في القلق والاضطراب . وعند سارتر نجد فكرة غثيان معين بالنسبة للحياة ووظائفها . وثالثا ان الوجوديين البارزين لا يؤمنون بالجبرية ويقولون بحرية الاختيار وهي علامة على نبالة الانسان . والمسؤلية العظمى ملقاة بثقلها على الانسان وعلى أفعاله والتزاماته لأن حرية اختياره مفترضة ومتوقعة . وهذا الموقف نفسه هو معارض بشدة للجبرية السائدة في عصرنا .

وهكذا يبدو لنا أن وجودية المسعدي تلتقي بالوجودية الغربية في كل معانيها كالارادة ، والحرية والمسؤولية واللاعقلانية او العبث والفعل والقلق والالتزام والحرية . وبعبارة موجزة تلتقي بالوجودية في جميع مميزاتها السبعة المعلومة لدي الجميع . وعلى هذا الاساس فانني توصلت الى قناعة أن أصالة المسعدي الفنية ليست في الاطر المنتقاة ، ولا في جملة الاراء والافكار التي ضمنها تلك الاطر ، وانما هي تكمن بالدرجة الاولى في لغته وأسلوبيته ، أو تقنياته الفنية .

فما مدى هذه الاصالة الفنية من خلال اللغة ؟ ومن خلال تقنياته الفنية ؟ ان الاجابة على هذه المسائل تمثل محتوى الفصل القادم ان شاء الله .

---

1) المسعدي . قصة : حدث أبو هريرة قال : ط 1 ، تونس ، ص : 7 .

*) فحسب بل بأمكان الباحث أن يعثر على أكثر من ذلك في الاراء والمعاني وغيرها من الجزئيات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفصل الخامس -

أسلوب السدي و تقنياته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواقع ان الحديث في الأسلوب الأدبي لدى كاتب عبقري مالا يتسنى الا اذا كان الدارس متحليا بمنهج الممارسة النقدية والأصول المعرفية اللازمة . وانـــي لا أحمل نفسي على الرياء والادعاء بما ليس لها الآن حق ادعائه . على أنـــي أروضها في جهد عسير علها أن تطمح الى ذلك وتظفر به وتسيطر عليه سيطـــرة دقيقة بالفكر النير والوعي البين كما يقول المسعدي. وينبني على هذا أن دراسة أسلوب المسعدي وتقنياته لا ترقى الى مستوى الدراسات الجمالية العالية . وتكتـفـي في البدء أن تكون عبارة عن جملة من الآراء والملاحظات المعتمدة على النصوص المنتقاة .

الجـدة والطـرافـــة.

لقد احتدم الجدال منذ أمد بعيد حول فكرة سرعان ما نمت وصارت نظرية فلسفية مفادها أنه ينبغي الوصول الى تركيبة جديدة من مقولتين متناقضتين وهما : الثقافة الغربية ، والثقافة العربية الاسلامية . والتركيبة الجديدة تكمن في الوصـول الى ثقافة تجمع بين المقومتين المتناقضتين . وتتمثل هذه التركيبة الجديدة لدى التونسيين في ما يدعى بالتزاوج المتوازن بين الثقافتين العربية والفرنسية.(1).

واشتدت هذه النزعة فيما بين الحربين العالميتين خاصة وساعد على ذلـك الغاء نظام الخلافة الاسلامية ، مما دعم الرأي السديد آنذاك في ضرورة الاعتمـاد على المقومات الذاتية في بناء النهضة واعادة الكرامة القومية . فنشأ اثر هذاالتفاعل ميل أدبي خاص ، وسيكون لهذا الميل أثر كبير في الشخصية الأدبية التي عاشـت

---

1) د فريد غازي ، القصة التونسية (بالفرنسية) ص.40.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ذلك الزمن . واتجه هذا التحول الى التيارات الفكرية والأدبية المتواجدة على الساحة العربية كاستجابة لمقتضيات مرحلة معينة من مراحل نمو المجتمع وتحولاته ، وتجسدت هذه الاستجابة في تبني الاتجاه الاتباعي الجديد ، ثم تجاوزته ملابسات المرحلة ، وأتجه الميل الى المدرسة الرومانتيكية التي سرعان ما تفسح المجال لغيرها من التيارات الحديثة ، وهكذا لم يمض وقت طويل حتى نرى كثيرا من الاتجاهات الحديثة تتفاعل وتتعايش جنبا الى جنبا ابان الثلاثينات من هذا القرن الأمر الذي حمل بعض الدارسين في تونس على الاعتقاد بأن فترة الثلاثينات تجسم وتمثل العصر الذهبي في الأدب التونسي (1) الحديث . ومنذ ذلك الحين ارتسمت ملامح الذاتية التونسية ، وهي شخصية ذات أبعاد ثلاثة ، أنها شخصية متشعبة ومتفتحة ((والعمل من أجل الأدب التونسي ، والدفاع عن مقومات الثقافة التونسية التي هي عربية اسلامية وفي نفس الوقت متوسطية ومتفتحة))(2).

هكذا اندفعت ثلة من النخبة المثقفة الى المنهل الثر تنهل منه نهلا ابتغاء المساهمة في الحداثة والمعاصرة ، وما كان ذلك الا نتيجة لعوامل نفسية وذهنية ووجودية وحضارية . ويتنزل أدب المسعدي في هذا المجال فهو أدب يعبر عن مشاكل الانا وعن حقيقة مأساة جيل بأسره . ((ومأساة غيلان في الحقيقة الا مأساة جيل كامل من شباب تونس في أعوام ما قبل الحرب الأخيرة .. طغت عليه نزعة من نزعات الفكر الغربي ترد مشكلة المنزلة الانسانية الى عناصر فردية وتحصرها فيها ، ولا تطلب لها حلا الا في نطاقها ، فتسربت اليه قيمها العاتية وصلفها الرومانطقي الوهاج . فشوشت دواليب نفسه ، واشعلت في قلبه الحيرة ، فقطعته

---

1) د . جعفر ماجد ، الصحافة الأدبية في تونس من 1904 الى 1955 . (بالفرنسية)

2) مجلة الفكر سنة 26 ، عدد 4 ، ص 9 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن أهله ، وأستأصلته من أرضه . ثم اذا هو يتساءل عن قيمة سلوكه ، فيعود الى أهله كالمسافر الغريب يسألهم عن سر موقفهم من الوجود وفهمهم للكون ، ويحاسب نفسه))[1] . وقد كثر الحديث عن وظيفة الأدب ، وهل هي وظيفة نفسية روحيـــة ، أم هي ضرورة خدمة الأديب لقضايا وطنه وأمته ؟ والواقع أن أبا القاسم الشابي يعتبر الأدب عملية فردية لا علاقة لها بميول الشعب ، ويحصر أثرها في النفس بما فيها من احساس وعاطفة .

((ولكي تدرك هذه الحقيقة فأنظر هل هو — الشعر — من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها تحس بتيارات الوجود أكثر مما كانت تحس ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك ، وينسيك وجـودك الانساني لحظة لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبغ منه على نفسك . أقول انظر فان كان من هذا النوع فأعلم أنك تقرأ شعرا الهيا لا تجود بمثله الحياة كثيرا ، والا فأعلم أنك تقرأ مثلا دون ذلك))[2] . فان رسالة الأدب أصبحت رسالة تعليمية روحية بالمعنى الفلسفي والجمالي للكلمة . وهناك من نظر الى هذه الرسالة نظرة أكثر تجريدية ، هي أقرب الى المذهب الرومانسي ((الأدب رؤية كيانية صميمة)) وأنه ((لم يعد هواية ودندنة أوتار كما لم يعد مظاهرة تنزل الى الشارع لتغلق الدكاكين))[3] ، ان الرؤية الجديدة والفهم الجديد للأدب ، تقدمان للقارئ ، أسلوبا جديدا في التفكير ، وطريقه خاصة للكشف عـــن حقائق الوجود واسراره .

---

1) محمود المسعدي ، مسرحية السد ، ط 2 تونس ، ص 209 .

2) مجلة العالم : س1 ، ع1 ، غرة جانفي 1930 ، ص17 .

3) مجلة الفكر : ص18 — 19 . س1980 . ع 6 . ص18

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبلغ القلق الى الشمول والتجريد لدى بعض أدبائنا في النصف الأول من هذا القرن ان رفضوا رفضا باتا الاهتمام بالوطنيات والاجتماعيات ، داعين الى الارتفاع بأرواحهم الى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء البيئة المحدودة ، والاهتمام بالحياة الخالدة ، وأسرار الأزل والأبد ، وفيض الحياة . ومشكلة الأنا كظاهرة فريدة في عصرنا الراهن ، ((ان نظرة الشابي الى الأدب بعامة ، والشعر بخاصة ، أدق نظرة تعبر عن وجهة النظر التأثرية أو الرومانسية . فهو لا ينسى موقفه الذاتي من الظاهرة الأدبية في أية لحظة)) [1] وهكذا يتجدد الأدب ، ولا يعدو أن يكون حياة ، حياة النفس ، وحياة الوجود والناس، وأدب المسعدي لا يعد وهو الآخر أن يكون حياة ، وكينونة بما هي ظاهرة فردية .وأن مقاصد أبطاله تعتبر بحق مقاصد جديدة لم يعرفها الأدب العربي من قبل ،فبطل مسرحية السيد رغم عناده واصراره وتمرده على كل المألوفات والتقاليد والحدود فانه يجسم ارادة الخلق والانشاء والتعمير بصورة طريفة وجديدة ولا تقل رؤية البطل ((أبو هريرة)) طرافة وابتكار ، عن ذلك وهذه الرؤية الجديدة هي ارادة المطلق ، ولابطال المسعدي الأخرين فلسفات ومواقف مستحدثة ، كارادة الخلود ، والطهارة ، وارادة الفعل . وبكلمة واحدة فان مواقف هؤلاء الأبطال تجسم الرؤية الوجودية الحديثة كما تصورها الحضارة الغربية التي بأدبها أحستها ووصفتها ، وبفلسفتها محصتها . ولا شك أن طرافة الأفكار والمعاني ، وتجدد الرؤية أو النظرة الكلية للكون ، تقتضي من الأديب المبدع أسلوبا جديدا يحقق الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون في الأثر الأدبي ، ويعتبر أدب المسعدي رائدا في هذا المجال اذ ان موضوعاته بأسرها عميقة من الناحية التراجيدية الأمر الذي يلائم طبيعة الأدب البطولي ، وأن رؤيته الفنية الدرامية تنفذ الى حقيقة الأشياء في الكون ، وهو سر جمالها كما يتبين لنا في ما يأتي :

---

1) د . محمد مصايف . النقد العربي الحديث في المغرب العربي .ص 113 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عـلاقة أدب المسعدي بالواقع·

انه لمن مستلزمات الأسلوب وتقنياته أن يناقش الدارس علاقة الأدب بالواقع اعتقادا منه أن الأدب وظيفة اجتماعية بغية تبين مدى عمق صلات هذا الأدب بظروف الناس ، وقضايا المجتمع الذي انبعث فيه الأثر الفني · وقد أشرنا فيمـا سبق الى أن مأساة غيلان بطل مسرحية السد للمسعدي انما هي في الواقع مأساة نخبة من المثقفين التونسيين فيما بين الحربين الكونيتين طغا في نفسها الشوق الى ضرب من أدب الأفذاذ والبطولة على نحو معنى البطولة في الأدب والثقافة الغربية ((وكان ذوو الأفكار التجديدية المتطرفة فيمن تحرك بهذا الداعي الجديد ،فأبتدأ الناس يسمعون نغمات متحررة تتصل بالمبادىء التي كانت حملات الصحف قضـت عليها في الدور الماضي ونسبتها الى الالحاد))(1)·

واذا نحن تذكرنا الفترة التي أنشأ فيها المسعدي أعماله الأدبية ، وهـي فترة يحددها هو نفسه بكونها تمتد من 1933 الى 1940 م ندرك تمام الادراك ان هذه الفترة تتميز بشئين هامين ، أولهما أن جل الصيغ الوجودية الفرنسية قد تشكلت في هذه السنوات · وثانيهما أن هذه المرحلة حاسمة في تاريـخ العالم كله : تفاقم الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية · أما عـلى المستوى المحلي فان الأوضاع شقاء وبؤس واجحاف ومهانة ، " استعمار جاثم علـى قلوب المواطنين وعقولهم ، يتحكم في طرق النشاط ووسائل الانتاج ويحرم عليهـم الاسهام في بناء شخصيتهم القومية ويحدد بل يعرقل مساهمتهم في ترقيـة الحضارة مثلما تفعل الأمم الحرة "·(2) ان هذه المعطيات المحلية والدوليـة أرضخت الشاب محمود المسعدي الى حالة من اليأس ، والعزلة والتقوقع · فكـان

---

1) ابن عاشور ، الحركة الفكرية والأدبية بتونس ، ط 1 ، ص · 160·
2) طه حسين ، السد · ص 245·

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدبه انعكاسا لنفسه المغرقة في الذاتية الفردية ، وكذلك انعكاسا لأمثاله من جيله - وهم قلة - المبتورين عن جذورهم . ولم يأت أدبه انعكاسا لتلك الجماهير التي تئن تحت وطأة الاستعمار غضابا ومتطلعة الى تغيير ما بها ، ناشدة الغد الأفضل .

ويعترف المسعدي في مناسبات جمة أن رؤيته الأدبية ذاتية محضة وأنه دبج آثاره الفنية في عهد انفراد وتأمل . ((هذا كتاب أردته صدقا لا يختلف معه وجه الحقيقة في الوحدة والسر ، عن وجهها في الجماعة والعلن . كتبته في عهد انفراد وتأمل ، وامتحنته بعد العشرة والعمل مع الناس سنوات ، فلم ألفه في جوهره تنكر لي ، ولا أنكرت منه . فأخرجته على علاته))[1] . ونلحف كثيرا على أن آثار المسعدي مقاصدها ذاتية وأنانية ، ذات نزعة انسانية عامة ، بفعل ظروف الحرب الكبرى التي ظهرت فيها ((فاضطرته الحرب الى أن يحمل قوقعته الهشة كالحلزون لكي ينجو من تساقط شظايا القنابل ... وينسج خيوطه كالعنكبوت يبدع له عالما من السلام والأماني والخلود ... عالما لا تطوله النكبات والأحزان يرى فيه الانسان نفسه مسؤولا عن الانسانية قاطبة ... عالما ينتفي فيه الصراع والفتك والجريمة))[2] . ويلمح الدارس في أعمال المسعدي الأدبية ملامح متوسطية[3] وتعتبر هذه الناحية بالذات أحد جوانب الهوية الثقافية التونسية . ((والعمل من أجل الأدب التونسي ، والدفاع عن مقومات الثقافة التونسية التي هي عربية اسلامية وفي نفس الوقت متوسطية ومنفتحة[4]

---

1) مسرحية السد ، ط 2 ، تونس ، ص 9 (المقدمة)

2) د / محمد الصالح الجابري ، دراسات في الأدب التونسي ، ط 1 الدار العربية للكتاب ص 72 .

3) مجلة الفكر ، س 26 ، ع 4 ، جانفي 1981 .

4) تقديم ، د / توفيق بكار لـ (حدث أبوهريرة قال)) . ط / دار الجنوب للنشر تونس) ص 39 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وآثار المسعدي الأدبية هي بنات أصيلات لعصرنا يحتضنه احتضان الشوق والفناء ليعبرن بذلك عن خط تطوره العام وعن ميله الأصيل المميز ، أنه عصرنا ، عالمه مأساوي ، وبلا حدود ظمأه الى المطلق ، وبلا جدأل حياته غامضة ، غير واضح معناها ، ويعثر الدارس على صدى هذه المعاصرة لدى جميع من كتبوا عن المسعدي وحللوا أعماله وقيموها . ((على أن هذه القصة وان انبثقت دلالتها من واقع عصرنا في تجاوز مستمر لذاتها تصير مع الزمان ولا تكون . فهي ككل أدب حي منتهية متجددة : منغلقة من حيث هي أجوبة نهائية — على رؤية صاحبها وايمانه بأن المأساة حقيقة الانسان في الكون ومن حيث هي أسئلة جذرية عن معنى الوجود منفتحة على القراء اليوم وغدا تحض الضمائر حتى لا ترضى أبدا بالواقع المعطى وتحفزها أفرادا وجماعات الى تبديل الحياة جيلا بعد جيل وأفضل فأفضل))(١) وليمن طفا المسعدي فوق قضايا مجتمعه ، فانه تجذر بشدة في التراث، وانه لم ينقطع عن أصوله الحضارية والثقافية بل هو متجذر بقوة في الحضارة وداع متحمس الى بناء ثقافة وحضارة أصيلة متجددة تمتد جذورها الى الماضي السحيق وتتعانق أغصانها في صميم الحداثة والمعاصرة .

الشكل والمضمون .

انه رغم الايمان السائد والمتزايد بضرورة الحدة العضوية في العمل الفني ، وأن الشكل والمحتوى في العمل الفني الرفيع لا ينفصلان أبدا باعتبار أن المضمون فيض تلقائي لعواطف قوية ، وتعبير عما في الداخل — داخل الفنان — ، ونحن لا نميل الى تفضيل الشكل على المضمون مثل ما نعل الاتباعيون ، ولا نرغب في تفضل المحتوى على القالب شأن الرومانسيين ، وانما نمضي على اتفاق مع الواقعية الحديثة مركزا على الاهتمام بالشكل والمضمون في وحدة عضوية غير قابلة أبدا للمفاضلة .

١) د. توفيق بكار. مقدمة حدث أبو هريرة قال . ص : 39 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولهذا فان الفصل بين المحتوى والشكل لا يمثل غائية في ذاتها ، بقدر ما يسمح ذلك للدارس من تبيان مزايا المؤلف في بنائه الفني القائم على أساس الوحدة العضوية .

أشرنا سابقا الى مضامين المسعدي في شيء من التفصيل وبينا أنها جميعا عبارة عن مواقف ووجهات نظر تنصهر كلها في بوتقة واحدة هي مجال النظرية الوجودية الحديثة . اذن نكتفي الآن بالتعرض لمعطيات الشكل وخصائصه الفنية.

روايـــــة الســـــــد .

يعتبر السد في نظر مؤلفه رواية ذات مناظر ثمانية . ويعده بعضهم مسرحية رمزية . وهناك من يرى أنها تتأرجح وتتدلى بين القصة والتشيل .

والواقع أنها من نوع التمثيل المقروء ، أو تمثيل العرائس . وقيل أنهـا مثلت في تونس وكان الجهد المبذول لا يعادل أقبال النظارة أو المتفرجين .فالسد تمثيل له مناظر ، ولكل تمهيده ويربط هذه المناظر سياق زمني جلي ، وهنـــاك حوار متتابع يجري على ألسنة بطلي الرواية ويصور كائنات تتشخص وهواتف . الا أن هذا النوع من المسرح يخلو من الفصول التي تنتظم المشهد الواحد أو المتعددة. ((خيل الي أن أتصورها قصة مرسلة .

ولكن تقسيمها الى مناظر واعتمادها على الحوار جعل فيها من خصائـــص الدراما عناصر ، ومن خصائص القصة الحرة المرسلة عناصر أخرى . وخير لنـــا أن نعد هذا السد في منزلة بين المنازل : بين الشعر وبين النثر بين الدرامـا وبين القصة)) (1) ولما كـان السد يحوي خصائص أكثر من فن أدبي واحد ، ووائـــم

---

1) من تعليق للدكتور عبد الحميد يونس. السد ط 1 تونس ، ص 87.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين ظاهرة الشعر والنثر ، ومزج بين كثير من عناصر القصة والمسرح ، احتفظ لذاته بين الفنون بشكل خاص وقالب متميزة ٠((وكنت أريد أن استطرد في تحليل هذا الاثر الأدبي الذي لا أريد أن اسلكه في نوع بذاته ، فهذا شأننا معشر النقاد ٠ وأما المبدعون فلا أظن أنهم يفكرون في الاطار والقالب والمقياس : بقدر ما يفكرون في تحقيق الحياة بالتعبير عن الحياة))[1] فالسد ما كان ليكون كذلك لولا أن صاحبه أراده تجربة قصوى في الكتابة الفنية)) ٠ وهكذا يتبين أن السد يمثل تجربة فنية قصوى تجمع بين خصائص الفنون الأدبية وعناصرها مما جعل من المتعذر تنزيلها في شكل فني معين ٠

مولد النسيان وحدث أبوهريرة قال ٠

ان عالم الفكرة والتأمل ، وعالم البعد الواحد يدركها القارئ في سائر أثار المسعدي الابداعية ، والتي نلمح الى تحديد معالم عالمه وتوضيح سماته خاصة في روايتين بديعتين هما ((مولد النسيان)) و((حدث أبوهريرة قال)) ٠ اللتان كتبهما المسعدي في نفس الظروف التي ظهر فيها السد أي ابان الحرب الكونية الثانية ، في غمار الفوضى والضياع والجنون السائد آنذاك فاضطر المؤلف الى الانزواء والتأمل ٠ ان شكل مولد النسيان هو عبارة عن مسرحية خيالية تتركب من تمهيد وسبعة فصول* ٠ وهي تشبه في اطارها ودلالتها قصة سويفت الذي بنى فيشبابه مستشفى

أما قصة حدث أبوهريرة قال ، فقد نزلها جل الذين درسوها في اطار التجذير الثقافي ٠ لماذا يا ترى ؟ ذلك أن المسعدي اصطفى عن وعي أو عن تقليد ، شكلا فنيا عريقا في ثقافتنا ، اشكال الخبر أو السرد كما يوحي به عنوان القصة ((حدث ٠٠ قال)) ٠ وقلنا أنه شكل اقتضاه التنظير، وفكرة "الانطلاق عود على بدء".

---

1) المصدر نفسه ، ص٠ 88 ٠

2) د٠ توفيق بكار ٠ مقدمة حدث أبو هريرة قال: ص٠401 ٠

*) للمجانين ولما كبر دخله ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعبر استاذنا المحترم الدكتور بكار عن الحداثة في قالب القصة في شيء من الاعجاب والحماس قائلا : ((عاد — المسعدي — الى أعماق التراث فاستمد منه أعرق أشكال السرد عند العرب : الحديث أو الخبر لا ليقلده بروح سلفية عقيم بل ليعيد اختراعه بقوة الذهن الحديث .. فخلافا لما وردت عليه الأحاديث في التصانيف القديمة من سائج النظم ووزعها المسعدي في قصته حسبما تقتضيه أحدث أساليب البناء القصصي فنصلها على مواقف وأحداث متقطعة تتداعى معنويا أكثر مما تتلاحم زمانيا لأنه كسر خط الزمان وتصرف فيه طرد أو عكسا بما لا تنكره آخر تقنيات ((الرواية الحديثة)) . ويضيف الأستاذ قائلا : ((وبديهي أن تكاثر الأزمنة يكثف القصصية في الخبر لأن كل راو — وهذا أعجب ما في وظيفة السند — حكاية مسكوت عنها في النص .. كل متن في الخبر يندرج في اسناده كقصة داخل قصة ودائرة في دائرة أوسع . (تمثل الأمر سينمائيا تدرك حقيقته) . ولا تنقفل آخر دائرة في النص الا انفتحت أخرى خارجه لأن سلاسل الرواة تفضي الى الكاتب ومنه الينا فيصبح القارئي بدوره من المحدثين ... وحلقة في اسناد القصة)) (1) ومقاصد الدكتور من هذا التحليل متجلية في أن شكل القصة (حدث أبوهريرة قال)) شكل مضاعف ، أو قصص مضاعف حسب عبارته : ((أبوهريرة — شكلا — قصص مضاعف : قصة تتولد عنها قصص تذيعها ولا تنتهي الا أن تموت هي)) (2) . ولئن اتسمت آثار المسعدي الأدبية جميعا بسمة الرمز الى أفكار وغايات لم ينص عليها ، فان مولد النسيان استمدت كينونتها من مصادر غربية مختلفة فيما يتعلق (3)

1 و 2) المصدر نفسه . ص . 41 .

3) فريد غازي .. القصة في تونس (بالفرنسية) ص . 19 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمحواها وبشكلها وتمت بصلات متينة الى فلسفة الاشراق الاسلامية . على أن بعضهم يعتقد أنها عالجت قضايا ومشاكل ميتافيزيقية وغيبية لم يتناولها الأدب العربي المعاصر ، بل لم يعالجها الأدب العربي البتة.(1) وجملة القول ان الأشكال الفنية عند المسعدي غير متنوعة بما يتلائم وثراء التجارب الفنية المتاحة لكبار المثقفين مثله . كم نود أن يثري المسعدي أدبنا العربي بالتجارب الفنية القصوى والأشكال التعبيرية المتنوعة .

لغة المسعدي .

اننا أكدنا ونلحف على التأكيد على أن أصالة المسعدي الأدبية لا تكمن في أفكار سد ، الجديدة ، ذي الصيت الذائع ، والذي هو عبارة عن حوار بين الخيال والواقع ، ولا في طرافة معاني قصته ((حدث أبوهريرة قال)) التي ألفاها بعضهم مؤطرة في عملية أصيلة هي عملية التجذير الثقافي ، ولا تقبع كذلك أصالته الفنية في الاشكالات والقضايا الماورائية التي عالجتها روايته الأخيرة ((مولد النسيان)) . وهي عبارة عن عملية دمج المجرد بالمحسوس . وانما تكمن عبقرية الابداع في أسلوبه البديع ، ولغته الفريدة من نوعها في أدبنا العربي المعاصر . ولم انفرد بهذا التقييم المغري بل شاركت فيه كل الذين درسوا قبلي تلك الآثار الابداعية ، وربما يشاطرني الرأي جميع القراء .

ولغة المسعدي وليدة ومولدة من لغة أثيلة تليدة تزاوج بين معانيها الأصيلة ومبدعات الفكر الحديث .((تلقى - المسعدي - عن كبار الناثرين القدامى لغتهم الأثيلة فعدل بها عن موضعها وولدها كلاما آخر . فهي تتحرك في النص مشحونة بمادة الفكر الحديث ومثقلة في الوقت نفسه بتالد معانيها ، قديمة جديدة))(1) وحتى

---

1) ((حدث أبوهريرة قال)) ط ، دار الجنوب للنشر ، ص 42 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدكتور طه حسين لا يخفي اعجابه بخصوبة خيال المسعدي ونفاذ العقل وثراء اللغة ، ويخشى أن لغته طاوعته أكثر مما ينبغي ، وأطمعته ورضخت له ليشق عليها ويرهقها . ((أما كاتبنا المسعدي فقد أذعنت له لغته اذعانا واستجابت له في غير مقاومة ولا عناد ، وأخشى أن تكون قد استجابت له أكثر مما ينبغي فأطمعته في نفسها وأغرته أحيانا بأن يشق عليها ويرهقها من أمرها عسرا))[1] فعلا أن اللغة عند المسعدي لاشبه بعروسة — دمية — جميلة لدى فتاة جميلة ،تتغدغها متى تشاء أو تحنو عليها متى رغبت في ذلك وتقسو عليها وتشتد متى أرادت . ((الخيال لا يدود ولا يؤكل . الخيال آكل أكول جراف . يأكلنا نحن . الخيال من أكلة البشر))[2] . وواضح من هذه العبارة وحدها جهد المسعدي في تطويع اللغة والتلاعب بها واذعانها له الى حد العسر . ان الكلمة في أدب المسعدي ممتلكة لاسمى قوتها ، فكلمة فن الشعر تغار هنا من كلمة فن النثر اذ أن الاخيرة مشحونة بثمار الفكر الحديث ، والشعور الصادق الحي والعواطف الفياضة المتأججة في طلاوة ورقة وتنغيم لا نظير له ، وهي موظفة توظيفا دقيقا في سياقها ، فلا تعوضها في أداء الدلالة مرادفة أخرى فجملة الكاتب جملة عربية أصيلة ((جملة كلاسيكية)) تذكرنا بأزهى عصور العربية وأبلغ أساليبها ، تذكرنا بلغة الاصفهاني في أغانيه ، ولغة التوحيدي في مقاماته .

ولو أردنا أن نمحص لغة الكاتب وفق المعايير النقدية القديمة منها والحديثة لألفينا أنها تستجيب بكرم وسخاء لكل المقاييس النقدية وتفي لجوهرها . المعيار النقدي الاول هو مبدأ اختيار اللفظ ، وتلح النظريات الاسلوبية الحديثة على

---

1) مسرحية السد . للمسعدي ، ط 2 تونس ، ص . 222 .

2) المصدر نفسه ، ص . 21 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابراز مبدأ الاختيار في كل عملية خلق فني اذ هي تنفي عفوية الحدث الأدبي اعتمادا على أن كل افراز السني - فني انما هو ضرب من الاختيار الواعي يستقي به الباحث الوسائل التعبيرية الملائمة لغرضه مما تمده به اللغة عموما[1]. والناظر في لغة المسعدي لايملك الا الاعجاب بقدرة الكاتب على انتقاء لغته الصافية المتينة المنغمة ، ويرى أنه لا يوظف الألفاظ دون تميزا واختيار عسير . وحتى لايقع في التكرار والتحليل ينبغي أن ينتقي ألفاظه ومعانيه بدقة . وهذا ما يؤكده طه حسين[2] (وضع فيها - القصة - الكاتب قلبه كله وعقله كله وبراعته الفنية واتقانه الممتاز للغة العربية ذات الأسلوب الساحر النضر والألفاظ المتخيرة المنتقاة) . ويتجلى مبدأ الاختيار للألفاظ في بنية الكلمة وعلاقتها مع اجزاء الكلام فتمتاز عبارة المسعدي بالانتظام النوعي والاختلاف بين الألفاظ ومدلولاتها . ((فما من عبارة الأولها معناها الأصيل)) . فلا زخرف كاذب ولا حشو ولا كلمة تردد الأخرى . وظيفتها في الجملة كوظيفة مقاطع الشعر أو تفعيلاته ان أردت ادخال أي تغيير عدلى ترتيبها اختل الوزن وانتفى النغم[3])) . وتعتمد لغة المسعدي على الطاقات الدلالية والايحائية والرمزية فهي لغة جوامع الكلم . جمعت بين النغم القرآني وفصاحة الحديث وجزالة كبار الناثرين القدامى ، انها لغة الصحراء والبداوة والمدنية وطلاوتها ونعومتها الى حد الميوعة .

الصورة والاستعارة .

لئن كان المفهوم القديم للخيال عقبة في فهم الصورة ، فان ((كانط)) رد له الاعتبار وخاله أجل قوى الانسان ، وأنه لا غنى لأية قوة أخرى من قوى

---

1) عبد السلام المسعدي ، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي ، حوليات الجامعة التونسية 76 ، ص 157

2) السد . ط 2 تونس ، ص 214 .

3) ابن ميلاد ، السد ، ط 2 ، ص : 157 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الابداع لدى الانسان عن الخيال . ((فلما وعى الناس قدر الخيال وخطره))[1] . وفهمه الرومانسيون فهما حديثا على أنه التفكير بالصورة حسب طرق فنية تختلف من مذهب فني الى مذهب فني آخر . وأثر الخيال في الصورة الفنية أمر بالغ الأهمية في مفهوم النقد الحديث لأنه حين يسوق الخيال مقارنة فهي نوع من تصوير الحقيقة عن طريق المشابهة ، وتتوقف هذه المشابهة على التعبير والأثر . والخيال عند السعدي أمر عجيب ، خيال مبدع ، بعيد المطارح ، أستأثر الخيال بصاحبنا فهو يدفعه الى الجد في غير طائل ، الى التخوم ، وقمم الجبال الشاهقة الى حدود الأرض والسماء . والخيال واللغة الشعرية هما سر عبقرية المؤلف ((وفي الحق فانه ما كان ليفوز - لولا هذه اللغة الشعرية - باحداث ذلك الجو الخيالي الصرف الذي يكتنف كل الأعمال الابداعية للكاتب[2] .

ان ولع السعدي بالتعبير عن طريق الصورة والاستعارة والمجاز والكناية لا يقل عن شغفه بتصريف أسماء اللغة وصيغها المتنوعة . ((وقد وقف منها - اللغة - الكاتب موقف الشاعر نخاطبنا بها على الاستعارة . بث فيها من خياله الغريب مجازات))[3] . وسائر محسنات السعدي موظفة في كنه المدلول تختزله في صور قوية يلتقي فيها الحسي بالذهني التقاء عفويا طردا وعكسا تزيد من عمق تصوير المعاني العصية المتوارية في خفايا النفس على طريقة الرمزيين الكبار . ((والوهج يأكله - أبا هريرة - أكل الحسناء للعفة)) و ((كان كلما انتشر في خواطره سجا كالبحر

---

1) د / محمد غنيم - النقد الأدبي الحديث ط 1 ص 410 .

2) محجوب بن ميلاد . تحليل لمسرحية السد ، ط 2 ، ص 158 .

3) د / توفيق بكار ، تقديم لقصة ((حدث أبوهريرة قال)) ط / دار الجنوب للنشر ص . 42 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشاع كالدهر وامتد و((كأن حديثه رجع عيب بعيد)) و((كمس لطيف النهود)) و((تصورت الأرض بكرا تدعوني)) و ((ان الفرح كالفأرة)) و((اذا هو — مديـن — كخلق الثياب لطريح ملقى · وملى رأسه نجهاد كخلق الصبح يفض ليلة ليلا ،... ما تلاقينا بعد فراق الا ترددت فينا الافراح كالقوس رنينا ... ان الزمن كالرحى الدائمة الرحي ... نظرت ويلا شديدا وهولا ، رأيت الماء غائرا في الهاويـة أصواتا مشتبكة كأنها أصوات الهاوية ، واقعا فيها كالحلم أو الخيال أو الامنيـة تقع في الابد فتغيض فيه ... ولا يرده السد ، ولا يحبس منه شيئا ... رأيـت سدا من جماجم الموتى قد رصفت أكمل ترصيفا ... رأيت الماء جاريا من الجماجم كالمخاط أو كالغراء ·)) ومئات أخرى من الصور والمجازات والاستعارات الموظفة بدقة لا نكاد نستشفها في غير أدب المسعدي ذلك الاديب الايحائي · ان تلـك الصور الرائعة توحي في سياقها وقرائها بأجواء نفسية · رحبة تعبر عما يقصر التعبير عنه ، وتفيد مالا تفيده في أصلها الوضعي الفني ، فتصبح كلمة (الفجر) مثـلا مبعثا أو مثار الصور وجودانية مصحوبة بانفعالات داخلية دون أن تفقد دلالتهـا الرمزية ، بداية الحياة ، وهكذا فان المسعدي قد استطاع ان يوظف التشبيـه توظيفا دقيقا بوضعه في وجداننا فكرة أو صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسه وبذلك يضيف الى الدلالة بعد العمق والسعة والنفاذ الى الصميم ،صميم الحقيقة المنشودة ، وبقوة الشعور وتيقظه ·

الأسـطـورة والـرمـز·

الواقع أن العلاقة بين الفن والاسطورة علاقة قديمة متجددة · فالاساطير كانت وما تزال منبع الهام الفنانين والادباء · وأنه لدينا أعمال فنية وأدبيـة ما هي في الحقيقة الا عبارة عن صياغة جديدة لأسطورة من الاساطير القديمـة· ولربما كانت بعض الاعمال الفنية الخالدة قد احتفظت بمالها من طاقة التأثـير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحيوية الدائمة لارتباطها في جوهرها بالأسطورة . ذلك ان الأسطورة لم تعد مجرد تقنية بدائية من تقنيات الانسان في مراحل تطوره الأولى ، وانما هي تقنية متجددة توائم حتى عصور الحضارة الزاهية ، لانها عامل جوهري في حياة الانسان في كل عصر ، وحتى في نطاق أرقى الحضارات . اننا نرى الأسطورة ماثلة بكل فعاليتها وحيويتها في الحضارة المادية الراهنة ، وانها ما انفكت مصدر الهام عظيم للفن والأدب . ولا نبالغ اذا قلنا انها في هذه الحضارة الراهنة أكثر نشاطا وحيوية ربما حتى من تلك الحضارات التي خلت . ولئن ظل التفكير الأسطوري في صورته الرمزية يعلن عن نفسه في كل تعبير انساني لدى الشعوب المختلفة في الأزمنة المختلفة صارخا أو باهتا ، فان ظروف العالم المعاصر لم تظفر بتقنية فعالة لفهم كل المتناقضات والملابسات التي تجعل من الحياة لغزا كبيرا وسرا رهيبا . حتى لكأن الانسان المعاصر يرنو الى أن يواجه الحياة بنفس الوجه الذي راها به في البداية (كومة من الاخلاط الممزقة) ، لذلك تبنى تلك التقنية القديمة — الأسطورة — واستغلها لوضع معادلة جديدة تعينه على ايجاد حلا معقولا لهذه الكومة أو اللغز الرهيب ، وجعل الحياة — على الأقل — بالنسبة اليه مقبولة ومفهومة . ولئن كان عصرنا الراهن عنى بالأسطورة واقبل عليها الفنانون والأدباء أيما اقبال ، فان ذلك لا يعني البتة ، أنهم عادوا الى المرحلة البدائية الأولى من حياة الانسان . وانما هم قد تفهموا روح هذه الأساطير وطبيعتها ومنهجها ، فصدروا فيما ينتجون من فن وأدب عن روح أسطوري . ومن ثم ظهرت في أعمالهم طريقة الأسطورة القديمة ، لكن أعمالهم الفنية تتسم بسمة الجدة والطرافة . فقد استخدم أهل الفن والأدب الأسطورة القديمة في خلق أساطير عصرهم ، وساعدهم على ذلك الاستعداد الانساني الدائم — بصورة طبيعية — للاستجابة للأشياء بطريقة أسطورية . وهكذا فان تبني المنهج الأسطوري في العصر الحاضر ليس مجرد تقنية لحل موقف انساني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانما هو كذلك أسلوب أدبي — شعري رنثري — وفني من الطراز الأول · وقد انتبه بعض نقاد الأدب الى غائية الأسطورة على وجه الدهر · واعتبروها ذات قيمة تنظيمية كبيرة قديما وحديثا · فالغرض منها تنظيم التجربة الفنية والوصول الى نظام وشكل محددين للحياة ((كان الشاعر — اليوت — يؤمل من استخدام هذا المنهج في شعره لكي يصل في خضم فوضى حياة الانسان الى ((النظام والشكل)) ، وهو تقريبا الهدف القديم الذي هدفت الأسطورة الى تحقيقه لدى الانسان البدائي ·

فالتجربة الفنية — الشعور — تستحيل وفقا لمنهج الأسطورة الى بنية وجودية حسية لها أبعاد فكرية ودلالات عقلية · وهذا بالذات ما يتفق تماما وتجربة المسعدي في روايته ((مولد النسيان)) ذات المنهج الأسطوري · فهي تجربة وجودية صرفة تجمع بين الأبعاد الفكرية والدلالات العقلية المجردة وبين أبعاد مرئية محسوسية · فالمسعدي انطلق في كتابة تلك الرواية من متصوراته الذهنية للعالم الخارجي والعالم الداخلي · وكانت له قناعة في قدرة العلم على حل المشكلات المستعصية · ولكن سرعان ما انكشف له ان علمه وطبه قاصران على ايجاد حل مقبول للقضايا المطروحة بالحاح باطني ، فوجد في المنهج الأسطوري السحري مبتغاه ، وغرضه هو أن يقارع عن طريق السحر الموت ، ويضمن لنفسه الخلود والسكينة والطمأنينة · وارادة الخلود هذه اقتضت من المؤلف أن يجول في عوالم ذهنية مجردة بغية مناقشة مشاكل ماورائية · مثل قضية الروح والجسد ، وعلاقة كل منهما بالأخر ، ومشكلة الزمن والموت وغيرها من القضايا الجديدة على أدبنا العربي · عالج المسعدي هذه المسائل وفقا لمنهج أسطوري سحري يحتوي في نفسه على شرحه وتبريره كما بينا · ولم يكن في وسع المسعدي أن يتناول مثل تلك القضايا المجردة بطريقة ناجعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولربما مؤثرة اذا لم يتخذ من الرمز الفني وسيلة لتصوير ذلك تصويرا يخفي وراء مضمونه المحدد شيئا أعمق بكثير . لأن أسلوب الرمز الفني مشتمل على عدد من المعاني لمعنى الكلمة الواحدة . ولم يكن المسعدي الأديب العربي الوحيد الذي تبنى المنهج الأسطوري (1) . لقد شاء كاتبان عربيان أن يسديا يدا بيضاء الى الأدب العربي الحديث بأن يجعلا من أسطورة ((بيجماليون)) مادة لمسرحيتين يعالجان فيها حياة الفنان وقضايا أخرى داخل اطارها . ايمانا منهما بأن النهج الأسطوري أسلوب فني رفيع . وهذا ما تؤكده علاقة الأسطورة بالفكرة وقيمتها التنظيمية في التجربة الفنية . فالأسطورة تعمل — بوصفها السدى الأساسي الحي لكل فكرة أو نظرية أو مذهب . اذ أنها صورة عريضة غاطية تضفي على الوقائع العادية في الحياة معنى فلسفيا . وتتضمن قيمة تنظيمية بالنسبة للتجربة وبدونها تظل التجربة مجرد تجربة ظاهرية — سديمية ممزقة — هذا من ناحية المنهج ، ولا بد لكل منهج أن يستهدف غاية معينة — ماقبليقة . ويتفق الدارسون على أن الأسطورة في ذاتها تركيبة درامية ودراما الأسطورة القديمة هي المحاولة الدائمة للربط بين العالمين الخارجي والداخلي بين المرئي والمحسوس وغير المحسوس في سبيل خلق نوع من التوازن بين العالمين في ضمير الانسان . — ونقا لاستعداده الخاص — بالعالمين على السواء ، وبقدر متوازن في أصله . وقد كشف ((فرويد)) عن عنصري هذه الدراما ولخصهما في مفهومي الجنس والغريزة . ويجسم المسعدي عنصري الدراما تجسيما دقيقا في سائر أعماله الابداعية ولا سيما في رواية ((مولد النسيان)) وقصة ((حدث أبوهريرة قال)) . ويمثل الصراع مع الزمن وروابطه ،والعلاقة بين العالمين الخارجي والباطني موضوع هذه الرواية التي تشبه الى حد كبير في موضوعها وتجريدها رواية

---

1) هما توفيق الحكيم وخليل الهنداوي (من مصر وسورية) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

((أهل الكهف)) لتوفيق الحكيم . ولئن ذهب بعض النقاد الى أن مسرحية أهل الكهف لتوفيق الحكيم تعد من أنجح مسرحياته الذهنية بما فيها من صراع الانسان مع الزمن وتوابعه وعلاقاته ، والتجريد وتحريك الشخصيات وفقا لمنهج الأسطورة مما جعل هذه المسرحية موغلة في التجريد الذهني ذي البعد الواحد ، فانه يمكن القول ان هذه وغيرها سمات مشتركة بقدر متوازن بين الروايتين العربيتين ((أهل الكهف)) و((مولد النسيان)) . كأن الأديبين العربيين استلهما عيونا أدبية وفكرية واحدة ، وحفزتهما رغبة واحدة في معالجة هذه القضايا الماورائية وتوظيف المنهج الأسطوري وتأصيله في أدبنا العربي الحديث .

ولو استقرينا الأطر النثرية الأسطورية في أدب المسعدي لألفيناها متنوعة فقد عالج الكاتب قصصه ورواياته من خلال خمس أطر كبرى وهي : الأسطورة السحرية الهند وجرمانية ، والميثولوجيا الاغريقية ، وقصص القرآن ، والأساطير العربية مثل قصة أساف ونائلة ، وألف ليلة وليلة .

أ - الأسطورة السحرية التي تنتمي على الأرجح الى الأصل الهند وجرماني قد وظفها المسعدي توظيفا دراميا دقيقا يوائم من ناحية نظرته الخاصة الى وضعية الانسان المأساوية في هذا الكون ، واستجابة طبيعية لمقتضى عالم المسعدي الداخلي وساعده على هذا استعداده الجبلي للاستجابة للأحداث بطريقة أسطورية . بالاضافة الى ذلك أن الأسطورة تعد من أرفع تقنيات الأسلوب الأدبي . والأسطورة في هذه الرواية ((مولد النسيان)) استخدمت كتركيبة أو هيكلة أسطورية دراميه مشتملة في ذاتها على شرحها وتبريرها كبنية عضوية متماسكة وفق منهج أسطوري محكم .

ب - الميتولوجيا الاغريقية . الواقع ان الرجوع الى الأساطير اليونانية بصفة خاصة يعتبر ظاهرة أدبية بارزة في آداب الأمم وفي المسرح العالمي المعاصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولربما عد المسعدي ضمن طليعة من عرفوا بها من الأدباء العرب ، مثل توفيق الحكيم وخليل الهنداوي وغيرهما .

ويبدو لنا من خلال التحليلات العديدة لمسرحية ((السد)) أن المسعدي مفتون بالأساطير اليونانية ويكن لها اعجابا كبيرا يتجلى في عالمه الحي النابض وهواتفه ، وكائناته الناطقة ، وحجارته المتحاورة . أنه جو يشبه الى حد بعيد جو المسرح الاغريقي . ويتفق جل الذين حللوا مسرحية ((السد)) على أن مؤلفها مولع بالأساطير اليونانية ويضمر لها اكبارا منقطع النظير ومن ثم تأثره بها مباشرة وغير مباشرة . ((فانه — السد — ما كان ليفوز — لولا هذه اللغة الشعرية — باحداث ذلك الجو الخيالي الصرف الذي يكتنف ((السد)) كله . هو جو الأساطير اليونانية وخيالها الباري(1))) . ويماثل بطل السد ((غيلان)) في تمرده وعناده وكفاحه المرير من أجل الانسان ، البطل اليوناني ((بروميتي)) و ((يكون تمرده — غيلان — اذذاك شبيها بتمرد ((بروميتي)) الذي سرق من الالهة سر النار وعلم الانسان ما لم يعلم(2))) . ويمضي طه حسين في تحليله ((للسد)) الى أن بطل المسعدي يشبه بطل ((ألبير كامو)) الذي هو بعث جديد للبطل الاغريقي . ((ذلك أن بطل الأستاذ المسعدي غيلان يشبه أشد الشبه بطل الكاتب الفرنسي ((كامو)) بطل الأسطورة اليونانية ان شاء فذلك البطل اليوناني يبذل جهدا متصلا ضائعا لا سبيل لأن يجد له الباحث تأويلا أو تعليلا . وبطل الأستاذ المسعدي غيلان يبذل كذلك جهدا ضائعا ليست له حكمة وليس وراءه طائل ، لأن صاحبه وغير صاحبه من الناس لا يظفر له بنتيجة ولا يجد له غاية ينتهي اليها . وكل الفرق بين البطل العربي الذي ابتكره كاتبنا الأديب والبطل اليوناني الذي ابتكرته الأسطورة اليونانية هو أن البطل العربي يريد أن يوجد شيئا وأن يبلغ به غاية فلا يوجد شيئا ولا ينتهي الى غاية ، والبطل

---

1) مسرحية السد ، ط 2 تونس ص 158 ، 159 ، بقلم محجوب بن ميلاد

2) المصدر نفسه ص 194 ، بقلم : الشاذلي القليبي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبطل اليوناني حي تعاقبه الآلهة لهذا العناد المتصل الذي لا يغني عنه قليلا ولا كثيرا[1])) .

ولعل ظهور أعمال أدبية عربية متأثرة بالميثولوجيا اليونانية في فترات زمنية متقاربة جدا تقوم دليلا قاطعا على هذا الولع والاعجاب بالأدب اليوناني لدى بعض الكتاب العرب أمثال : المسعدي وتوفيق الحكيم وخليل الهنداوي وغيرهم . ذلك أن تأثير التيار الاغريقي في أدبنا العربي المتفتح بقوة على الآداب العالمية ، قد اشتد بفضل ما ترجم وكتب من روائع اليونان خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن . وانعكس هذا الاعجاب والافتتان في كثير من الأعمال الفنية في ثقافتنا المعاصرة .

هذا وأن الأسطورة نفسها لم تعد لدى بعضهم تنفصل عن الواقع باعتبار انها شافية للانسان وموثقة لروابطه مع عالمه . بل ذهب بعض النقاد الى أبعد من ذلك فاعتبروها منبع الشعر الوحيد باعتبارها — الأسطورة — مجموع الرموز ومجلاها معا . وعلى هذا الأساس فلا مجال للتمييز بين الأسطورة والرمز ، فكلاهما رمز . والرمز عند المسعدي لا يعد وأن يكون اشارة لطيفة موحية .

ويفرق الكاتب بين نوعين من الرمز ، رمز الكلمة — اللفظة — ويعتبر هذا النوع من الرمز خاصية مميزة ، من خصائص جوهر اللغة . وهناك رمز التعبير ويكون للمعنى معاني كثيرة .((... على أنه اذا اتفقنا على أن الرمز هو اللطف في الاشارة والايحاء فقد يصح أني لست متجها الى الأدب الرمزي فقط ، بل ملتزم للرمز اجتهادا . فاللغة التي أكتب بها رمز لطيف ، اذ العربية تكره التكرار والتحيل والالحاح والتفهيم الثقيل .. أما اذا كان الرمز مما يتصف به التعبير ، فهو بالمعاني

---

1) المصدر السابق ، ص 233 ، 234 : (بلقم طه حسين) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألصق وجوهره بجوهرها أليق[1])) .

وقد أكد طه حسين في تحليله لمسرحية ((السد)) الطابع الرمزي لهذه المسرحية وأنه لا يمكن أن تكون الا رمزية .((ليست الا رمزية ، وواضح جدا أن قصة كاتبنا هذه لا يمكن أن تكون الا رمزية[2])) .

واذا كان بعضنا يرى أن عالم الرمز ضيق ، فمما لاشك فيه أنه زاخر بالايحاءات.

الابهـــام والغمـــــوض .

ان قضية الوضوح والبساطة ، وقضية الابهام والغموض ، ظواهر أدبية وفنيـة قديمة جديدة . وان غلبت سمة الوضوح والبساطة على الشعر القديم ، وأعدهـــا بعضهم عاملا هاما في تأثر نابه وتأثيره فينا فان الشعر الجديد وبعض الاعمـــال الأدبية النثرية تتميز بخاصية الغموض . ولا بد أن نفرق هنا بين ظاهرة الابهام والغموض بصفة موجزة وعامة .

ان الابهام لا يمثل في الحقيقة ظاهرة فنية ، وان ألفينا ابهاما في أثـر أدبي فان ذلك لا يعني أنه اقتضته وحتمته ضرورة فنية لأن الأساس في ظاهـــرة الابهام هو مشكلة لغوية قائمة في طبيعة التركيب اللغوي نفسه ، فالابهام لا يعدو أن يكون صفة نحوية . وعلى هذا فان الابهام لا يعتبر خاصية أسلوبية ايجابيـــة ، بل هي صفة سلبية قديما وحديثا على السواء .

أما ظاهرة الغموض فهي ليست ناشئة عن سوء استعمال للنحو أو اللغـــة ، ولا عن نقصان في البيان . انما هي صفة خيالية تنشأ قبل مرحلة الصياغة اللغوية

---

1) مجلة الفكـــر ، س 4 ، 1956 .

2) مسرحية السد ، ط 2 تونس ، ص 220 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنحوية ، وحتى قبل الصياغة المنطقية . ريجد الباحث في ظاهرة الغموض ـ في الشعر المعاصر خاصة ـ رأيين أو موقفين مختلفين . الموقف الأول يميل الى أن الغموض ظاهرة مرضية ، وهي نتيجة ضياع ـ عبث ـ كصفة بارزة في الميل العام لعصرنا الراهن .

أما الرأي الثاني فيميل الى أنها ظاهرة صحية نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية متعلقة بالعملية الابداعية ذاتها . ونحن نناصر الرأي أو الموقف الأخير باعتبار أن ظاهرة الغموض عالمية مشتقلة الينا ، ولعلها اشارة لوجود أزمة أي أننا نشهد انعطافا تاريخيا وحضاريا حاسما . وفي كل منعطف تتبدل النظرة الكلية للعالم فتنطمس معالم وتتبلور أخرى ، ويحدث تغير جذري في القيم والمفاهيم وتحول في جميع المجالات لا يتنسى لكل الناس ان يتصوره في مستوى واحد من الوضوح والبساطة . ولهذا تبدو ظاهرة الغموض منطقية ، ويصير مدى الغموض في رصد ذلك التحول تبعا للفني / والذهني والنفسي لكل منا . على أن فكرة الغموض قد تحولت لدى بعضهم الى معنى فلسفي جمالي ، ونظرية شعرية تفلسف الغموض وتجعل منه هدفا من أهدافها ويمثل هذا المنحى كل من الشاعرين الكبيرين . ((هربرت ريد)) و((مالارميه)) . ويرى ريد أن الغموض في الشعر خاصية في طبيعة ((التفكير الشعري)) وليس خاصية في طبيعة التعبير النثري[1] . ويلوم مالارميه الكتاب الذين ((ينهلون من محبرة لا يختفي فيها الظلام))[2] . ويمضي مالارميه الى أبعد من ذلك ويرى أن أسمى أنواع الشعر وأروعه هو ما لم يعبر عنه ، وأن القصيدة تكون مفهومة بمقدار ما لا تعبر عنه .

ونحن لوعدنا الى المسعدي والعيون التي وردها ونهل منها لوجدنا أن من أبرزها مالارميه ، وفاليري وغيرهما ممن يفلسفون فكرة الغموض . فلا غرابة

1) الشعر العربي المعاصر . د / عز الدين اسماعيل ، ط 2 . دار الثقافة . بيروت . ص 190 .
2) تاريخ الآداب الأوروبية ، د / عماد حاتم . ط 1 . الدار العربية للكتاب ، ص 397 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذن أن تشيع في أسلوبه وأعماله الابداعية ظاهرة الغموض . ((ان أصالة المسعدي الكبيرة تكمن في أسلوبه الجذاب . وفي لغة صفوي مالارميه قبل كل شيء[1])) . ويتبين لنا مما تقدم انه لا يوجد تناقض بين أسلوب البساطة والوضوح العميق والغموض ، لأن كليهما شديد المساس بالعمل الفني وبجوهره . على أن ظاهرة الغموض لدى المسعدي متأتية قبل كل شيء من هذه القيم الجديدة على الانسان العربي والأساليب والتقنيات المتنوعة ، والتجربة الفنية القصوى وهذا كله شيء جديد على أدبنا المعاصر . أضف الى ذلك النزعة التأملية والتجريدية والرمزية التي تجعل من أدب المسعدي أدب خاصة الخواص ، أدب الصفوة أو النخبة ، وليس هو أدبا للجماهير الكادحة . وكأن المسعدي استلهم تقنية أسلوبية سفسطائية قديمة ليجعل المعنى يتقمص عديد المعاني ، ذلك أنه يستخدم كثيرا من الكلمات والعبارات التي تزيد الموقف غموضا ، والفهم عسرا وتعسفا . مثل : المعاناة ـ الشوق والفناء ، وكلمات وعبارات أخرى تحتاج الى فهم خاص فيه قسوة ، وفيه تعسف وغلو ، وهذه الكلمات والأساليب أصبحت لا تدل على شيء معين ومحدد . فهي كلمة ((جمع)) ومعنى ((المعاني)) . وذلك هو سبب الغموض في أعمال المسعدي الابداعية . وهذا فيه شيء من التلاعب بعقل المتلقي وفي كثير من الفطنة والبراعة .

ومما سلف تبيانه يتجلى لنا أن المسعدي استلهم التقنيات الفنية لدى كبار الكتاب المعاصرين وقد أجاد توظيفها في أعماله الابداعية الأمر الذي جعلها تعد من عيون المعاصرة . والأهم في نظرنا أن هذه التقنيات الفنية الموظفة ببراعة فائقة هي سر عبقريته ونجاح مؤلفاته المحدودة .

ومجمل القول ان الكاتب استطاع بمهارة كبيرة أن يخلق لنفسه لغة متميزة وأسلوب فريدا من نوعيه شأنه في ذلك شأن كل مفكر أو كاتب عظيم يصنع لنفسه

---

1) د. فريد غازي. القصة في تونس. (بالفرنسية) ص45

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسلوبه الشخصي الخاص ويرغب — وهذا ضمني — أن يصبغ لغته وأسلوبه بصبغة الشمول أو العالمية .

المسعدي الناقد

ان منطلق كل اتجاه أو مذهب نقدي هادف لا يعدو ان يكون تصورا ذهنيا يمثل رؤية الناقد الفلسفية ، وبقدر ما تكون هذه الرؤية عميقة وشاملة ، بقدر ما يكون النقد عملا بناءً ورائدا ، عملا يوجه وعينا الى ادراك كنه الكون ونواميسه ، وسر الحياة ، وأغوار النفس البشرية وخباياها الدفينة ، ويصور لنا صراعاتها الأبدية ، صراعات الانسان الداخلية والخارجية : قوى النفس وغرائزها ، قوى الالهة ، القضاء والقدر الغيب ، الموت ، والحياة وغيرها ، وهي قوى مذهلة وغاغطة في آن واحد .

والأديب العظيم هو الذي يصور لنا الآم هذا الصراع السرمدي ، يمحص هذه المجابهة المأساوية على الدوام ويفلسفها . وقد حفل الأدب اليوناني العريق بتصوير صراعات الانسان مع تلك القوى المتنوعة ، وصور الانسان بأحلامه والآمه تصويرا منقطع النظير . ولقد ولد الأدب اليوناني التليد في الآداب الأوروبية الحديثة تلك النزعة الانسانية والاتجاه المأساوي ، لذلك يعد بحق الأب الروحي لهذه الآداب .

وأن رؤية المسعدي الأدبية الفلسفية ، رغم سعتها وعمقها لها صلات متينة بالأدبين معا . ولهذا فان مفهوم الأدب لدى الكاتب ينحصر في أنه يقص قصة صراع الانسان ، ويمحص ما يسميه (الشؤون الجوهرية للانسان) ، لأنه يواجه في وجوده المحدود قوى عديدة بمفرده ، وتدوم هذه المجابهة بدوامه ، ويحيا بذلك مأساة تتكرر في كل عصر . والأدب الممحص لهذه المأساة الانسانية ينعت بأنه مأساوي ، (الأدب مأساة أو لا يكون) . ويستمد هذا النوع من الأدب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ديمومته من دوام هذا الصراع المأساوي وخلوده من تلك المجابهة . وبناء على هذا نظر الكاتب الى الأدب العربي تليده وحديثه ، نظرة طريفة ، وليس في ذلك تقليد للغير بل رجوع الى الأصل .

الناقد مشغول كثير بفكرة التجذير والتأصيل في تراثنا الشقافي ورد الاعتبار له وبعثه في صميم المعاصرة موفيا لجوهره وذاته ، لأنه لايقل شأنا عن الآداب الكبيرة (على هذا النمط فهمت جميع الأمم التي خلد التاريخ آدابها بين الآداب من الهند الى اليونان ، ومن العرب الى الافرنج[1]) .

ويورد المؤلف أسماء فئة من مفكري أهل الشرق العربي ، وأدبائه الذين أدخلوا معاني الانسانية في قصة الوجود ولغزه المحير . ولكنه يشتد حنقا على أدباء عصور الانحطاط ومفكريها ، وعماء بصائرهم ، وجمود نفوسهم ، وانعكاس أية وجدانهم ، فحجبوا بأثارهم العقيمة أصالة تراثنا واشعاعه . ويرى أنهم هم الذين أذنوا للمستشرقين أن يعيبوا على آدابنا العربية ويحصروها في أنها (كليشهات جميلة) .

وهكذا اشتد بعد الناس عن الآداب الأصيلة الفياضة بالمعاني الانسانية وتلهوا عن تلك العيون التي لاتنضب .

وفي مطلع النهضة العربية الحديثة التمس بعضهم التجديد لدى نقاد الغرب واستعانوا بنظرياتهم لفهم الأدب العربي والغوص على جوهره ، فظهروا علينا بأزياء مستعارة لا تفضل فهم أبي الفرج الأصفهاني لكثير من أدبائنا القدامى .

وما دراسات طه حسين في أحاديث الاربعاء الا تحليلا لنص وجيز لأبي الفرج الأصفهاني : (حدثت بثينة — وكانت صدوقة اللسان ، جميلة الوجه ، حسنة

---

1) المسعدي . كتاب تأصيلا لكيان ، ط 1 ، تونس ص 25 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حسنة البيان ، ولا حدثت انا نفسي بذاك منه[1]. ويمضي المسعدي الى الاعتقاد بأن شخصية أبي العتاهية لم تفهم الا من قبل أبي فرج الاصفهاني : (أبـــو العتاهية كما يراه ويرينا اياه صاحب الاغاني هو هذه الشخصية العتيدة التـــي عرفت طيلة ثلاثين سنة من العمر مأساة الصراع القاتل بين النفس وهواها وبـين صاحب النفس يغالبها . ويختم الكاتب مقاله الطويل (أبو العتاهية كما يراه صاحـب الاغاني) بقوله : (وهكذا يرجع بك أبو العتاهية وتزهده الى وجه من وجـــوه المأساة البشرية العامة .. الى الادب ... والادب مأساة أو لا يكون[2]).

ويمكن للباحث أن يستنتج الاصول النقدية التي يقوم عليها اتجاه الكاتب في النقد ولعل أهم هذه الاسس النقدية التي يبدو لنا ان الكاتب قد اعتمد عليها نسي تحليله لابي العتاهية ، هي :

1— حصر معنى الادب وطبيعته في نطاق الرؤية المأساوية المحضة ، (الادب مأساة أو لا يكون .)

2 — التبصر في ادراك أحوال النفس المضطربة وحيرة الفكر البشري في قصـة الوجود ولغزه .

3 — الذوق والقدرة على الغوص على حقائق شؤون الادب الجوهرية .

4 — لكي نفهم هذه الحقائق الجوهرية في الادب العربي علينا بالرجوع الى أبرز مصادر هذا الادب وأفضلها كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني .

وهذا يفند زيف الدعوة الى استعارة المذاهب النقدية الغربية قصد فهم الادب العربي وأحيائه وتجديده . وهذه الدعوة الى أصالة التراث وتطويره اعتمادا على معطياته الاصيلة تشبه دعوة الفيلسوف الالماني هيدجر بأن الحضارة الغربية لايمكن ان تفسر الا باعتماد على أصولها وليس بعناصر غريبة عنها

1) المسعدي ، م ، ع ، ص، 28 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخـــاتمـــة

هذا
لقد آثرنا ان نشير في/البحث المتواضع ،بادي ذي بدء قضية يبدولنا انها على غاية من الاهمية والخطورة ،وشاطرنا الرأي ثلة من الدارســـين السابقين في ان التفكير الوجودي لم يقتصر بلاريب على الحضارة الغربيـــة دون سائر الحضارات الاخرى ،بل هو ظاهرة شائعة بين جميع الحضـــارات التي قد اكتمل نموها ،وان الفكر اليوناني لم يكن ابدا الباعث الاوحد للنزعة الانسانية التي يزعم بعضهم انها ميزة تنفرد بها الحضارة الغربية باعتبـار انها وليدة هذا الفكر العريق وبناء على ذلك ان كل حضارة ليست وليدة هذا الفكر اليوناني فهي حسب زعمهم خالية من النزعة الانسانية . وهذا قول لم يحالفه الصواب .

وتعرضنا للوجودية تاريخيا ،وبينا انها ليست بدعه من بدع هذا العصر وانما هي نظرية قديمة جديدة باعتبار انها فلسفة حياة لها مساس بالاخلاق والعقائد . وتوقفنا عند معضلة المفاهيم ولاسيما لدى المفكرين الذين يأبون مطلقا ان يقدموا للقارئ تصورا عاما وشاملا عن فلسفاتهم ،لان معظمهـــم يفضلون ان يبحث القارئ عن ارائهم وافكارهم الوجودية ويكتشفها من خـــلال السطور وهي حية نابضة .

ورغم ان بعضهم حاول ان ينظر فلسفته الوجودية على نسق الفلاسفـــة المثاليين ،بيد ان تعريفاتهم لهذه النظرية لم تكن جامعة مانعة كما يقـــول المناطقة .

ثم تلمسنا بداية الوجودية الحديثة فادركنا ان هناك اجماعا على ان الاب الروحي لهذا التيار هو : (سورين كيركجرد) الذي كان تأثيره كبيرا في كل المفكرين الوجوديين بعده . وكذلك عند اتجاهاتها واهم ما يتميز به كل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اتجاه اوكل مدرسة . ولاحظنا ان الباحث يستطيع ان يدرك أن افكـــار المدرسة الملحدة تتسم بحيوية فائقة وانها اكثر تحرر من المدرسة الوجودية المؤمنة .

وكذلك عرجنا على علاقة القيمة بالوجود او علاقة الوجود بالقيمة مجملين أهم الاراء الواردة في هذا الصدد ، ولخصنا ما في نظريات ثلاث . وتوقفنا أيضا عند ظهور الوجودية في فرنسه وهناك بدون شك رواد مهدوا الارضية التي احتضنت هذا التيار كثورة مبدعة منذ عام 1933 . ورجحنا ان جـــل صيغ الوجودية قد تشكلت قبيل اندلاع الحرب الكونية الثانية التي زادت في شعبية هذه الفلسفة وشيوعها واصطبغت بلون ادبي واسلوب حياة ممثلـــة خاصة في معلمها : جان بول سارتر وغيره من الوجوديين الفرنسيين .

وعرجنا كذلك على الوجودية في ثقافتنا العربية الحديثة ممثلة في مواقف مختلفة وفي روايات محمود المسعدي الزاخرة بالاراء والمواقف والصيغ الضاربة في صميم الوجودية الحديثة ، ولم نخالف بضع الدارسين القائلين بان وجودية المسعدي غايتها القصوى هي تجذير هذا التيار الفكري العظيم في الثقافة العربية الحديثة المفتقرة لمثل هذا النفس والدفع الجديد قصد احيائهـــا واثرائها وقد توصلنا الى ان هناك تشابها كبيرا بين بعض أعمال المسعـــدي الابداعية وبين اراء الاب الروحي للوجودية خاصة من حيث الاطر والاتجاهات العامة للفكر الوجودي .

ولاحظنا ان صاحبنا لا يقدم لنا - هو الاخر - تصورا عاما ودقيقـــا عن فلسفته شأنه في ذلك شأن رواد هذه الموجة الاوائل ولكنه بامكان الباحث ان يستشف ذلك التصور المذهبي والرؤية الفنية للكاتب من خلال القراءة المتأنية لاعماله الابداعية خاصة ولمحاضراته ومحادثاته وغيرها عامة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبينا انه لا يميز بين مفهوم الالتزام ومعنى الوجودية ولا يفرق بينهما وقلنا ان ذلك عائد الى تصوره الرحب لمفهومي الوجدية والالتزام ، ولم نهمل اعجاب الكاتب الكبير بالروائع الوجودية الملتزمة والقدية اعجابا بلغ الى درجة تفضيل ما كتبه الوجوديون الاولون على روائع فطاحلة الوجودية الحديثة ..

ولم نغفل كذلك موقفه من حرية الفنان فوجدنا انه لا يرى لحرية الاديب حدا ولا حصرا بل ان حريته يجب ان تكون حرية مطلقة او لا تكون حسب عبارته المشهورة .

وأقمنا مقارنة بين المسعدي وبين الاب الروحي للموجة الوجودية ، ووجدنا أن هناك بعض أوجه التشابه بين المفكرين في الاطار وفي كثير من المسلمات الوجودية العامة رغم أن المسعدي لم يشر اطلاقا الى أنه تأثر تأثرا ما ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة بفلسفة سورين كيركجرد التي يبدو لنا أنه لم يسلم من التأثر بها فيلسوف واحد من الوجوديين البارزين في العصر الحديث أما تأثره بالكاتب النورفيجي : (هنرى ابسان) فهو صريح ولهذا لم نقف عنده مرجئينا ذلك الى دراسة أخرى ان شاء الله ، حيث سوف نقف عند جميع مواطن التلاقي بين الرجلين .

وعرجنا في أخر المطاف على اسلوب المؤلف وتقنياته المتنوعة . فألمحنا الى أن أفكاره كانت على غاية من الجدة والطرافة في زمانها لذلك كانت مؤلفاته كثيرا ما تنعت بالغموض والابهام مما اضطر الكاتب الى ان يقوم بتبسيط ما استعصى وشرح ما غمض حتى يتلافى ما يريد تلافيه ، ولا يحمل على غير ما يروم .

وأكدنا أيضا على أن علاقة الكاتب بواقع مجتمعه وملابسات هذا المجتمع لم يعرها الاديب العناية المطلوبة ، وكان عليه أن يثقل اعماله الابداعية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلقطات ومشاهد فزيائية ،لكي يضفي على ما كتب صبغة الواقع .

وأننا لم نخالف القائلين بأن هذا الادب يمثل مأساةَ جيل كامل مبتور الجذور ، يعاني من أثار حضرية ونفسية مريرة وأزمة وجودية وحضارية .

ورغم اعتقادنا بأن المسافة بين الشكل والمضمون مجاز وهمي ،الا أننا فصلنا بينهما أحيانا قصد تبسيط بعض المسائل وتوضيحها ،وألفينا أن المؤلف يجمع في الاثر الواحد خصائص الاثار الفنية الاخرى كلها تقريبا مما يضفي على هذه الاعمال الابداعية ميزة فريدة في أدبنا العربي الحديث. ولعل ولع الكاتب بلم خصائص مختلف الفنون في الاثر الواحد هو الذي قلل لديه من فكرة التنويع في أشكال التعبير الفني ، أوأن انشغاله بتقنيات الاسلوب من لغة منتقاة بدقة ،وصور بكر ،ورمز وأسطورة وغيرها قد صرفت الكاتب الى حد ما عن التنوع في اشكال التعبير الفني .

وهذا الجهد المسير الذي استنفذه المؤلف بمهارة جعل من أثاره المحدودة تجارب فنية قصوى . وهي كما تبين لنا من خلال البحث أصل أصالة الكاتب وسر عبقريته ، بالرغم من جدة القضايا المطروحة وطرافتها .

وفي ما يتعلق بفلسفة الكاتب في النقد ومنهجه ،قلنا أن المنطلق النظري الذي بنى عليه المسعدي نقده هو في ان واحد قديم جديد يقوم على اساس نفساني خالص .

وحاولنا أن نستنتج أهم الاسس التي يقوم عليها هذا الاتجاه فيالنقد .

ومما أزعم أنه جديد - ولو نسبي - قلة التنوع في أشكال التعبير الفني لدى المؤلف وأن اختيار الكاتب لاسلوب الحديث في رواية (حدث أبو هريرة قال) اقتضته ضرورة التنظير المذهبي وليس هو تجربة فنية قصوى كما يعتقد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعضهم . ومن الجديد ذلك التماثل في بعض الاطر الفنية ، وبعض المسلمات العامة . وقناعتنا بأن أصالة الكاتب الحقيقية ، وعبقريته الفذة لاتعود الى القضايا المعالجة رغم أنها جديدة وطريفة .

على أني أرجئ الكشف عن الجديد في هذا الأدب سعة وعمقا في ما أنوي عليه من بحوث في المستقبل ، ولا أزعم لنفسي في هذا البحث أني أكثر من مجتهد في ما تناولت . ومن طبيعة البحث كما يقول الاستاذ المشرف ان خطواته المستقبلية لا تنتهي والكلمة الاخيرة فيه تصبح كالقمة الوهمية التي لا يصل اليها الباحث .

وآخر قولي : اني مقر بعجزي ومعترف بحداثة عهدي في معاشرة طلبة الكتاب والشعراء معاشرة أكاديمية . فان أحسنت ، وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد . والا فحسبي أني متطلع الى نصح من وفقه الله سبيل السداد .

رب رحماك ان أردت الحسابا
انما قولت ما حسبت صوابا

" عمر الخيام "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهـــرس الموضوعـــات

	صفحـــة
مقـدمـــة	أ - ب
تمهيـــد	جـ - حـ
الفصـــل الأول: المسعـــدي وبيئتـــه	
- محمـــود المسعدي: حياته - نشاطه - مؤلفاته .	2 - 3
- الوضـع السيـاسـي	4 - 5
- الوضع الاقتصادي والاجتماعـي	6 - 7
- الحالـة الثقافيـة .	7 - 12
الفصـــل الثاني: الوجـوديـــة .	
- تمهيـــد .	14
- معنى الـوجـوديـة .	14 - 19
- نشأة الوجوديـــة	19 - 20
- منطلـق الوجوديـة	20 - 25
- الوجوديـة المعاصرة	25 - 26
- اتجاهاتهـــا	26 - 27
- الوجوديـة المؤمنـة ورائـدها	27 - 28
- التجربـة الدينيـة	28 - 32
- معنى الوجودية الكيركجـردية	32 - 34
- طرقهـــا	34 - 39
- الوجوديـــة	40
- سارتـر الفيلســوف .	40 - 45
- سارتـر الأديـب	45 - 48
- الاتجـاه التوفيقي	49 - 52
- الوجودية بين التجريـح والاطراء .	52 - 53
- الوجوديـة من وجهـة نظر عربيـة .	53 - 58

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث: الوجودية في روايات المسعدي .

- تمهيد . 60 - 64
- السد 64 - 66
- مولد النسيان 66 - 72
- حدّث أبو هريرة قال . 72 - 74
- مرحلة الحمس 74 - 78
- مرحلة الحيرة في الناس 78 - 82
- المرحلة الفكهة 82 - 83
- مرحلة الحيرة في الله 83 - 85
- خواتم أبطال المسعدي . 85 - 86
- معنى الوجودية عند المسعدي 86 - 91
- الوجودية والالتزام عند المسعدي 91 - 95
- الحرية والالتزام عند المسعدي 95 - 97

الفصل الرابع: مقارنة بين وجودية المسعدي ووجودية الغربيين (كيركجرد).

- عموميات 99 - 105
- التصور الوجودي لدى الرجلين 105 - 107
- معنى الوجودية 107 - 113
- الوجودية في جوهرها الذاتية . 113 - 116
- بين حديث الحق والباطل والزلزال الأكبر : التحول الفعال . 116 - 120
- التشبيت على الأب . 120 - 122

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس : أسلوب المسعدي وتقنياته (فنياته).

- تمهيد.	124
- الجدة والطرافة	124 - 127
- علاقة أدب المسعدي بالواقع	128 - 130
- الشكل والمضمون	130 - 131
- السد	131 - 132
- مولد النسيان وحدّث أبو هريرة قال.	132 - 134
- لغة الكاتب.	134 - 136
- الصورة والاستعارة.	136 - 138
- الاسطورة والرمز	138 - 150
- المسعدي الناقد	151 - 155
- الخاتمة.	156 - 158
- فهرس الموضوعات	159 - 160
- قائمة المصادر والمراجع	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصـــادر بالعربيـــة

- محمـود المسعدي · مسرحيـة السـد · الطبعة الثانية ، تونس·
- " " حدث أبو هريرة قـال · دار الجنوب للنشر· تونس·
- " " مولد النسيان وتأملات أخرى · الدار التونسية للنشر
- " " تأصيلا لكيان · الطبعة الأولى · تونس ·
- جان بول سارتـــر · الوجودية مذهب انساني · ترجمة كمال الحاج ·
- " " " الوجود العدم · ترجمة : بدوي عبد الرحمن·
- " " " مسرحية الذباب· ترجمة : حسين مكي ·
- " " " مواقف الجزء الأول · ترجمة : مجاهـد ·
- " " " بين المفلسفة والأدب· ترجمة : مجاهـد ·
- سورين كيركجـرد · سلسلة أعلام الفكر العالمي · ترجمة : مجاهـد·
- كارل يا سبـــرز · عظمة الفلسفة · ترجمة : عادل العـوا·
- أحمـد توفيق المدني· حياة كفـاح ·(مذكـرات) الجزء الأول· الجزائر·

مـراجـــع بالعربيـــة

٤٢٠٣٨٨

- الموسوعة العربيـــة ·
- معنى الوجوديـــة · دراسة توضيحية · بيروت 1967 ·
- جان قال · تاريخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة · ترجمة : الأب مارون خوري·
- غازي أحمـد · الوجودية فلسفة الواقع الانساني ·
- زكريـا ابراهيم · الفلسفة الوجودية · سلسلة أقـرأ ·
- د/ الربيـع ميمـون · نظريـة القيم في الفكر المعاصر · الجزائر·
- عباس محمـود العقاد · بين الكتب والناس· الطبعة الأولى · بيروت·
- أحمـد خالد · الطاهر الحداد والبيئة التونسية في الثلث الأول من هذا القرن
- محمـد القاضل بن عاشـور · الحركة الفكرية والأدبية في تونس ·

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- د/محمد الطالح الجابري . الشعر التونسي المعاصر . طبعة أولى. تونس.
- محمد مزالي . مواقف. الطبعة الثانية . تونس.
- د/ محمد مصايف . النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي .الجزائر.
- د/ محمد غنيم . النقد الأدبي الحديث الطبعة الأولى .
- محمود طرشونة . الأدب المريد في مؤلفات المسدي.ط/ أولى.تونس
- عبد السلام المسدي . المقاييس الاسلوبية في النقد الأدبي. الدار العربية للكتاب .
- الماجري الحفناوي . من الثورة الى الهزيمة في حدث أبو هريرة قال . الطبعة الأولى . تونس .
- د/ عز الدين اسماعيل . الشعر العربي المعاصر . الطبعة الثانية. بيروت
- مصطفى فاسي . البطل في القصة التونسية . رسالة جامعية للماجستير . غير مطبوعة .
- د/ محمد الطالح الجابري. القصة التونسية . نشأتها وروادها . ط/ أولى تونس
- أبو القاسم الشابي . رسائله .30 مارس 1933

دوريات وجرائد

- مجلة الفكر . ع / 6 . سنة : 1956.
- " " ع / 4 . سنة : 1980.
- " " ع / 6 . سنة : 1981.
- " الموقف الأدبي . ع / 91 . سنة : 1978.
- جريدة المبشر. عدد: 4 . سنة : 1922.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصادر و مراجع في الفرنسية والالمانية

1) La vie littéraire et intellectuelle en Tunisie de 1900 à 1937 par : [illegible]

2) Soixante ans de la pensée Tunisienne à travers les revues (arabes) par : A.[illegible]

3) Aspect de la pensée Tunisienne contemporaine par : M.[illegible].

4) La Tunisie au début du XX eme siècle : par MAURICE RESNIER ET RAPHAEL PONCHAUD

5) l'Existentialisme : par : PAUL FAVAQUIE : Paris 1956 . Faulquie

6) Dictionnaire usuel : PARIS.

7) Jean WAHL . Les philosophes de l'existence. Paris

8) Kierkegaard vivant : PARIS .

9) Jean paul Sartre . Qu'est ce que la littérature . Paris.

10) Djaafer Madjid . La presse littéraire en Tunisie de 1904 à 1955. TUNIS.

11) Farid GHAZI . La nouvelle en Tunisie . Tunis

12) Francis JEAN SON . Le problème morale de la pensée de Sartre. SEUIL . PARIS. Seuil

13) Philosophen des 20 Jahrhunderts . imprimerie . Freiburg im Main.

14) FRIEDRICH NIETZSCHE . ZWEITER BAND VERLAG [illegible] Munchen .

15) EUROPAISCHE DRAMEN . VON IBSEN BIS [illegible] WAYER, BUTTNER . FRANKFURT A/ MAIN. → Zeckmayer .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit